

إدوارد فيركين

فوج الغيوم

رواية للفتيان

ترجمة: شاهر أحمد نصر

إدوارد فيركين

فوج الغيوم

رواية للفتيان



ترجمة: شاهر أحمد نصر

مراجعة: د. نوفل نيوف

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PZ10.731.E38 Faw 2020

Verkin, Eduard

فوج الغيوم : رواية للفتيان / تأليف إدوارد فيركين ؛ ترجمة شاهر أحمد نصر ؛ مراجعة نوفل نيّوف. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

٣٨٣ ص. ؛ ٢١ سم.

ترجمة كتاب: Oblachniy polk

تدمك: ٣-٦٤٠-٢٥-٩٩٤٨-٩٧٨

1- القصص العربية- مترجمات من الروسية- أدب الأطفال. 2- القصص الروسية- مترجمات إلى العربية- أدب الأطفال. أ- نصر، شاهر أحمد. ب- نيّوف، نوفل. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الاصل الروسي:

Original title: Oblachniy polk

صمم الغلاف: أوليغ براودي

طبع الكتاب بموافقة المجلس الوطني للإعلام برقم الطلب MC-03-01-7567022 .

طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 8002220



ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 +971



فوج الغيوم

الفهرس

من الصعب أن تكتب اليوم عن الحرب الوطنية العظمى؛ فقد كُتب ونُشر الكثير عنها، ولم يبقَ الآن تقريباً من يتذكَّرها. إنَّ صعوبة الكتابة لليافعين مضاعفة. يخيَّل لنا أنَّ جيل الشباب الناشئ مهتم بأشياء أخرى مختلفة تماماً...

ولكن تبيَّن أنَّ المسألة ليست كذلك! فاليافعون بالتحديد هم من ساهموا في أن يتبوأ هذا الكتاب المركز الأول في مسابقة «كنيغورو» لأفضل عمل أدبي للأطفال والشباب في عموم روسيا. إنَّ هذه القصة النفَّاذة وجدت صداها الحيَّ عندهم بالذات. إنَّها قصة معقدة، حمَّالة أوجه، أحياناً تقلب الروح رأساً على عقب، ولكنها تجعلنا نحسُّ بما كان ونفهمه على نحو أفضل.

سنراهم بأم أعيننا: فدائيين يغمرهم الوحل والثلج حتى خصورهم، يقبضون على أفراد الشرطة العملاء المذعورين، يبادلون قنابل الألمان اليدوية بمعلَّبات اللحم المشهورة، ويتوقون يائسين إلى الدفء والشبع.

ها هو ذا ديمكا الذي فقد عائلته في الأيام الأولى من الحرب، يحمل السلاح، ويحلم بأن يثأر أخيراً للضحايا الذين قتلهم الألمان. وها هو ذا سانيتش الجَسور الذي رقَته غجرية لحمايته من الرصاص والموت، الثرثار والمقاتل الشرس، يهاب ثلاثة أشياء فقط: الخيانة، والمُخبِر في حكايات الجدَّة، والفتاة الصارمة أَلِفْتينا. ولا ننسى كوفالِتْس المتأنِّق الذي يسرِّح شعره بأحدث الأمشاط الدارجة، إلا أنَّه محارب شجاع ومقدام، أو شورِك الملقَّب بشوري، الذي يحلم أخيراً بالحصول على مسدَّسه الأول...

لقد أغلق القرن العشرون أبوابه على ملايين الضحايا الذين فارقوا الحياة في حروب كثيرة، ولكنْ ظلَّ سانيتش، وكوفالِتْس، وآلكا، وكثيرون غيرهم يحدِّقون بنا عبر دخان البارود. فمن هؤلاء؟ يصعب القول؛ ولكن الشيء الواضح الوحيد هو أنهم كلَّهم فوجُ الغيوم.

«فوج الغيوم» كتاب حديث عن الحرب وأبطالها، كتاب عن المصير، عن الواجب، وطبعاً عن الحياة بشجاعة، كُتب وفق قواعد النثر الروسي لليافعين، ولكنه يتجاوز هذه القواعد بجرأة. إن غياب «البطولة»، إلى جانب ما فيه من بساطةٍ وتلميح، واعتيادية الحرب أمور تضعه في مصافِّ أفضل الأعمال الأدبية في القرن العشرين.

لقد نالت رواية «فوج الغيوم»، فضلاً عن فوزها في مسابقة «كنيغورو» عن أفضل عمل أدبي للأطفال والشباب في عموم روسيا، جوائزَ ف. كرابيفين، و ب. باجوف، وأُدرِجت في القائمة الطويلة لجائزة ب. بيلكين، وفي القائمة القصيرة لجائزة ل. تولستوي «ياسنايا بوليانا».

المقدمة

كنا طِوال القامة، شعرُنا أشقر.

ستقرؤون في الكتب، كما في الأساطير،

عمَّن رحلوا، قبل أن يكملوا عشقهم،

وقبل أن يكملوا تدخين سجائرهم الأخيرة.

كاتب هذه السطور هو الشاعر نيكولاي مايوروف، الذي استشهد في الثانية والعشرين من عمره، في شباط 1942 في معركة قرب مدينة سمولينسك.

اثنتان وعشرون سنة عمر قصير، ولكنها أطول من العمر الذي أتيح لبطل هذا الكتاب، الذي بين أيديكم الآن أن يعيشه.

ربَّما لم يكن ثمة أي شيء مشترك بين ذلك الصبيّ القرويِّ وذلك الشاعر الطالب في جامعة موسكو. لا شيء مشترك! اللهمَّ إلا الاستشهاد في الحرب، إلا الأساطير؛ أحدهما تنبأ بها، وأصبح الآخر بطلها.

لم يخطِّط أحد لذلك، بل هذا ما حدث. لقد ختمت الأسطورة حياتها. والآن، يحتاج لمْسُ تلك الأسطورة إلى شجاعة كبيرة.

لقد اتضح أن إدوارد فيركين شخص شجاع تماماً، فقد تجرَّأ على أن يتحدَّث مع القارئ حول موضوع ليس محرَّماً فحسب، بل صعباً للغاية. تجرَّأ على أن يطرح في كتابه أسئلة قلَّ من يطرحها، وتجرَّأ على أن يتحدَّث لا كما يتحدث الآخرون عادة.

وعلى أي حال، يبدو أن فيركين لا يتحدَّث قط عن أي شيء بالطريقة المعتادة، فعلى الرغم من أنَّ كلماته وموضوعاته تبدو عادية، وكذلك الأحداث، فإنه يَحرِف الحدث العادي قليلاً، ويجد الزاوية التي يقارب منها الموضوع العادي، ويبتكر طريقة في ترتيب الكلمات العادية الأكثر شيوعاً، فيحصل على نتيجة مذهلة. وهذا ما يسمَّى موهبة الكاتب التي يؤكدها فوزه المتتالي في خمس مسابقات أدبية كبرى.

لئن كانت موجودة على رفِّ كتب إدوارد فيركين دُررٌ كسلسلة «أرض الأحلام»، وروايات «الصديق أبريل»، و«الميت»، فإن قصة «فوج الغيوم» تحتل مكانة مميزة. يكمن جوهر المسألة في أنَّ أحداث الكتب السابقة تجري في زمننا اليوم، سواء أكانت واقعية، أو متخيَّلة. أما «فوج الغيوم» فهي رواية تاريخية؛ يتعيَّن على أبطالها اليافعين ليس مواجهة أزمة الانتقال إلى مرحلة النضج وحدها، وإنما مواجهة التعامل مع ظروف لا تُطمْئِن على الإطلاق، فقد وجد أبطال «فوج الغيوم» أنفسهم رهائن لتلك الظروف الفظيعة نفسها، وأُجبروا على امتشاق السلاح لمواجهتها حقاً. لكن القول بأنَّ جميع المشكلات الأخرى التي تقلق اليافعَ عادة تتلاشى أمام هذه الظروف، يعني مجافاة الحقيقة، لأن الإنسان في كل زمان ومكان يولي اهتماماً للأصدقاء والأعداء، لعلاقاته مع الناس، لموقفه من العالم، لحبِّه الأول، لمعرفة نفسه، للشرف، للصدق.

إنني أخشى أن أقول المزيد عن هذه الرواية. صعبٌ علَيَّ أن أتوقَّف، ولكنْ لا بدَّ من ذلك. لأنّ رواية «فوج الغيوم» طريق يجب على القارئ أن يجتازه بنفسه. ليس مصادفة أن يقول الصحفي الموسكوفي شامل إيدياتولين عن هذه الرواية: «ينبغي لكل من يقرأ باللغة الروسية أن يقرأها».

* * *

قبل أن يظهر هذا الكتاب بالشكل الذي بين أيديكم الآن، صوَّت أكثر من ألف قارئ، من الفتيان وممن يطلق عليهم عادة اسم البالغين، لصالحه. وقد وصل مخطوط رواية «فوج الغيوم» إلى نهائيات جائزة «كنيغورو» عن أفضل عمل أدبي في عموم روسيا، ونُشِر في موقع الجائزة على شبكة الإنترنت ليحدِّد القرَّاء في لجنة التحكيم مصيره مع أربع عشرة رواية أخرى، ففازت رواية إدوارد فيركن هذه بالمركز الأول من دون منازع.

كسينيا مولدافسكايا

الفصل الأول

- كيف نصفِّر، يا ترى؟

- يمكن ألا نصفِّر، يمكن أن نصرخ.

- نصرخ؟

- نصدر صرخات قتالية، أخذت أشرح. هكذا، مثلاً.

رحت أصرخ، يبدو أنَّ النتيجة لم تكن جيدة جداً: نوع من الفحيح المذعن إلى حدٍ ما. لم أكن أتوقع هذا من نفسي. أخذ فوفكا يضحك.

- ليس مخيفاً، قال لي.

- أبداً، على الإطلاق. ينبغي أن يكون أقوى بكثير. ذات مرة شاهدت برنامجاً عن لاعبي التنس، إنَّهم يصرخون دائماً، بهذه الطريقة يصبحون أقوى. لاعبو الكاراتيه يصرخون أيضاً، وكذا رافعو الاثقال، إنهمْ يبذلون جهداً في رفعها، فهل، يا تُرى، رفعُ الأثقال مع الصراخ أسهل أيضاً؟

- ربَّما.

- إذاً، سأحاول.

أخذ فوفكا نفَساً عميقاً، وهيَّأ جسمه المحروق من الشمس، ووثب مندفعاً من مكانه، وأطلق صرخة غريبة، ثم قفز فوق جذور الصنوبر، باسطاً ذراعيه أمامه، مندفعاً على طول منحدر رملي، فالتصق بمقدمة القارب، وغرز قدميه بجنون في الرمال التي غمرته حتى ركبتيه تقريباً، ثم أطلق زئيراً، وهو يسند جبهته إلى حافة القارب.

تحرَّك القارب نحو عشرين سنتيمتراً، نصف خطوة.

- أرأيت؟! صرخ فوفكا بنبرة المنتصر. أرأيت، آ؟! وأنت كنت تقول!

ابتعد عن القارب، ولج النهر حتى بلغ الماءُ ركبتيه، غطَّس رأسه في الماء وحبس نفَسه دقيقة ليمرِّن رئتيه، ثم خرج من تحت الماء.

- هذا المكان مليء بالأسماك الصغيرة. راح فوفكا يمسِّد شعره براحة يده، وينشِّفه من البلل. نوع من سمك الرنكة الوقح... هل رأيت كيف تحرك القارب؟ نحو متر.

- هل ستستمر في دفعه حتى المساء؟

- لا، ليس حتى المساء. لم يبق إلا القليل، سأكمل دفعه.

نهض فوفكا مرة أخرى، وراح يتمشَّى على طول الشاطئ، ويجمع الصدف، يبدو أنَّه سوف يصنع منها قلادة.

- سأدفعه ثلاث دفعات أخرى، قال فوفكا، سيأخذه الماء بنفسه.

وضع فوفكا الصدف في حقيبته، وعاد باتجاه النهر، ثم ركض مسرعاً، ودفع القارب بعزم، عشرين سنتيمتراً.

- آها! ركل فوفكا جانب القارب، هكذا إذاً!

ثم عاد وصعد معيداً الكرَّة.

إنَّه يمارس هذا العمل منذ نحو ساعة تقريباً. لو كنت مكانه لتركته منذ فترة طويلة، والتقطت تلك الخشبة، وأسندتها إلى كتفي، ودفعت بها القارب، أو هززت مؤخرته، كي أزحزحه من مكانه. لكنَّ ذلك لا يعجبه.

أجلس على الجرف، أتشمَّس، وأحرك أصابعي. نعم، إنَّه السبت، السبت كسول مثل كلبٍ هرِم. قبل الغداء خاصة، تنبعث من القطران والعسل رائحة واحدة تقريباً، وتحلِّق في السماء طيور ناعسة، يبدو أنَّها طيور النورس، هكذا...

- إنها طائرات شراعية، التقط فوفكا نظرتي، يوجد في ريباتشيه خمس منها، كلفة التحليق فيها ثمانمائة روبل. يقولون، إنَّه شيء رائع، فوق الخليج وعلى طول الساحل...

تنهَّد فوفكا.

- سيقتلني جدك، أجبته.

- لن يعلم، لوَّح فوفكا بيديه، إنَّه يفكر في تغيير الشموع، والآن هو مشغول طوال اليوم.

- وأبوك سيقتلني. ذكَّرته.

- أبي نفسه يستعدُّ للقفز بالمظلة.

- منذ عشرين سنة وهو يستعد. بعد عامين لن تعود أي مظلَّة تحمله.

- هذا صحيح...

في منتصف النهار تبدأ عقارب الساعة دورة جديدة، ويتسارع الزمن قليلاً، ولا تعود الحياة ممتعة. أما بين الثامنة والثانية عشرة فيطيب الوقت، إذ تشعر بالأفق، والدقائق ليست في عجلة من أمرها، وأنت مثلها لستَ في عجلة من أمرك. يمكنك أن تجلس عميقاً في الكرسي، وتسرِّح نظرك في الخليج، في شريط الماء الضيِّق الدقيق بين أشجار الصنوبر الجميلة. أحياناً يلوح هناك شراع أبيض، وأحياناً أخضر.

اليوم لا يلوح أي شراع.

يصعد فوفكا إلى مقعد القارب، يخلع العُصابة عن رأسه ويلوِّح بها، يلقي بنفسه في الماء، ثم ينهض والعشب يغطي كتفيه، يخرج إلى الرمل، ويستأنف دفع القارب. لا جدوى، لقد كلَّ من التعب.

- لم أفلح مرة أخرى، قال فوفكا، إنه ثقيل.

- هل تريد مساعدة؟

- لا، لا داعي، غداً سأدفعه بنفسي. اليوم لم يعد لدينا الوقت الكافي على أي حال.

هذا صحيح تماماً: اليوم ليس لدينا وقت مناسب لفعل أي شيء.

- هيَّا نذهب... نظر فوفكا إلى ساعته.

- نعم، هيَّا نمضِ وإلا سوف يصرخون مرة أخرى، سآخذ المجذافين فقط...

ركض إلى القارب، ونزع المجذافين الثقيلين المسوَدَّين، مجذافين حقيقيين من قوارب القراصنة، ألقاهما على كتفيه، غاصت قدماه في الرمل، وهو يصعد. حاول إصدار صفرة مستهترة، والمجذافان يؤرجحانه ذات اليمين وذات اليسار.

مضينا عبر غابة الصنوبر. كان فوفكا يحمل المجذافين، ليس لديه قوة كافية للمحافظة عليهما شاقوليين. لـمَّـا سقط رابع مرة أخذ يشتم: شتم أولاً المجذافين، ثم القارب، ثم مدربه، والطقس، ولسبب ما اليابانيين؛ لا أعرف لماذا أغضبوه؟ وأيضاً السناجب التي تواقحت وسرقت منه قطعتين من حلوى (المَلْبَن[1]) في الصباح. ستُخرجه عن طوره، ستتوتر أعصابه...

يتصرَّف بمرح وبنزق. وسرعان ما أدركت أصل هذا الحماس؛ لقد كانوا ينتظروننا على المصطبة، وقريباً سيوبخون فوفكا توبيخاً مملاً طويلاً، بصوتين كل واحد منهما أكثر حكمة من الآخر. أشعر بالسأم من سماع ذلك، فأقصد الشرفة. أجلس على كرسي، وأخلع جزمتي المصنوعة من اللبَّاد، وأمدُّ ساقَيَّ. جزمة اللبَّاد في آب كالنوم بعد ظهر يوم السبت.

في الثانية عشرة تنتعش الأصوات. يجر فوفكا السلَّمَ النقَّال من المرآب، ويتفحَّص الجزء الأعلى من الخزانات. تقرقع أواني الألمنيوم، وتتساقط من يديه أصص الحديد ومجلَّدات مجلة «رواية في صحيفة»، وتتساقط أباريق معدنية، وغطاء الأكورديون، وإسطوانات قديمة عليها خدوش اعتباطية طولية عميقة العرض. تتساقط رزمٌ ثقيلة تضمُّ كتيِّبات عن سياحة التزلج وأحواض الأحياء المائية. تعلو قعقعة السماورات، في الماضي كنت أهوى جمع السماورات، يمكن القول إني كنت خبيراً في هذا الموضوع، ما زلت أميِّزها من صوتها: هذه قعقعة سماوار دائري يسع دلوين من الماء، عليه ميداليات، صُنع في مدينة تولا قبل مائة عام، وهذا سماوار آخر خفيف وحديث، وإن كان مصنوعاً في تولا أيضاً، يكرج مثل علبة كونسروة ضعيفة الصوت.

ثمة أصوات أخرى: الدراجة الهوائية ذات المحرِّك، على سبيل المثال، خشخشتها ورنينها مثل رنين ساعة منبِّه مخبَّأة في طنجرة؛ هذا عند الجيران من الجهة اليمنى (عائلة كلوتشيِّيكوف، على ما يبدو). صبيٌّ ودراجة هوائية ذات محرك خليط خطير. لقد خلع المتسكِّع كاتم الصوت، وها هو ذا يصول ويجول في جميع أنحاء الحي، يرعب جيرانه المتقاعدين. قبل أربعين عاماً، خلع متسكِّع كاتمَ الصوت، وقبل عشرين عاماً خلع متسكِّعٌ كاتم الصوت، سيستمر المتسكِّع دائماً بخلع كاتم الصوت وإزعاج الناس المسالمين.

راح فوفكا يعطس، فالرياح تأتي بالغبار من الطريق، وأنا لا أغلق النوافذ صيفاً. بالمناسبة، هذا الغبار مزعج جداً لجميع المصطافين، لكنه لا يزعجني. يعجبني أنَّ الرمال وأشجار الصنوبر تحيط بي، هل يوجد رمل من دون غبار؟ إنه يتغلغل في الأحذية المنسية، ويصرُّ في سلاسل الدراجات، ويصبغ البجعات المطاطية البيضاء مثل الثلج بالأحمر، لكن الأهم من ذلك كله، طبعاً، أنه يحبُّ الورنيش الأسود، إذ يلتصق به، ويشكل مسحوقاً برتقالياً خيالياً، لا أمسحه قصداً.

أولاً: هذا يُغضب الجدَّ، هذه سيارته السرية. إنه يأتي إلى هنا مرة كلَّ شهر، يلمِّع عجلاتها وواقياتها الأمامية والخلفية، ويتفحَّص المحرك، ثم يجلس خلف عجلة القيادة، ويتمتَّع بمنظر الماء. لا يبرح مكانه تقريباً، يكتفي بالنظر.

ثانياً: يحبُّ فوفكا ذلك. إنَّه يرسم شياطين على الغبار، بالطبع تلك ليست شياطين حقيقية، لكنَّها لوحات كاريكاتورية لحيوانات بلا أسنان، لا يمكنني أن أحفظ أسماءها بأي حال من الأحوال، ويكتب على الأماكن الملمَّعة «حشرة»، «قذر»، «أشعر بالحكَّة، يا جدِّي». تصيب هذه اللوحة العجوز بموجة سُعارٍ مكبوت، ولكنه لا يجرؤ على أن يشتمه. إنه يخشى أن يغضب ابنه الصغير، فيمتنع عن جلب فوفكا إلـيَّ.

تَصْدرُ أصواتٌ. الكبير هو الابن، والصغير هو الحفيد. في الشاليه برنامج إذاعي ممتاز. لست أدري لماذا، ربما بسبب الهواء، الهواء نقي، والأصوات كقرع الطبل، أسمع كلَّ شيء. إنَّهما يتخاصمان بسبب اللحم. الصغير يشوي اللحم، والكبير، كما تبيَّن، يشتهي الكباب. يقول إن الشواء أمر شائع: اذهب إلى النهر تجد تحت كل صفصافة أناساً يحملون الأسياخ عابسين، في عيونهم بؤس. يسخر الصغير منه، وينصحه بمراجعة طبيب تقويم أسنان متمكِّن، لأنَّ من ينتقل من الشواء إلى الكباب، عليه أن يتعامل بجدية مع حالته... هكذا، وهلم جرا...

يتصاعد دخان شواء اللحم كثيفاً من خلف الباب. كنت قد طلبت منهما أن يشويا اللحم بالقرب من النهر، لكنهما كسولان: يتكاسلان في كل شيء، إلا في تبادل النباح (غداً سأصبُّ القطران في منقل شوائهم، قليلاً منه، للشهية لا أكثر).

بالمناسبة، ثمة كلب ينبح أيضاً، إنَّه كلب بيت لوبانوف. يشتكي الجيران من نباحه الفارغ، لكني أحبُّ نباحه المتواصل؛ نباح الكلاب دليل على استمرار الحياة.

يقفز فوفكا عن السلَّم النقال، يعطس ويفرك أنفه، ثم يناولني علبةً تلمع.

- ما هذا؟

- لَفَّافة سجائر؛ آلة مريحة للغاية، تضع التبغ هنا، وتضع الورق هنا، وتدير المقبض فتحصل على سيجارة.

- لماذا؟

- للتدخين.

- واضح، كنت أظن أنك تدخِّن الغليون فقط.

- أنا لا أدخِّن على الإطلاق.

- ما الغاية، إذاً من لَفّافة السجائر؟ هل هي هدية للذكرى؟

- نعم.

عموماً، هذه ليست ذكرى، وقد ألقيت كلمتي من دون أن ألتفت. ثمة سكِّين لبَري الأقلام مرصَّعة بالفضة، وخمس شفرات، ومفك براغي، ومفتاح قناني، وحتى مقص جانبي صغير. غير أن لـ «إلقاء الكلام» قواعده، قد توفَّق بمقايضة جيدة، وقد تقايض ملعقة بشوكة. ومن ناحية أخرى، فهذه ذكرى، طبعاً. لقد كان الجميع يومها في مزاج طيِّب: يتعانقون، ويصرخون، ظلوا يتقايضون أسبوعاً كاملاً مثل المجانين. وأنا أيضاً قايضت ولم أندم. إنها أشياء للذكرى حقاً ما زالت تعمل، وقبل ثماني سنوات كانت تعمل...

- هل يمكن أن تقدمها لي، وليس لبيتكا؟ حسناً، لاحقاً؟

- يمكن، إنما ينبغي ترك شيء ما لبيتكا، فهو أيضاً حفيدي.

- لماذا؟ قطَّب فوفكا، إنَّه يزورك مرة واحدة في السنة، ونحن نزورك كلَّ أسبوع تقريباً. دعه يأخذ المثقب في الحظيرة، فهو مولع بالميكانيك، أو اعطني لفافة السجائر، سأصبح مدخناً.

فرك فوفكا لفافة السجائر بإصبعه، وعاد إلى السلَّم، وأسقط سماواراً آخر.

- كن حذراً.

- لا بأس. ضيَّق فوفكا عينيه تفادياً للغبار.

- كيف حال عظم الترقوة؟

- لا بأس أيضاً.

ذهبنا إلى مركز الأشعة السينية يوم الخميس، ومكثنا هناك ساعتين.

- لماذا؟

- تشاجر جدي معهم كي يعطوني سروال الرصاص، أما الطبيب فقد قال إنه لم تعد هناك حاجة إلى سروال رصاص بوجود هذا الجهاز، لكنَّ جدي غضب جداً، وراح يصرخ قائلاً: إن الطفل لن يدخل الجهاز من دونه.

أخذ فوفكا يضحك.

سروال الرصاص، هذا يشبه ابني كثيراً.

- ثم ماذا حدث؟

- ثم بدأ الطبيب -أيضاً- في الصراخ. لقد امتقع وجهه، وضرب جهاز الأشعة السينية بقبضته، وخرج إلى مكان ما، ثم عاد.

- حاملاً السروال؟

- نعم، إنما تبين أنَّه كبير وثقيل جداً، لم أستطع حتى رفعه عن الأرض. قال جدي إنه سيدخل معي إلى حجرة الأشعّة، وبينما يثبت هو علـيَّ سروال الرصاص، يلتقط الطبيب الصور، فأجابه الطبيب بأن مركز الأشعة السينية ليس حمَّاماً، ولا يدخل أحد مع المريض.

عندئذ أخذت أضحك.

- في هذه اللحظة وصل أبي إلى المستوصف، واصل فوفكا حديثه، قال إنَّ الطبيب محقٌّ، يمكن الاستغناء عن السروال. هذا جهاز ألماني، لا يصدر أشعَّة على الإطلاق. بوسع الجد أن يتخلَّى عن ظلاميته...
ابتسم فوفكا: ربما تخيل ماهية العقيدة الظلامية.

- هكذا إذاً، لقد دعا الجد إلى التوقُّفِ عن سخطه، وألا يتدخل في علاج الطفل. قريباً عنده مباراة، ولا يجوز أن تعرِّض عاداتُنا وتصوراتنا الخرافية مستقبلَه الرياضيَّ للخطر.

الخرافات لا تهم فوفكا، بل المستقبل الرياضي، إنَّه يشبه حفيدي فعلاً.

- كيف انتهى الأمر؟

هزَّ فوفكا كتفيه.

- لقد وصلت أمي.

- مفهوم.

أمي فتاة جدية.

- هكذا إذاً، عظم الترقوة لدي على ما يرام؛ يمكن الذهاب لصيد السمك، وصعود السلالم، وكذلك الصعود إلى العلية. لقد انتعلت حذاء رياضياً خاصاً.

عرض فوفكا حذاءه الرياضي بلون جلد الضفدع النقي.

- أحذية جيدة.

- هيا، إذاً، إلى العلية؟ في آخر مرة، حدث سوء فهم...

إنما لا يمكن الصعود إلى العلية، يفتحان الباب المؤدِّي إلى الشرفة، ويخرجان معاً، ويتشبثان معاً بحذاء فوفكا.

- هل تصعدان إلى العلية مرة أخرى؟ سألهما ابني باستياء.

- دعهما يصعدان، إنه مكان رائع، قال حفيدي، هناك شِباك معلَّقة، ومصباح كيروسين من نوع مشهور... قضيت كلَّ طفولتي هناك.

- هذا واضح. الأفضل لو أنك قضيتها على مقعد الدراسة. بالمناسبة، كدْت تقضي على نفسك في هذه الِشباك، ألا تذكر؟ أنا لا أتحدَّث عن نوع المصباح...

يلتفت ابني نحوي، وهو يمسح نظارته بمنديل. إنَّه بدين ويتصبَّب عرقاً، كما أنَّه كهْل وعصبي، كهل، لم أتخيل قط أنَّه سيكون لدي مثل هذا الابن الكهل.

- أبي، هل تذكر كيف صنع القوس والنشاب؟ حدَّق ابني بي، فاضطررت للاعتذار من أهل ذلك الصبي طوال أسبوع! العلية! هناك غبار، وعفار، وتجمع جراثيم! ستضعف مناعة الطفل من رياضتك. سيسيل أنفه باستمرار، إنَّه مصاب بالحساسية، ما حاجته إلى العلية؟!

- ينبغي أن يكون لكلِّ صبي علـيّـة خاصة به، يعترض حفيدي على الفور، مقرٌّ خشبي، أو كوخ...

بالمناسبة، هو أيضاً بدين، بل أكثر بدانة، ثمة طيات شحم واضحة على قذاله، تراودك رغبة في إمساكها، يا لها من مظلة قفزٍ لديه... لم أتخيل قط أن يكون لدى أحفادي مثل هذه الطيات على القذال.

- لا تحدثني عن الكوخ! كاد ابني يصرخ، لا تحدثني عن قضاء الليالي فيه! لا أزال أعاني من انقراص الفقرات نتيجة قضاء الليالي... في العلية... لم يبقَ إلا أن تذكرني ببيت الثلج!

بدأا مرة أخرى يتشاجران!

يتشاجر ابني وحفيدي تقريباً باستمرار، كلَّما أتذكَّرهما معاً؛ إنَّه صراع الأجيال، ولا يمكن فعل أي شيء. يقول حفيدي إنه لا حاجة لتهديد طفل عمره عشر سنوات بانقراص الفقرات، حتى الآن ليس هناك أي مؤشرات على ذلك، إنَّه يحتاج إلى التفكير بمستقبله الرياضي، وليس بالعمود الفقري لأجداده، فيعترض ابني. ثم يبدأ بالصراخ (إنَّه يصرخ باستمرار تقريباً)، قائلاً: إنَّ الصبي يحتاج

إلى غذاء فكري، وإنَّه لن يصبح لاعب هوكي أبداً، لن يصبح أبداً، حان الوقت للتوقف عن السخرية من الطفل ورؤية ما يناسبه، واضح أنَّ العلوم الإنسانية تناسبه...

أخذ فوفكا يفرك أذنيه، في حين استمر الأهل بالخصام. أخيراً، يحدث ما يحدث دائماً: إنَّهما ينسيان وجودنا، يذهبان إلى الحديقة، ويواصلان المجادلة هناك. فجأة يبدأ الأصغر شتائمه بصوت عالٍ وعنيف جداً، ويهدِّد بأنه سيقتل شخصاً ما، سيسحقه، سيجعله ورقاً للشوكولا، فيضحك الأكبر، ويصرخ الأصغر غاضباً. يبدو أن اللحم سُرِق من الطنجرة. إنَّها نبَّاحة بيت لوبانوف؛ فهي تذهب إلى جميع البيوت، وتشحذ الطعام، مع أنَّ أصحابها يطعمونها جيداً، هذه طبيعتها. وحين تجدُ شيئاً غفَل عنه أصحابه...

يولول الأصغر قائلاً ينبغي الآن الذهاب لشراء اللحم، والبدء من جديد، فقد قاربت الساعة الواحدة، يردُّ الأكبر بأنَّ هذه علامة من القدر، فقد حان الوقت منذ زمن بعيد للتخلِّي عن هذا الشواء المبتذل، بل عن اللحوم عموماً. يمكنك شراء الجمبري، والبهارات الزكية الرائحة، والديك الرومي، أو الكباب في الحالات القصوى. إنهما ينسيان وجودنا تماماً، ويمضيان لشراء الكباب أو الجمبري، فيسود الهدوء، لكن باستثناء هدير الدراجة الهوائية ذات المحرك.

- حسناً، ماذا سنفعل؟ يتساءل فوفكا بضجر، دعنا نتدرَّب، طالما لا يسمح لنا بالصعود إلى العلية في جميع الأحوال. يقول أبي إنَّ «الأسماك» تموت خلال أربع دقائق...

- أما هو فكم يحتمل؟

- لا يحتمل أي لحظة على الإطلاق: إنَّه يعاني من ضغط الدم. حسناً، هل نذهب ونحضر العدَّاد؟

- لا نذهب إلى أي مكان، نصعد إلى العلية.

- لكنْ، هناك غبار، راح فوفكا ينظر إلى السقف، يمكن أن تشتدَّ الحساسية...

- الحساسية يمكن أن تشتدَّ في أي مكان، وفي أي وقت، عموماً هل تعلم أنَّ قليلاً من الأوساخ لا يؤذي. ينبغي أن نعوِّد أجسامنا، إننا نتعوَّد باستمرار، هيا إلى الأمام.

مضينا إلى الورشة، استغرقنا وقتاً طويلاً في وضع السلَّم لنصعد عليه، وشرعنا نحاول. كان فوفكا يزحف أولاً، وأنا أتبعه.

هذه هي العلية، والشِّباك معلقة هنا، منذ متى، حسناً... لا أذكر، منذ أيام غاغارين بالتأكيد، لقد قصدنا بحر آزوف في ذلك الحين، ثم علَّقتها، كي تفوح رائحة الملح والسمك، ولكي تلمع الحراشف في الشبكة، لكي... لا أعرف متى علِّقت هذه الشباك، تذكرت عطر «أسول» وسمك الرنكة.

يشقُّ فوفكا طريقه عبر الشِّباك، يعلَق بها، تحاصره، ويَعلَق مرة أخرى، فيضحك، ويرتفع الغبار الفضي في الهواء.

- هل توجد قصبات صنارات؟ يتناول فوفكا من الشبكة سمكة صغيرة جافة (علّقها هناك)، من الخيزران؟

- ما حاجتك إليها؟ لديك واحدة من البلاستيك.

- واحدة من الخيزران ببساطة... عضَّ فوفكا السمكة الجافة من أحد جوانبها. مالحة... سابقاً كانوا يصطادون بالخيزران فقط.

- القصبة البلاستيكية أفضل.

- أفضل، إنما الخيزران مسألة مختلفة، أليس كذلك؟

- صحيح.

- هذا ما أقوله...

جلس فوفكا على الأريكة المتداعية التي تصدر زقزقةً موسيقيِّـة. الأريكة تصرُّ وتتصاعد منها زوبعة غبار، هذا غبار من نوع آخر، يمكن أن تجمعه بسهولة في قبضة، وتجعله على شكل طير، مثلما تفعل بلبِّ الخبز.

- ماذا يوجد في الأريكة؟ أخذ فوفكا يخبط على القماش الأحمر.

- لا شيء، سابقاً لم يكونوا يضعون أي شيء في الأرائك، مجرَّد هياكل.

- هل يوجد لديك هيكل هناك؟ توقَّف فوفكا عن القفز.

- بالتأكيد.

يضحك فوفكا، وينهض عن الأريكة مقترباً من خزانة الكتب. آخر مرة، فتَّشها حتى الرف الثاني، أما اليوم فإنَّه غير مهتم بالكتب، يسحب الغراموفون عن الرفِّ.

- الإسطوانات هناك في السلَّة.

الإسطوانات لا تهم فوفكا أيضاً. يضع إبرة الجهاز في وضع الإقلاع، ثم يفتل النابض، ويشغِّل الجهاز.

أردت أن أقدم له إسطوانة مرة أخرى، لكنني أدركت فجأة أنني أحمق: فوفكا ليس مهتماً بهذا على الإطلاق. جلسنا في العلية صامتين مدة، نستمع إلى أزيز الترس، ونراقب دوران الإسطوانات البطيء، تقطع هسيسَها نقراتٌ حادةٌ، ثم أغلق فوفكا غطاء الغراموفون، ورفع الجهاز بسهولة إلى الرف الثالث، إنَّه لاعب هوكي على أي حال.

- هل أخرجت معاطف الفراء من الخزانة؟ سألني.

- أخرجناها منذ أيار، أجبته، هاجمها العث والتهمها.

- شيء مؤسف، كانت معاطف فراء رائعة. لا يوجد في منزلنا أي منها، أمي من جماعة حماية الحيوان، أنت تعلم معنى ذلك. ما هو ذلك الشيء هناك؟

يعود فوفكا إلى الشباك، ويشقُّ طريقه عبرها، ثم ينتزع صندوقاً بلاستيكياً أخضر معلَّقاً في الزاوية.

- صنارات بهيئة أسماك... لماذا تحتاج إلى هذه الصنارات، حتى إنَّها شتوية؟ آها، فنلندية، أصلية! هل أستطيع أن آخذها؟

- طبعاً، خذها.

يخرج فوفكا الصنارات، ويتفحَّصها، ويجرِّب حدَّتها على ظفره.

- حينما يحين موسم الجليد، سنذهب إلى الصيد في العطلة أعِدك.

- في العطلة نحن ذاهبون إلى ياروسلافل، حيث ستقام مباراة البطولة أيضاً. صنارات جيدة، لا يوجد مثلها الآن... يبدو أنَّها مصنوعة يدوياً، مطلية بالفضة.

يتجوَّل فوفكا عبر الشِّباك، يسقط عن الرف علبة مسحوق البوليسترين، فيتطاير الثلج.

رحت أضحك.

خرج فوفكا من الشباك مسروراً، وقد غطَّته رغوة البوليسترين.

- هل صحيح ما يقوله أبي؟ سألني.

- ماذا قال؟

- إنَّك قتلت عشرين ألمانياً.

- عشرين؟

- عشرين، هذا فقط بالرشَّاش!

- هذا فقط بالرشَّاش. نعم...

- وسبعة آخرين طعنتهم بالحربة!

- طعنتَهم؟

- نعم، والبقية بالمسدَّس الرشاش PP SH.

- من أين لك معلومات عن المسدَّس الرشاش PP SH؟

عموماً، أنا لست مندهشاً جداً، منذ زمن بعيد لم يعد شيء يفاجئني. الآخرون من سلالة جديدة، ليسوا مثلنا. لكنني، لسبب ما أفهمهم، لم أفهم الأكبر، فقد كان يتحدَّث إلى الأصغر كغريب، كلُّ شيء يختلف مع فوفكا، برغم أنني ربما أعود إلى الطفولة تدريجياً؟ ربما، حان الوقت فعلاً... عموماً حان الوقت منذ زمن بعيد...

- أيام الحرب كان المسدَّس الرشَّاش متوفراً للجميع، لا بدَّ أنَّه كان موجوداً لديك. أم كان لديك MP 40؟

- هذا يعتمد على الحالة: إذا كنا في وضعية الجاهزية، فمن الأفضل أن نحمل الرشاش PPsh، وإذا كان الأمر عادياً فنحمل MP. عموماً، كنا نسير حاملين المسدَّسات، فهي مريحة.

- لماذا؟

- من أين لك كل هذه المعلومات عن الأسلحة؟ أجبته عن السؤال بسؤال.

- آه، لوح فوفكا بيده، لقد قرأت كثيراً من الكتب.

إنه يقرأ الكتب، هذا أكيد.

- الجميع لدينا في الفصول الدراسية يقرؤون، ذهب فوفكا إلى البوفيه، في المرة الأخيرة لم يصل إليه، ماذا يوجد هناك؟

- أنا لا أذكر.

- هل يمكنني رؤيته؟

- طبعاً.

يفتح فوفكا البوفيه، ويستنشق الغبار.

- هنا وعاءٌ واحدٌ مكسور، يصاب فوفكا بخيبة أمل ضعيفة، لكن لا يمكن رميه. طبعاً، فقد أصبح تحفة زجاجيةً، وبعد خمسين سنة سنشتري بثمنه يَختاً. لا داعي لنفخ الغبار عنه، فهو يحميه. كما أن البوفيه نفسه شيء معتبر، يمكن تصويره للسينما منذ الآن.

يغلق فوفكا الباب بعناية.

- هل هذا البوفيه من إرث عائلتنا؟ تساءل فوفكا.

- نعم. أجبته.

هذه، طبعاً، كذبة، لكنني الوحيد الذي يعرفها؛ هذا البوفيه موروث عن عائلتنا، فقد اشتراه جدي بعد حرب القرم مباشرة.

- شيء عظيم، كأن الورنيش وضِع البارحة، راح فوفكا يمسِّد البوليسترين الملتصق بالبوفيه، أخبرني أبي كيف قصَّ نجمة، وأنت جلدتَه. على الباب الأيسر... انظر ها هي!

عثر فوفكا على نجمة مشوَّهة، وراح ينظر إليها باستهجان.

يحبُّ فوفكا الأشياء القديمة والتحف، فهو لا يمر أمام محلات «الأنتيكا» إلا ويعرِّج عليها. دخلنا معاً إلى القبو، من تحت حدوة الحصان والجرس. جلست على مقعد نادر من حديد الزهر، في حين راح فوفكا يتجوَّل بين الصفوف، وينقِّب في الشارات والأوسمة، وفنارات الدراجات، ومجموعات أوزان الصيادلة، وساعات التنبيه التي تعود إلى ما قبل الثورة، كل ما هو موجود مبعثرٌ بوفرة في كل علِّيات منازل مدينة موسكو إلى علِّيات منازل فلاديفوستوك. شرع يقلِّب صفحات الألبومات القديمة، ويتفحَّص بالمكبر صوراً صفراء لنساء لا يعرفهن، ويلمس بأصابعه البطاقات البريدية. يبدو أنه في عيد ميلاده طلب من والده أن يهديه جهاز الكشف عن المعادن، وقد أهداه زلاجات؛ زلاجات مهنية، مصنوعة من فولاذ خاص، تصلح لقطع الأنابيب. لماذا تقطع الأنابيب بالزلاجات؟

- المرة الماضية لم نفتح الصندوق، لم يكن لدينا وقت، هيا نفتحه اليوم، آ؟

أزال فوفكا العلَّاقة عن الجدار، وبدأ بتجريب المفتاح: راح يضغط على القفل، ويتفحَّص بعض المفاتيح باهتمام، ويصفر على الأخرى.

- ماذا تقرأ هناك؟ سألته.

- آه، كلَّ شيء، يجرِّب فوفكا مفتاحاً آخر، نقرأ عن مختلف أنواع الصراع من أجل البقاء، عن المسوخ... تاريخ المنطقة. هذا ما أقرأه أنا، الآخرون غير مهتمين به كثيراً، طبعاً.

- هل كتبوا عن الأسلحة في كتب التاريخ المحلية؟ سألته مبتسماً.

- لا، كتب التاريخ المحلي تتحدَّث عن التاريخ المحلي: لماذا تسمى الأنهار هكذا، أين كانت الطرق تمر سابقاً، عن الأديرة. أما المعلومات عن الأسلحة فتجدها في الكتب التي تتحدَّث عن الحرب النووية.

- عن الحرب النووية؟

- نعم.

نجح فوفكا في اختيار المفتاح، طقطق القفل، فجفل وابتعد ناظراً إلـيَّ بحذر.

- هذا صندوق، قلت له، تعود ملكيته... إلى جدِّ جدِّك؛ يبدو أنَّه صنعه بنفسه.

- هل هو عادي؟ سألني فوفكا بارتياب.

- لا مثيل له.

- نعم... قرأت أن هذه الصناديق موجودة... باختصار، جعلَها الملاعين صناديق قاتلة، ما إن تفتح الصندوق حتى ينطلق منه سهم سام، أو رمح قصير، أو عقارب ميكانيكية، إجراء وقائي من الباحثين عن الكنوز، هكذا.

- هذا من دون رمح. أكَّدت له.

يعود إلى الصندوق، ويمسك مقبض الغطاء، ثم يسحبه إلى الأعلى بطريقة رفع الأثقال، فينفتح، ويسنده إلى الجدار.

- آ ها!

ينطق فوفكا «آها» بإعجاب كبير إلى درجة جعلتني أظن أنَّ محتويات الصندوق تحوَّلت بمعجزة، وصارت كنوز قراصنة، بعد أن كانت سقط متاع قديم.

- نعم...

يمسح يديه بسرواله، ويتناول حزاماً من الصندوق.

- أهو لك؟

- يبدو...

- عسكري؟

-أجل.

في الواقع هذا الحزام ليس عسكرياً، لقد حصلت عليه بعد الحرب بمدة طويلة، لست أدري لماذا لم أرمِه... برغم أنني قلَّما رميت أي شيء سابقاً.

- عليه نجمة، كما ينبغي... راح فوفكا يتفحَّص الاخضرار المتراكم على الشارة، ثم قطَّب غاضباً، يحتاج إلى تنظيف بالمعجون...

إنه يرتدى الحزام. في وقت ما، أضفت إليه نحو نصف ما عليه من ثقوب، مما جعله يلتفُّ حولي مرتين تماماً؛ كان مريحاً، يجعلك تنام بشكل جيد: تشدُّه بإحكام، وتضع دفتراً على بطنك تحت البكلة، فيختفي الشعور بالجوع ليلاً.

يشدُّ الحزام حتى آخر ثقب، ويدخل يديه تحته.

- حزام مميز، قال لي، مضت عليه سنوات كثيرة، وظل كأنَّه جديد، حتى إنَّه لم يهترئ. لقد اشترت لي أمي حزاماً انقطع بعد شهرين... إنما هل صحيح أنهم كانوا سابقاً يشحذون أمواس الحلاقة على الحزام؟ عرضوا ذلك في الأفلام السينمائية.

- ممكن استخدام الحزام، لكن كان لدي مشحذي الخاص.

- مفهوم...

ثم أخرج كيساً من القماش، حال لونه فصار بنِّياً بمرور الوقت. لم يفتحه، بل أخذ يتفحصه، ويتحسَّسه ببساطة.

- قناع مضاد للغاز، على ما يبدو... قناع مضاد للغاز بالضبط...

هزَّ القناع، وكمَّـامة القصدير، والأنبوب الذي يشبه الأمعاء.

- هكذا... الغازات!

ارتدى القناع، وفتح صمام الفلتر، وراح ينظر إلـيَّ، ويلوِّح بيديه. القناع المضاد للغاز واسع عليه، طبعاً.

- م، ج، م، ش، أخذ فوفكا يغمغم.

ثم ناولني الهاتف، ودلَّني على الزِّر الذي ينبغي النقر فوقه. أصدر الهاتف المحمول صوت مصراع. انقر، راح فوفكا يدلني بإصبعه، فأنقر مرة أخرى.

نزع القناع المضاد للغاز.

- ثم سنلتقط صورة بكاميرا «كانون»؟ إنما باستخدام كاميرتك المتطورة فقط، حسناً؟

- حسناً، أوافق أنا، لماذا فقط؟

- حسناً، ببساطة يمكن أن أحتاج إليها، لاحقاً سأضع على الخلفية رمز بيوهازارد (الخطر البيولوجي) عن طريق الفوتوشوب، يشرح فوفكا، وسأحضر رشاش «كلاشنكوف» من عند كروبنوف، ماركة إم إم جي، طبعاً. وهكذا نحصل على لوحة جيدة. إذا قاربنا الحقيقة، فإنَّ مقاسه ليس لي، إنه كبير، في الحياة الحقيقية لا يمكن أن أصمد باستخدامه. لكنني إذا لزم الأمر أستطيع طلب أقنعة إنجليزية جيدة عبر الإنترنت، إذا كان ذلك يهمك.

- لا، أنا لست مهتماً. أنا لا أصدق أنه يمكن أن تنشب حرب نووية.

- حسناً، ليس بالضرورة أن تنشب الحرب، يقول فوفكا بإصرار، يمكن أن يحدث أي شيء؛ تدهور قاطرة محملة بالكلور، على سبيل المثال.

- نعم، أنا أوافق، يمكن أن يقع حادث بسهولة. لكن لا تمرُّ في منطقتنا أي سكك حديدية.

فكَّر فوفكا لحظة، وقال:

- يمكن أن تجنح غواصة نووية في المياه الضحلة، وقد يحدث تسرب للإشعاع، أو الأسلحة البيولوجية، وهذا أسوأ.

- في تلك الحال، طبعاً أوافق، في الواقع ربَّما ينبغي لك أن تطلب.

يبحث فوفكا بجدية في ذاكرة الهاتف.

الآن سأحصل على قناع غاز إنجليزي ممتاز، تحسباً لأي حادثة قد تطرأ على أي غواصة نووية.

يطوي فوفكا القناع الوطني المضاد للغاز، ويخبِّئه في الحقيبة.

- وما هذا؟

يسحب غلافاً كرزياً من الصندوق.

- انتظر لحظة! انتظر لحظة! يلوح بيده، أظن أنني عرفتها! أليست هذه خفاقة كهربائية قديمة؟

خفاقة كهربائية؛ لقد سمعت هذه الكلمة أول مرة في عام ألف وتسعمائة واثنين وثمانين، لما عاد كبيرنا من جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

لا؟ يطرق فوفكا على الغلاف، ليست خفاقة كهربائية... بل آلة حاسبة؟

طبعاً، الآلة الحاسبة حلمه. في الصيف الماضي رأى فوفكا، في متجر «سوسانين» في مركز التسوق في كوستروم، جهازاً تزينه أرقام رائعة له أذرع وعجلات، فتعرَّف على الفور إلى الآلة الحاسبة التفاضلية، مما أثار اهتماماً فائقاً لدى البائع، وجرى بينهما حديث ممتع حول أمور لست ضليعاً بها: حول الـ ستيمبانك (steampunk) والبدائل التاريخية، وتفوق مزايا أجهزة كشف المعادن الألمانية على اليابانية. انتهى حديث الخبراء بشراء مقياس عدَّاد جري ميكانيكي أقل تكلفة، إنما لم تُمسح الآلة الحاسبة من ذاكرة فوفكا، ينبغي تقديمها هدية له في عيد ميلاده.

لماذا هو في حاجة إلى الآلة الحاسبة؟ لما كنت في سنه حلمت بدراجة... بالمناسبة، يمتلك فوفكا دراجة فعلاً، وجهاز كمبيوتر، وطائرة هليكوبتر ذاتية القيادة بالراديو، وكلباً آلياً: يفهم الأوامر، ويحضر النعال، ويغني أغاني كورية طويلة.

لا توجد لديه آلة حاسبة.

- هذه ليست آلة حاسبة، قلت له.

هزَّ فوفكا المغلَّف بلطف.

- إذاً، على الأرجح، آلة تصوير... فقد كنتَ أنت مولعاً بالتصوير الفوتوغرافي. ربَّما هذه لك؟

- Welta Weltix، يقرأ التسمية، ويلتا ويلتكس؟ غنيمة حربية؟

يتفحَّص فوفكا الكاميرا من جوانبها المختلفة.

- يبدو أنَّه يوجد فيها فيلم. أهي حربية حقاً؟

لدي حفيد ذكي.

- آ ها! وضع فوفكا الكاميرا «ويلتا» بعناية على المنضدة، لماذا لا تحمِّض الفيلم؟ فيه صور مهمة على الأرجح، يمكن طباعتها.

- لقد انمحى.

حرَّكت قفل الكاميرا، ورفعت غطاءها الخلفي. الفيلم بنيٌّ، متجعد ومشوَّه، فيه ست وثلاثون لقطة.

- ماذا يوجد فيه؟ أهو مهم؟

حاول فوفكا تخمين ما كان في الفيلم.

- لماذا لا ترميه؟ ما دام مشوهاً على أي حال؟ لماذا تحتفظ به؟

لذت بالصمت.

- أمر صحيح أن تحتفظ به، قال فوفكا، اليوم يستحيل تحميضه وإظهار الصور، غداً سيكون الأمر ممكناً، لأنَّ تطور التكنولوجيا لا يقف عند حدٍّ. سوف يصنعون سكانر (ماسحاً ضوئياً) جديداً، انتظر، سوف نرى.

نعم، التكنولوجيا، ربما خلال عشرين سنة، هذا إذا عشنا.

راح فوفكا يحاكم:

- عموماً، ينبغي عدم رمي الأشياء، إنَّ ثمنها يزداد مع مرور الزمن، فضلاً عن أنَّ الأشياء القديمة هي ذاكرتنا. تتناول ملعقة ما وتتذكر؛ لقد أحرقت لساني بالملعقة في روضة الأطفال، كانت موضوعة على الموقد، فأمسكتها من طرفها ولعقتها لسبب ما، بقيت شهراً بطوله لا أستطيعُ الكلام. ما إن أرى ملعقة، حتى أشعر على الفور بلساني يلسعني. وأنت ما هو شعورك في ذلك الحين؟

- متى؟ لم أفهم قصده.

- كيف كان شعورك في الحرب، واصل فوفكا إلحاحه، حسناً، داخلياً؟ بماذا يختلف عن الحياة العادية؟

- داخلياً؟ أعدت السؤال.

- نعم، سوف أشرح ذلك، قال فوفكا، الطقس مشمس الآن، نحن نجلس في العلِّيَّة، برغم ذلك نشعر بالطقس المشمس إنَّه أمر محسوس، فضلاً عن رائحة مياه الخليج، والغبار، كما أنَّ الرغبة بالنوم ماتزال تطاردنا. غداً يوم الأحد، في الصباح يمكنك الذهاب إلى صيد سمك الجوبيون، لذلك يطغى علـيَّ الآن مزاج السبت بقوة، حسناً هل تفهم؟

- تقريباً.

- لكن إذا ستبدأ عطلة يوم الاثنين، فإنَّ المزاج سيكون مزاج يوم السبت. هل يراودك مزاج السبت؟

- طبعاً، في الآونة الأخيرة دائماً يراودني مزاج يوم السبت تقريباً.

تنهَّد فوفكا تنهُّداً شابه الحسد. التلاميذ دائماً يحسدون المتقاعدين؛ إنهم لا يعلمون أن مزاج السبت يقترن دائماً مع صباح الاثنين.

- كيف تشبِّه الحرب؟ سألني فوفكا مرة أخرى، من حيث الإحساس؟

لم أجب على الفور، فكرت لوهلة، محاولاً العثور على الكلمات. ظلَّ فوفكا ينتظر. ينبغي أن نشتري له كاميرا، يبدو أنَّه مصور، مثلـي، الحيـاة بالنسبة إليه ليست تقويماً بتواريخ الأحداث، إنَّما ألبوم أحاسيس، ولفافة سجائر فولاذية مصقولة، وقناع مطاطي مضاد للغاز، وغبار، ورائحة شِباك ممزوجة برائحة السمك. أما الحرب، فقد قرأ عنها في الموسوعات، وشاهد أفلاماً عنها، ومارس ألعابها على الكمبيوتر، وشارك في الجدال حولها في منتديات الأسلحة؛ لكنَّه لم يفهمها.

- الحرب مثل المرض. أجبته.

حرَّك فوفكا حاجبيه.

- تشبه الإنفلونزا؛ لما تصاب بالأنفلونزا، ترتفع درجة حرارتك. هكذا حين مرضت في شباط، ارتفعت درجة حرارتك إلى تسع وثلاثين درجة ونصف. ماذا تتذكر؟

- تشعر أنَّك خائر الهمة، كأنَّ... أخذ فوفكا يفكر بصوت عال، كأن كلَّ ما يحدث لا يحدث معك، إنما يحدث قربك، في عالم مواز... هكذا؟

- تقريباً.

أتناول الكاميرا، تبدو الكاميرا من صنع عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين، اليوم تبدو لعبة.

- ثمة رغبة طوال الوقت.

- حين تمرض، تختفي الرغبة، يعترض فوفكا، الرغبة في النوم.

- النوم، أيضاً، رغبة، دائماً تقريباً. والبرد موجود دائماً، حتى في فصل الصيف.

أعيد الكاميرا إلى المغلَّف.

- واضح، ينظر فوفكا في الصندوق مرة أخرى، بشكل عام شيء قذر، ربَّما؟

- ربما، ينبغي عليك طوال الوقت الذهاب إلى مكان ما... ينبغي أن تستيقظ كلَّ يوم، وطوال الوقت لسبب ما، تستيقظ خمس مرات في اليوم... باختصار، أنت مريض، رأسك منتفخ، تتجول في الثلج طوال يوم الاثنين الأبدي، في الوقت نفسه، أنت تدرك أنَّ الثلاثاء قد لا يأتي.

- طبيعي...

يغمض فوفكا عينيه ويتخيل الحرب، ليس لفترة طويلة وإنما للحظة، ثم يرمي بسهولة كل هذا الهراء الزائد من رأسه.

- هذا واضح بالخطوط العريضة، ستخبرني المزيد في وقت لاحق، حسناً؟

حسناً.

يُخرج فوفكا من الصندوق إلى الضوء علبة شبه خضراء مسطحة.

- تبغ؟ يستنشق فوفكا رائحة الورقة السميكة.

- ماخوركا[2].

- عام ألف وتسعمائة وستين... يقرأ فوفكا المكتوب على العلبة، فيصاب بشيء من خيبة الأمل.

- ثمة علب ثقاب لا تزال هناك في مكان ما؛ منذ عام ألف وتسعمائة وستين انتظر الجميع الحرب مرة أخرى، لذلك خزَّنوها.

- إنَّها تناسب علبة لف السجائر؟ يومئ فوفكا إلى العلبة/الآلة.

- هل تريد أن تجرِّب؟

- نعم، إنما لا يوجد ورق...

- لماذا لا يوجد؟ بل موجود بوفرة.

أحضرت من موقد العلية دليل الإعلان السميك، ودليل الهاتف.

- الورقة مثل هذه تماماً، إنما ملونة فقط. قُصَّ الورقة الثانية، ثم أدخلها في هذه الفتحة...

- هل أحاول؟

- هيا.

ينشغل فوفكا بالماخوركا والورقة، وأمضي أنا إلى النافذة، المغلَّف والكاميرا في جيبي. أجلس على الكتب، وأسرِّح نظري في الخليج. تضغط الكاميرا والمغلف على سروالي. ها هو ذا القارب «بوميرا» يزحف كنقطة سوداء على طول شاطئ الخليج: جيراننا عائدون من البلدة، يحملون اللحم، سوف يشوونه من جديد حتى المساء، ومع حلول الظلام، سيطلقون الألعاب النارية، الأمر الذي أصبحوا مدمنين عليه مؤخراً. يقول حفيدي إن الألعاب النارية تهدئه وتطمئنه، وإنَّه لو قيضت له حياة ثانية، فإنه سيصبح معلماً في ميدان الألعاب النارية. عموماً، أنا لست ضد الألعاب النارية، غير أنَّ صوتها يخيفني. أنا لا أحظر اللعب بها: في عمري، من الغباء حظر أي شيء.

الشواء، والألعاب النارية، والسبت.

في الواقع إنَّها تشبه المرض، وتشبه الموت أيضاً، لكنني لم أخبر فوفكا بذلك، وهي تشبه أربعين شيئاً آخر مختلفاً. لما كنت هناك، كان يبدو لي طوال الوقت...

حسناً، تبدو لي أشياء مختلفة طوال الوقت، طوال حياتي. أنا أهذي بشدة: لا أحبُّ اللون الأسود، أحتفظ دائماً بالملح وأغسل يدي مرتين، لو عرف فوفكا، لضحك: إنه ماديٌّ متطرِّف مثل كل الأطفال في عمره.

إنَّه يجلس وراء المنضدة، ويلفُّ السجائر في آلة لف السجائر القديمة، أصبح عددها ثمانية فعلاً.

ثماني سجائر، يا لها من رزمة.

- إذاً، ماذا يوجد في الفيلم؟ يسألني فوفكا، وهو يلفُّ سيجارة أخرى.

الفصل الثاني

أصبح الممرُّ الضيّق هشّاً ورخواً، وقد ازداد المشي عليه صعوبة، مما يضطرُّ العابر إلى النظر بين قدميه، وقليلاً حواليه. لم يعجبني ذلك كثيراً، فأنا أحبُّ أن أنظر إلى النهر. جرفت المياه الضفَّة، وتشكّلت تشقُّقات وحفر في الطين، وبرزت فيها جدائل الجذور الملطخة بأوساخ النهر الملتصقة بها، مثل لُبدات حوريات ماء مسنة وسخة. انحنت أشجار الحور متدلية متثاقلة فوق النهر العميق، وكسته باللون الأحمر. تنمو الأشجار بكثرة فوق النهر. أنا لا أحبُّ هذه الشجرة حقاً، إذ تتساقط أوراقها في الماء: نصفها تحمله التيارات، ونصفها الآخر يتجمع على ضفتنا، فتصبح المياه حمراء جميلة، مهما كان الطقس.

إنَّه شهر أيلول، يهطل المطر يومياً، فيصبح كلُّ شيء حولنا مبلَّلاً وزلقاً. في العام الماضي كان أيلول مشمساً ودافئاً، يبدو أنَّه في هذا العام عكس ذلك. انتشرت الحشرات الزاحفة بسبب الرطوبة الزائدة، لست أدري ما اسمها بدقة: ربَّما سكولوبيندرا[3]، سانيتش يسميها ستاسيك. يجب إشعال تبغ ماخوركا، ورشها بمنقوع التبغ قبل الذهاب إلى النوم، وإلا فإن حشرات الستاسيك ستتغلغل تحت الملابس لتتدفأ، وستلسع الجلد عند أي حركة، بعدئذ سيظهر مكان اللسعة ورم مؤلم. البقُّ أرحم منها: فهو يشبع بسرعة، ولا يحرمك من النوم حتى الصباح؛ ولسعته أخف وطأةً، عموماً... البقَّة حشرة مألوفة، قذرة طبعاً، ولكن ليس إلى هذه الدرجة، كما أنَّها لم تعد موجودة هنا، ما إن ظهرت هذه الحشرات حتى اختفى العث؛ يقول سانيتش إن الستاسيك أكله. من الضروري إيجاد شيء يقضي عليها، مثل (الدوست)[4]، حتى الكيروسين لا يؤثر فيها على الإطلاق، أو ينبغي محاولة حرق الفلين، والأفضل حرق الأظافر، فالأظافر المحروقة تخيف حتى الصراصير...

شردت وأنا أفكِّر في كيفية تجنُّب تلك الزواحف، فتهت عن الدرب، وزلَّتْ قدَمي، وانزلقتُ غاطساً في الوحل حتى ركبتيَّ تقريباً. حاولت التملُّص، التصقت الأوساخ بي، ولم تتركني.

- لم يخيِّب الطقس أملنا، راح سانيتش ينظر إلى ساقيَّ، لا يمكن أن تتخيل حالة أفضل من هذه.

- نعم، لا يمكنك أن تتخيل...

انحنيت إلى الخلف، وشددت ساقيَّ بكامل ثقلهما، وسحبتهما، كمٌّ كبيرٌ من الأوساخ علق بحذائي.

- هذا ما نحن في حاجه إليه، أكد سانيتش، الوحل صديق الفدائي. في مثل هذا الوحل لا يدخل أي ألماني الغابة، هنا الدبابات تتعثَّر، فهي ليست مثل الدراجات النارية. لن يدخلوها سيراً على الأقدام أيضاً، لن يدخلوها، أليس كذلك؟

وكَز سانيتش النذل في رقبته، ولاذ الأخير بالصمت.

- اصمت، اصمت، ابتسم سانيتش، لا بأس، سوف تنطق قريباً... هيا، امشِ أمامي، أيها الجرذ الفاسد.

تحرك النذل بثبات، ويداه مربوطتان وراء ظهره، نادراً ما يسقط، إنَّه حاذق. سانيتش على حق، في مسألة الوحل الصديق؛ في مثل هذه المعمعة لن ينخدع أي أحمق ويخرج من داره. الأمطار لا تتوقَّف، والأنهار تفيض كما في الربيع، فأي حرب تخاض الآن، ينبغي الانتظار حتى فصل الشتاء. بالمناسبة، سابقاً كانت المعارك تنشب عموماً في فصل الشتاء.

- لا يزال أمامنا نحو كيلومتر ونصف... لا بأس، سنلحق في الوقت المناسب، هيا أسرع!

كيلومتر ونصف لا تفي بالغرض، أخذ الماء يغمر الشاطئ، وبدلاً من شجر الحور نبت العلَّيق البري المغمور في الماء نحو نصف متر، وأصبحت المنطقة غير سالكة نهائياً. المياه والجذور من الأسفل، والإبر المتصلبة من الأعلى. شرع سانيتش يشتم وعاد أدراجه، مقرراً الالتفاف مرة أخرى عبر الغابة. غارت المياه هنا منذ ثلاثة أيام، لكن الأرض لم تجفَّ، انتشرت فيها البرك القذرة، وظهرت الرغوة على حوافها، وتجمعت نفايات الخشب المتكسِّرة حول جذوع الأشجار. حتى من المظهر، بدت المنطقة غير سالكة، لكنَّ سانيتش كان عنيداً، ولم تكن لديه الرغبة في العودة مرة ثانية.

- لنمضِ من هنا.

ودلَّنا بإصبعه إلى أين.

غمرتنا الوحول، إنما، بالمناسبة، اقترب المساء، ولا أمل في أن تجفَّ أرجلنا، قد لا نصل إلى المعسكر في الوقت المناسب، عندئذ يتحتَّم علينا قضاء الليل في هذه الوحول. لكن من دون ستاسيك، برغم أنه قد يُعثر هنا على بعض أنواع الستاسيك، وهي أسوأ مما لدينا، هذا ما يحدُث دائماً، لا مجال للهرب، إمَّا البقُّ، وإمَّا الـ ستاسيك... ثمة شقٌّ في نعل فردة حذائي اليسرى، من الضروري أخذها إلى ليكوف كي يصلحها، أما إذا غطست في هذا المستنقع الآن، فيمكن أن تنتزع تماماً، عندئذ سيتعذَّر علـيَّ قطع الغابة حافي القدمين.

النذل، إنَّه ينتعل جزمة جيِّدة كتيمة، وطويلة الساقين. بالمناسبة، لقد وقع بسببها؛ إنها جزمة ثقيلة، لذلك لم يستطع الركض والهرب. أنا -أيضاً- انتعلت سابقاً مثلها، لذلك أجبرني سانيتش على خلعها في اليوم الأول، فضلاً عن أنه أضافها إلى ما أحمله على رقبتي. فيها تظل القدم جافة، طبعاً جافة، لكن حين تنتعل مثل هذا الجزمة لا يمكنك الركض.

- هيا، إلى الأمام، لماذا توقفت؟ كرَّر سانيتش، ووكز النَّذل بالعصا.

احدودب ظهر النذل أكثر، ودسَّ رأسه بين كتفيه، ومشى متثاقلاً. بعد نحو ثلاثين خطوة، تعثَّر بجذمور، فسقط وتكوَّر على نفسه؛ يبدو أنَّ الأحمق كان ينتظر رصاصة. لكن من يطلق النار بلا سبب؟

- انهض. أمره سانيتش.

بدأ النذل ينهض، استغرق ذلك فترة طويلة، يصعب جداً الوقوف على القدمين في بركة، ولا سيما إذا كانت اليدان مقيدتين خلف الظهر. إنما لا بأس، أسند رأسه إلى جذع شجرة الحور، وتمكَّن من الوقوف، ثم سقط مرة أخرى على الفور تقريباً.

- يجب إزالة الكيس. قال سانيتش بسأم نوعاً ما.

- كيف؟ سألته، إنَّه...

لوَّح سانيتش بيده، ولمس بإبهامه مسدَّس توكاريف.

- حسناً... أيها النذل! ركله سانيتش بقدمه، أيها النذل، هل تسمعني؟

هزَّ النذل رأسه.

- إنك تسمع جيداً، إنما مشيك ليس جيداً جداً... ربَّما أنت لا ترى جيداً، أليس كذلك؟

هزَّ النذل رأسه سلباً. حسناً، إنَّه يفهم. ماذا لو أزلنا الكيس الآن، وانتهى كل شيء برصاصة.

الكيس عموماً شيء جيد خصِّص عمداً لمثل هذه الحالات. من يرتديه لا يكاد يرى، أسفل قدميه، وربما متراً إلى الأمام. يمكنك المشي بشكل خاص من دون أن تتعثر، إنما لن تتذكَّر الطريق مهما حاولت. لقد اخترعها سانيتش، وحدثنا أنهم لعبوا لعبة «الأحمق» على هذا النحو من قبل.

يلبسون رأس من يقع عليه دور «الأحمق» كيساً، ويعطونه عصا، أو سوطاً، حسبما يتوفَّر، ثم يتسللون إليه: هذا يركله، وأخر يضربه بقَبضته على عموده الفقري، أما الضربة القاضية فتلك التي تصيب جبهته، في حين يظلُّ هو يقاوم، فإذا أصاب أحدَ المهاجمين يلعب المصاب دور «الأحمق». الآن يستخدم الكيس في وحدات عسكرية أخرى، فاستخدامه يسهِّل القيادة.

- هل ترى جيداً؟ أعاد سانيتش السؤال.

- لا، زعم النذل. لا أرى جيداً، قال الوغد.

- حسناً، إذا كنت ترى جيداً، فامشِ بسرعة. ألم تلتصق بسرعة بـ إست الفاشيين؟! فلماذا لا تسرع الآن؟!

وكز سانيتش النذل بالعصا مرة أخرى، فمشى، وتبعناه. كانت المياه في البرك قارسة البرودة على نحو مزعج، تلسع الأصابع. وجَّه سانيتش حركة النذل بعصاه، فتارة يكزه بها في كتفه اليسرى، وتارة في اليمنى. أحياناً كان يصيح «هيـ ـــيـ ـــشـ ـــ ش»، أو «هيا أيها الدابة»، أو يشتمه، مهدداً إياه بإطلاق النار عليه في مكانه مباشرة، وهو يملك حق القيام بذلك.

- هل سمعت بالمرسوم؟ سأله، لقد نشروه في جريدة «البرافدا». آه، نعم، لقد نسيت، إنكم لا تقرؤون الآن «البرافدا»، اعذرني، اعذرني، أيها الهر[5] الفاشي. هكذا إذاً صدر المرسوم تحت عنوان: «في خونة الوطن». يجب على كل من يقابل خائناً لوطنه الأم أن يسلِّمه إلى أجهزة السلطة السوفيتية المحلية. إذا لم يكن ذلك ممكناً، فينبغي التعامل مع الخائن شخصياً، بالوسائل الخاصة. تمنح لقاء تصفية كلِّ خائن بطاقةُ جُعالةِ طعام في الخطوط الخلفية للجبهة، وجُعالةُ لحوم جافة معلَّبة على الخطوط الأمامية. سنطخُّك الآن، ونأخذ وثائقك العسكرية الخاصة، ونرفق بها أذنيك، وسيعطوننا خمس علب من المعلبات. آ؟ مِيت[6]، هل تحبُّ المعلبات؟

- طبعاً، تنهَّدتُ، أحبّها، ومن لا يحبُّها؟

- أنا أيضا أحبُّها. هل نطخُّه... لا، هذا سهل للغاية. نطخُّه! لا سوف نعطيه لِكوفالِتْس! غمز سانيتش.

- ربما لا داعي؟ تدخلت غامزاً، لـكوفالِتْس فوراً...

- لا، لـكوفالِتْس بالضبط. دعه يتعامل مع هذا... ألا تذكر كيف تعامل مع ذلك الفلاسوفي[7]؟ ثم بقينا ثلاثة أيام نجمع أشلاءه من بين الأشجار. لذلك، استعدّ أيها الهِر الميِّت، ابتسم سانيتش ساخراً. قريباً جداً سوف تعلَم الكثير عن تفاصيل جسمك. وعده.

كان حديثه مميزاً، إنني أحسده قليلاً. سانيتش، بالمناسبة، شخص رائع، وهو متمكن من إطلاق النار، ويتحدث بطلاقة؛ ربما هذا ناجم عن حقيقة أنَّه يحبُّ قراءة الصحف، يقرؤها، ثم يكوِّن وجهة نظره. صار يمكنه فعلاً أن يكتب في الصحف بنفسه، بالمناسبة، ينبغي له أن يسأل...

- لا تقلق، تابع سانيتش، لا تقلق، لن يعذِّبك كوفالِتْس طويلاً، فلا يستمر أي عمل لديه فترة طويلة أبداً، ينفد صبره بسرعة... أنت لا تسقطْ، لا تسقطْ، حرِّك ساقيك، وإلا سأغضب، برغم أنني لست أخصائياً كبيراً، فإنني صبور، لي حديث طويل مع من يخون وطنه الأم، أحياناً حديث قصير أيضاً: طاقْ، طقْ.

بُحَّ صوت النذل، وشخر من أنفه، أما سانيتش فقد ضحك، وقال إنَّ رقم هذا النذل سيكون الخمسين، أو السادس والخمسين، وإنه أصبح يُخطئ فعلاً في العدِّ، وإنَّ النذل أخطأ تماماً لما اتصل بالنازيين. لقد سقط النازيون فعلاً، وسيشنق على أعمدة فوانيس الشوارع كلُّ مَن قبَّل أيديهم. إنما، طبعاً، لا توجد أعمدة فوانيس كافية لجميع الأنذال، إذ تبين وجود عدد من الدواب في بلادنا يفوق التوقع وأكثر من عدد الأعمدة. لكن لا بأس، ثمة عدد كاف من أشجار الحور، غاباتنا كثيفة.

عموماً، بدا سانيتش اليوم ثرثاراً على نحوٍ غير عادي، ربما بسبب الجوع؛ آخر مرة أكلنا البارحة ظهراً. لا بأس، عصيدة القمح، التي حملناها في أوعية، كانت محروقة، وقد استمر طعمها حتى المساء تقريباً، وفترة قصيرة في الصباح، أما الآن فلم يبقَ منها إلا الذكريات، يزيدنا هواء الخريف البارد جوعاً ورغبة في تناول الطعام. أخذ رأسي يفتل، ورحت أبحث عن ثمار العرعر. ينبغي العثور عليها هنا؛ إن جمع الثمار ومضغها يقطع الجوع جيداً. لم نعثر على العرعر.

لما رسم سانيتش مصير النذل هدأ، وصمت قليلاً، ثم عاد -طبعاً- إلى موضوعنا المفضل، وهو الطعام. لقد تحدَّث عن البطاطا مع الدهن، وعن كيفية تحضير البيض المقلي مع فُتات الخبز، وحَساء فطر اللبن... وكيف دُعي مرتين لحضور حفل زفاف، حيث يمكنك أن تأكل جيداً. أنا لم أحضر حفل زفاف بعد. عموماً، بالمقارنة مع سانيتش، لم أر إلا القليل، ولم أجرِّب العمل. أما سانيتش فعمل عاماً ونصف العام في معمل الخشب المضغوط، وكما قال، فقد عمل في ورشة مميزة، ليس أي عمل، كلصق أغطية المناضد الصغيرة، بل في ورشة تنتج رقائق الخشب للطائرات، والصناعات العسكرية. كان العاملون في تلك الورش يحصلون على وجبة غذاء مدعومة، وكوب من القشدة الرائبة يومياً، وقطعة زبدة في نهاية الأسبوع، أما هو شخصياً، أي سانيتش، فقد رتَّب الأمر مع الطهاة بحيث يحصل على القشدة الرائبة والزبدة في يوم واحد.

- كنت آخذ نصف حصَّتي إلى المنزل، ونصفها الآخر أتناوله. حين تتناول القشدة الرائبة يغلبك النوم. أفضل مكان للنوم هو غرفة التجفيف، حيث تنبعث رائحة الخشب والغراء... أو يمكنك استبدال الحصة بالخبز أو الحلوى. كان لورشتنا طاولة مستقلَّة خاصة في المطعم، نتناول عليها الطعام ونحن ننظر إلى الجسر... هل تحبُّ صيد السمك؟

- لا.

- إذاً، أنت أحمق. صيد السمك هو... أنا لا أعرف. ينبغي طهو السمك جيداً، مع البصل حتماً...

حكى لنا سانيتش كيف نشوي سمك القاروص في بقايا الجمر بشكل صحيح، وكيف يؤكل: يُسلخ الجلد بكامله على الفور مباشرة، وكيف يمكن طهي البطاطا في الرماد جنباً إلى جنب مع السمك

لتصبح مفتتة وحلوة بشكل مذهل، وكيف يطبخ السرطعان، فهو كثير في الأنهار، ويمكن اصطياد كميات وفيرة منه، وكيف يمكن تخليل سمك اللامبري، إنما ليس الجميع يحبونه بسبب طعمه، وكيف نبحث عن البطاطا على ضفاف الأنهار، وكيف ينبغي وضعها تحت الدلو...

ازداد إحساسي بالجوع مع سماع هذه القصص، لكن يتعذَّر التوقُّف. ابتلع سانيتش لعابه وهو يخبرنا كيف قتلوا إوزة بقنبلة قبل عامين، وكيف شووها بالسفود، وحصل منها على فخذ كامل، فتذكَّرتُ ورحت أتحدَّث عن الفطر، وعن الجدة التي طهته في آب مع القشدة الرائبة والبصل الأخضر، وعن الثوم المقلي في الدقيق، ولكن حديثي كان سيئاً، فأنا لا أمتلك مهارة الحديث، حين أبدأ أشعر بالخجل على طول الطريق، أشعر بأنني أبدو غبياً وأنا أتحدث بشكل غير صحيح. أما سانيتش فليس كذلك، ليس خجولاً. أحياناً أخلط بينه وبين آلة التسجيل: تخال أنك تستيقظ على صوت آلة التسجيل، ثم يتبين أنَّ سانيتش يتحدث عن القنابل اليدوية: كيف تختلف بعضها عن بعض، وكيف نرميها بشكل صحيح. يمكن رميها من الجانب، ويمكن رميها على شكل قوس. عندما يبدأ سانيتش حديثه عن الطعام... تخال غوغول يتحدث. بطبيعة الحال، إلهام سانيتش الخاص يتناقص مع الجوع.

اليوم، استرسل سانيتش بالحديث على نحوٍ خاص نوعاً ما: فقد أطربنا بحديثه عن فطائر تشرين الأول الاحتفالية بثلاثة أنواع من اللحوم، وعن الزلابية مع الجبن والقشدة الرائبة، راحت البطون تقرقر بشكل غير لائق تقريباً، وتراكم اللعاب بكثرة إلى درجة أننا اضطررنا إلى البصق طوال الوقت. أما سانيتش فلم يستسلم، وراح يبصق بصخب. حدثنا أنَّه ذات مرة اصطاد كثيراً من سمك الحفش، وأنَّ أمه طبخت عليه حَساء كثيفاً إلى حد أنَّ الملعقة الحديدية لم تخترقه... لم يستطع النذل أن يتحمَّل قصة حَساء سمك الحفش، فغمغم متذمراً، وتوقف سانيتش.

- لماذا تمتمتَ، أيها الوغد؟ سأله، فلاذ بالصمت، وانكمش على ذاته بشكل أقوى، يبدو أنَّ مثل هذا الشخص ليس مخيفاً، يبدو ذلك.

- أنت، أيُّها الفاشي الوغد، يبدو أنني أسألك؟

- لا شيء... أجاب النذل بهدوء.

- ماذا، أيُّها الوغد، ألا يطعمك الفاشيون جيداً؟! آ؟

اندفع سانيتش نحو النذل، وركله تحت ركبتيه، ثم سحب كيسه ومزَّقه؛ فسقط النذل في الوحل، وظلَّ مستلقياً.

- لا تجعل كرشك الفاشي يتقيأ على طعامي! هل فهمت؟

ركل سانيتش الشاب في خصره فتأوَّه النذل، وغطّى رأسه. من الأفضل لو بقي صامتاً، لأنَّ تأوهاته أغضبت سانيتش أكثر بكثير، فسدد إليه عدَّة ركلات أخرى، في هذه المرة لم يصدر النذل أيَّ أصوات، إنما طقطقت أضلاعه، وانتشرت طرطشة المياه في جميع الاتجاهات.

هل يشكل خطراً. لا، لقد قيَّدنا يديه جيداً، فضلاً عن أنَّ منظر النذل لا يدل على شجاعة بطولية، لكن من يدري... فهو أكبر منا، ربَّما أخفى حربة في مكان ما لديه؛ لم نفتشه جيداً، قد يقطع الحبل، ويثب مندفعاً...

ابتعد سانيتش عن النذل، ثم سحب مسدَّسه، وناولني إياه.

- هيا. أومأ برأسه.

- نعم، أنا... ليس هكذا، بطريقة ما...

ليس هكذا؛ لم أتخيل أنني سأقابل أول فاشي يقع في قبضتي على هذا النحو البتة، بل بطريقة مختلفة: سيندفع ويهجم علـيَّ بوجه وحشي، وبأسنان حديدية، وسأستهدف أنا كرشه، كما طلب سانيتش، من الأفضل استهداف الكرش، كي تندلق الأمعاء.

ليس هكذا على الإطلاق.

- أنت من أراد ذلك، قال سانيتش باستغراب، أنت نفسك قلت... ماذا حدث الآن؟

هززت كتفي. كان ينبغي القيام بذلك على الفور، هناك، على الطريق. أما الآن... ويداه مربوطتان...

- ربما، في وقت آخر؟

- في وقت آخر... هزَّ سانيتش رأسه. أمَّا هو فما كان سيؤجل الأمر إلى وقت آخر، أليس كذلك أيها الهِرُّ الشرطي؟

أصدر النذل صوتاً ما كجواب.

مسح سانيتش ذقنه بيده التي يحمل المسدس بها. ألم تقرأ بنفسك، ألا تتذكر؟ إذا لم تقتل... ثم حكَّ جبهته بقبضة مسدَّس توكاريف متذكراً. تظاهر بأنَّه يتذكَّر.

- أنا أتذكَّر، قال سانيتش. إذا تركت الألماني حياً، فسيشنِق الألماني رجلاً روسياً، ويلحِق العار بامرأة روسية...

- إنما هذا ليس ألمانياً. أجبت بغباء.

- هذا أسوأ، قال سانيتش باشمئزاز، أسوأ مائة مرة، إنَّه القرف الحقيقي، فهذا خائن، طِرح.

ضرب سانيك النذلَ مرات عدة، مستهدفاً معدته، وأصابها. أخذ جسدُ الخائن يصدر أصواتَ حشرجة. بدا لي أن سانيتش لم يعد يبذل جهداً، لقد تعب.

أنا تعبت أيضاً، ربما قطعنا اليوم نحو عشرين كيلومتراً، عبر الوحل والطحالب. لقد أُنهِكت ساقاي، ولم يعد لدى أيٍّ منَّا رغبة في الركل، كما أن ساقَي الخائن ليستا من الخشب.

- هكذا إذاً... بصق سانيتش على ظهر النذل، الآن سأطلق النار عليه...

- لا داعي. قلت له.

- لماذا لا داعي؟ سأل سانيتش بغضب، ما الفرق، آ؟ عبثاً ألقينا القبض عليه، نتيجة انفعالي الغبي، هذا ما أعتقده. لا فائدة ترتجى منه...

لطم سانيتش النذل بحذائه، وسأله:

- ماذا فعلت جماعتكم في بِسكي، آ؟ ماذا فعلوا أسألك؟ هناك الأرض عانت يوماً آخر! مع أنَّ الألمان هناك غير موجودين...

- أنا لم أكن هناك! صرخ الشاب، لم أكن هناك!

ضحك سانيتش.

- جميع الخونة يكررون الكلام نفسه دائماً، قال.

لم نكن هناك، كنا نفرِّغ عربات القطار فقط... لا ذنب لأحد على الإطلاق. الأمر ليس كذلك.

نظر سانيتش إلـيَّ، وهززت رأسي.

- حسناً، إذا كنت لا تريد، فأنا سأقوم بذلك...

عوى النذل، ثم ارتجف مضطرباً، وحاول أن ينهض على ركبتيه، لقد أراد طلب المغفرة، لكنَّ وجهه ظل ملامساً البركة طوال الوقت، وراح يهزُّ رأسه كالمعتوه.

- ربما يعرف شيئاً؟ اقترحت عليه، أو لديه معلومات مفيدة؟

لا، أنا لا أتعاطف مع هذا الخائن على الإطلاق. إنما... في الواقع، كان من الضروري التعامل معه فوراً، لكن الآن ماذا نفعل حقاً؟

- إنَّه لا يعرف شيئاً، مجرد جندي من أدنى صنف، واضح أنَّ الألمان شغَّلوه في المراحيض، انظر إلى يديه كم هما محمرَّتان.

- أنا أعرف! تلوَّى النذل، أعرف! سأتكلم!

- الأفضل أن تخرس، نصحه سانيتش، لا أريد أن أستمع إلى قصصك، لدي قرحة فعلاً من دونك...

- حقائبنا ثقيلة، قلت له، لقد كسرت رقبتي... وآلمتني حقاً، لأنَّ أحزمتها تمزَّقت، وانغرزت في كتفي، الحقيبة نصف فارغة لكنَّها ثقيلة، حمِّلْها للفاشي، وليكن؟ دعه يحمل ولو حزمة صوف صغيرة.

- أنا أحملها! سأحملها!

كان الخائن فطناً، فتحرك في البركة. لم يستطع سانيتش الصبر، فأمسك به من رقبته، وأوقفه على قدميه.

- أنا أحملها! سأحملها!

نظر سانيتش إلَـيَّ، فهززت رأسي، وعلَّقنا الحقائب على كتفي الخائن.

- سنطلق النار عليه لاحقاً، تثاءب سانيتش، لا مفرَّ أمامه، هيا أيها الفاشي، تحرك!

قرقر بطن الخائن مرة أخرى، إما من الخوف وإما من الجوع، ولكن بصوت عالٍ.

- إذاً، أنت أيضاً أيها النذل تريد أن تأكل؟ سأله سانيتش بلهجة قاسية. جوعان، يا مسكين... ها هو ذا الفاشي الوغد، كدنا نطلق النار عليه، وهو يفكِّر في الأكل.

سحب سانيتش سكينه، ومسحه بكمه.

- هل يطعم الألمان الخونة بشكل سيء... ربما لا تجدّون جيداً. ينبغي شنقكم وأكثر...

- أنا لم أشارك! زعق النذل. أنا لم أشارك! لجنة العقوبات والتعذيب هي من فعلت ذلك!

- نعم، قاطعه سانيتش غير مبال، أنت قلت فعلاً، إنك تحرس المستودع، أصبحنا نعلم. يا حارس المستودع، لقد استيقظتْ شهيتك، سأطعمك الآن... قف مستعداً!

انتصب الخائن واقفاً ومستعداً، أما سانيتش فقد انحنى وقطع قطعة من ساق حذاء الوغد.

- هل تسمعني، يا مِيْت، جزمة هذا الشرطي جلدية عالية الساق، إنَّها رائعة، ظلَّ والدي يدَّخر ستة أشهر لشراء واحدة مثلها، لكنَّه رغم ذلك لم يستطع، أما هذا فلديه واحدة فعلاً.

- دعنا نتبادل. اقترح الخائن من غير حذر وبلا تحفظ.

عبثاً اقترحَ ذلك. كان سانيتش قد بدأ فعلاً يهدأ، أما الآن فقد هاج غضبه من جديد.

- هل تظنُّ أنني سآخذ حذاءك الفاشي؟ لا تخطئ يا صاحبي، أنا لن آخذه، سأجعلك تأكله. هيا، كُلْ.

سحب سانيتش الكيس عن رأس الخائن، ثم صفعه صفعة قوية، وقطع قطعة من ساق الجزمة ودسَّها في فمه.

- كُلْ.

جحظت عينا الخائن.

- كُلْ، هيا! أمره سانيتش، كُلْ، لا تُغِظني، أنا في حالة عصبية مزرية فعلاً.

نظر حوله، واختار شجرة حور ساقطة، وجلس عليها.

- فلنأخذ قسطاً من الراحة، مدَّد سانيتش ساقيه، اجلس يا ميتكا، دعنا نشاهد فيلماً سينمائياً...

جلست إلى جواره، ومددت ساقيَّ أيضاً، ورحت أحرك أصابعي.

- هل رأيت أفلام تشارلي شابلن، أيها الفاشي؟ سأله سانيتش، أما كان هناك يمضغ حذاءه؟ وأنت يجب أن تمضغه، امضغه، سأعد إلى ثلاثة.

شرع الخائن يمضغ.

- بمتعة أكبر، بمتعة أكبر، حمَّسه سانيتش. واحد اثنان، واحد اثنان...

راح الخائن يحاول، فتدلّت من فمه مِزقة ملساء، مثل لسان أسود طويل، يتحرَّك بشكل مقيت، كما لو أنَّه حيٌّ. راقبته وهلة، ثم استدرت وأغمضت عيني.

لم يستطع سانيتش التوقُّف، أمره بمضغ الطعام بروية، كي يستخرج جميع العناصر الغذائية منه. أنا حاولت ألا أسمع، فقد اعتدت منذ فترة طويلة على أن أنفصل عن العالم؛ أرى ضوءاً ساطعاً، وفجأة تنقطع الكهرباء، تنقطع في الحال. في البداية، شعرت بأنَّه خائن، ها هو ذا النذل بين يديه، ويبدأ غيظه في الغليان... ثم ينتهي كل شيء، ويحلُّ الفراغ، مثل بطارية أفرغت من شحنها.

- لذيذ؟ أرى أنَّه يعجبك. كُلْ، كُلْ، صحة...

صوت صرصرة، يبدو أنَّ ثمة نقَّار خشب في مكان قريب جداً، لم يهاجر إلى الجنوب لسبب ما... أو أن هذه الطيور لا تطير بعيداً؟ حسناً، هذا لم يطِر بعيداً، ها هو ذا الآن ينقر الشجرة. ثمة رشقات نارية، هل تشعر الطيور بالحرب؟ العالم هنا انقلب رأساً على عقب، وهي لا تكترث على أي حال، إنها تطير في جميع الاتجاهات، مثلما اعتادت منذ آلاف السنين، لم يتغيَّر أي شيء بالنسبة إليها. أصبح الأمر أفضل: سابقاً كان الناس يصطادونها، أما الآن فإنهم يقتلون بعضهم بعضاً. ينبغي أن يكون هناك الكثير من البط هذا العام...

- انظر، إنَّه يختنق!

قال سانيتش بمتعة الأطفال، فجعلني ذلك أستيقظ. رحت أنظر إلى الخائن، يبدو أنَّه يختنق فعلاً، فقد احمرَّ وجهه، وأصبح بلون اللفت، كما جحظت عيناه، وفاضت دموعه.

بدأ الخائن يخور، ويختلج، محاولاً فكَّ يديه.

- يتظاهر! بصق سانيتش، هذا واضح. ماذا، أيها النذل، ألا تحبُّه؟ في عام ألف وتسعمائة وواحد وأربعين أكلنا القنافذ في الغابات! لما طردتمونا من منازلنا! هيا أيها الجِلْد، ابتلعْ قطعة الحذاء!

لم يتمكن من ابتلاع قطعة الحذاء، فسقط الخائن على ركبتيه في الوحل، وبدأ يختنق.

هذا الخائن لا يزال شاباً، أشقر الشعر، هذا واضح في الوحل. ربما هو من الكولاك[8]، أو تشيخون[9] من المناطق الحدودية؛ إنَّهم لا يحبوننا، ما إن قدم الفاشيون حتى فرحوا بهم، وهرعوا إلى جماعتهم...

ما الفرق؟ إن كان من أبناء الكولاك، أو تشيخون، لا يهم... من هو، ولماذا التحق بسلك الشرطة، لا يهمّ.

- حسناً، توقف عن التظاهر، أمره سانيتش. لقد أضجرتني.

لم يتوقف الخائن عن التظاهر، علاوة على ذلك، سقط في جورة مياه وراح يرتعش، كأنَّه صعق بصدمة كهربائية، شيء يشبه ذلك تماماً.

- اللعنة عليك، أيها الشيطان...

قفز سانيتش عن جذع الشجرة، وأخذ الخائن من تلابيبه، ثم أخرجه من الجورة، وضربه على ظهره ضربة قوية، فاندفعت من فم الفاشي قطعة جلد الحذاء السوداء الممضوغة. تنهَّد الشاب وشهق، فأفلته سانيتش.

- يا للعار... مسح سانيتش يديه باشمئزاز. لقد أنقذتُ حياة خائن، نعم... ينبغي القضاء على ثمانية آخرين لأستعيد توازني. حسناً، حان الوقت لكي نتحرك، لقد جلسنا بما فيه الكفاية. انهض!

نهض الشرطي رابع مرة، وراح يتمايل تحت ثقل حقائب الظهر، ويتنفَّس بصعوبة، مستمراً في بصق النتف السوداء.

- لم تهضم الحذاء، استنتج سانيتش، لا بأس، ستعتاد على ذلك. (هندي هوخ، شباتسيرون غيين[10]): هيا إلى هناك، إلى شجرة البتولا تلك. هيا غنِّ أغنية، هل تعرف أغنية غير فاشية؟

لم يكن الخائن يعرف أي أغنية، لذلك سرنا صامتين. لم نُلبسه الكيس، لأنّ الغابة كانت متشابهة تماماً. اختفت الشمس خلف الغيوم، لم يكن باستطاعتي تذكر الطريق، لقد تهت تماماً. سرتُ خلف سانيتش مطيعاً، وقد شقَّ طريقه بثقة، كما لو أنَّه يسير على طريق سريع. لم أستطع أن أفهم بأي علاماتٍ حدَّد المسار. ربما كان يعرف كل شجرة من شكلها، ثمة أشخاص لديهم ذاكرة بصرية فوتوغرافية: صباحاً يرون الصحيفة في كشك بيع الصحف، ومساء يستلقون على السرير ويقرؤون من ذاكرتهم...

وصلنا إلى المكان المقصود خلال نحو ساعة ونصف.

- نعم، قال سانيتش، لقد وصلنا، في الموعد المحدَّد تقريباً...

وصلنا إلى ضفاف نهر ستاريتسا. ثمة كثير من جذور أشجار الغبيراء على طول ضفة النهر، وعنب الثعلب... تتدفَّق الجداول، وتصبُّ تيارات ضيقة في النهر. صباح أول أمس ثبَّتنا سلال صيد السمك تحت فروع عنب الثعلب، فقد نصبنا خمساً منها، بعد أن جدلناها من أغصانٍ ونباتات في أوقات المساء خلال أسبوع. ينبغي أن يكون فيضان ستاريتسا قد جرف أسماكاً كثيرة من مختلف الأنواع والأحجام، وليس علينا إلا إخراجها. وها هو ذا سانيتش الآن يستعدُّ لطهي حساء السمك الطازج لإطعام المعسكر بأكمله.

نظر سانيتش باهتمام إلى النذل.

- ما اسمك، أيها الفاشي، آ؟

الآن أصبح واضحاً تماماً لماذا لم يَقتُل سانيتش النذل، ولم يدعْه يختنق أو يخنقه بيديه. لقد اقتنعت مرة أخرى أنَّ سانيتش ينظر بعيداً؛ إلى الأمام، ويحسب حساب احتمالات كثيرة، ربما أسَر هذا النذل كي يسوقه إلى نهر ستاريتسا. سانيتش رامٍ ماهر، لقد تملَّص من قتله مرتين في الطريق، تملَّص مرتين على التوالي، الآن أرى أنَّ ذلك لم يكن مصادفة.

- ما بالك صامت، أيها الفاشي؟

- باشا[11]. أجاب النذل.

كان في صفنا ولد اسمه باشا، أسنانه العليا بارزة إلى الأمام، أما أسنان هذا الشخص فإنها طبيعية، كأنَّه طبيعي، واسمه اسم إنسان.

- باشا... استغرق سانيتش في التفكير. كنت أعرف شخصاً اسمه باشا في معمل رقائق الخشب كان مخلوقاً نادراً، يتجسَّس على الجميع. لا بأس، لقد أعاد الفريق تربيته. باشا... هيا، يا باشا، انزع سترتك، ولا تأتِ بحركات.

قطع سانيتش الحبل الذي يقيد يدي باشا.

- لقد حالفك الحظ مرتين، أيها الفاشي باشا: أولاً لأننا في فصل الخريف، وثانياً لأن صاحبي ميتكا لا يريد أن يقتلك. بالمناسبة، لقد سرنا من أجل هذا الهدف بالذات: كي يقتل ميتكا أول ألماني في حياته. الآن سيضطر أن يكابد كثيراً...

تنفَّستُ الصعداء.

- لذلك، ينبغي عليك، يا باشا، ألا تزعجه قط، نصحه سانيتش. هيا، اخلع ملابسك.

شرع الخائن يخلع سترته. لم يستطع خلعها بسهولة: كانت مبللة وانزلقت بصعوبة، إما أنَّه لم يحاول بجد، وإما لأن يديه لم تتحرَّكا جيداً، فقد تخدرتا، وانتفخ معصماه. لكنَّه أخيراً خلعها ثم لفَّها ووضعها على كومة طين. كان باشا يلبس تحت السترة كنزة، خلعها ولفَّها بحرص شديد، وكنزة أخرى داخلية ممزَّقة ومثقوبة، ضمَّ كتفيه بيديه النحيلتين المزرَّقتين، وراح ينظر نظرة فارغة لامبالية، وهو يرتعد ويرتجف بقوة.

بصق سانيتش تحت ساقيه.

- لقد قبضنا على فاشي هَشٍّ، قال، لقد ارتخى بأكمله تماماً، وتفكَّك مثل نثارة الخشب. تفو، كم هو مثير للاشمئزاز. أرسله ليجلب سلال صيد السمك، ويفطس هناك. دعه يفطس برغم أنفه، سيفطس نكاية، أرى ذلك على خطمه...

نظر سانيتش نحوي.

- أستطيع أن أغطس، قلت له، المنطقة هناك ليست عميقة، كما يبدو.

هذا صحيح، لقد تبلَّل سانيتش لما وضع سلال صيد السمك في الماء، أما أنا فكنت جالساً على الشاطئ أنتظر. الآن على العكس، شرعت أخلع ملابسي. حسناً، فلأتبلَّلْ أكثر من ذي قبل، المعسكر ليس بعيداً جداً من هنا، وأنا لن أذوب.

- انتظرْ. هزَّ سانيتش رأسه.

- ماذا؟

- ألم تُصب بالتهاب رئوي مؤخراً؟

- هذا كان منذ مدة...

فعلاً، منذ وقت طويل في العام الماضي، أو منذ فترة أطول، أو... كيف عرف، إنَّه أمر مثير للاهتمام، فأنا لم أخبر أحداً، أو ربما أخبرته.

- الأفضل أن أغطس بنفسي، قال سانيتش، في شهر تشرين الأول سبحت بسبب رهان، ولم يحدث لي أي شيء، كان جدِّي في فصل الشتاء يكسر الجليد ويسبح في الماء...

الآن سيحدِّثنا عن حدوة الحصان.

- كان يدقُّ المسامير بجبهته، قال سانيتش بدلاً من ذلك، أما أنا فليس بمقدوري فعل ذلك. لا...

خلع سانيتش ملابسه بسرعة المقاتل، وظلَّ مرتدياً سرواله الأسود. أمرني أن أراقب باشا، وألا أبعد المسدس عنه، وأن أطلق النار وأقتله لأي حركة مشبوهة، كي لا يتنفس بعدئذ مع أنَّه لا داعي للتحذير، إذ أنَّ باشا هذا في حالة مزرية إلى درجة أنَّه يجلس بصعوبة، ويحاول الاستلقاء على جنبه.

زعق سانيتش، وغاص في الماء، وهو يلوِّح بذراعيه ويتنحنح. إذاً، لديه مآرب وخطط أخرى، بخصوص باشا هذا، من يفهمه، عموماً...

استندتُ إلى غصن رفيع من أغصان عنب الثعلب، ورحت أتأرجح على الجذع. قطفت قبضة من الثمار، وأخذت ألقي بها في مختلف الاتجاهات. عنب الثعلب مثله مثل كل الثمار، ثمة رغبة دائماً في نثره في جميع الاتجاهات، لا يبقى مدة طويلة في اليد. لمس باشا رأسه، أما سانيتش فمشى على طول الشاطئ، وهو يشتم ويكزُّ على أسنانه. راح يتألَّم من البرد، ويتحسَّس أسفل الجذور، رفع على الفور سلة صيد السمك الأولى، وقد كانت فارغة، فألقاها على العشب، وقال إن الحظ سيكون أفضل في الثانية.

لكنَّ الحظ لم يحالفه في الثانية؛ إذ تفكَّكت، وإن كانت الأسماك قد وقعت فيها، فإنها الآن غادرتها بأمان. أما السلة الثالثة فوجدها مليئة بالطين والعلق النائم، في حين كانت الرابعة ضيقة. أخذ سانيتش يكزُّ على أسنانه، ويشتم بشكل فظيع أكثر فأكثر، ويخترع أقذع الشتائم، ويلقي بها على رؤوس النازيين، ورجال الشرطة، والخونة، وغيرهم من الأوغاد الذين خرجوا فجأة من جحورهم، وتكاثروا مثل الفطر السام في حزيران بأعداد كبيرة. إنما لا بأس، سنسحقهم قريباً، إلى درجة أنَّهم سيتبعثرون في مختلف الاتجاهات...

بذل سانيتش جهده، ومسح الأوساخ الخريفية الثقيلة، ثم سحب سلَّة صيد السمك إلى الشاطئ. شاهدت أنَّ الحظ حالفه في هذه السلة: كانت المياه السوداء تمور بالحياة، ثمة صيد. جرَّبت، لسبب ما، عنبَ الثعلب؛ إنه حامض، لم ينضج بعد ليتشكل فيه السكَّر ويحلو. ينبغي الانتظار حتى تشرين الثاني، حتى الصقيع الأول، حينئذ يمكن أن يؤكل.

زمجر سانيتش، متوتراً، ثم ألقى السلة على الشاطئ.

- هكذا! صفر سانيتش، ثالث مرة يطرح الجد الشبكة...

كانت السلَّة مليئة بالأسماك. سمكة المَقلا طولها نصف إصبع، ولونها بلون النحاس المصقول جيداً.

جلس سانيتش منهاراً إلى جوار السلة أزرق اللون، ملطَّخاً بالوحل، مقشعرَّ الجلد، يقطر شراً وغيظاً، مثل ملاكم. كان الملاكمون في منطقتنا يتدربون في دار الطلائع، وكانوا جميعاً هكذا: متهدِّلي الأكتاف، مرتبكين، أقوياء مثل الدببة. أما سانيتش فقد كان بإمكانه أن ينتصر على أي منهم.

- سابقاً، كانوا يعالجون الحمقى بالماء البارد، قال سانيتش، وبدأ يعصر سرواله الداخلي من دون أن يخلعه. شدَّه إلى أعلى، ثم لفَّه وجذبه حتى ذقنه تقريباً، عندي سروال مثله.

- لقد شُفي كثيرون، ربما نعالج الفاشيين هكذا أيضاً، آ؟

لاذ الفاشي باشا بالصمت.

- سنجرب لاحقاً، وعد سانيتش، بالجليد هذه المرة. عموماً، أنا أرى أن من الأفضل عدم الذهاب لصيد السمك مع فاشي، لأنك لن تصطاد أي شيء، فالسمكة تشمُّ رائحته حتى وهي تحت الماء، فتختبئ في الأعماق، الأفضل أن تصطاد السرطانات مع الفاشي، فهو يحبُّها فاسدة. لست أدري كيف أتصرف بهذا الصيد الغريب؛ لا يُصنع منه حَساء، ولا شواء، أخجل من العودة إلى ديارنا خالي الوفاض، سوف يتضايق كوفالِتْس، ذلك الكلب الغاضب... ماذا أفعل بمثل هذه الأسماك...

- ألا يمكن تجفيفها؟ اقترحت عليه، ثم تطحن وتُحوَّل إلى دقيق.

كنت قد سمعت شيئاً عن مسحوق السمك، لذلك قدمت اقتراحي.

- لست أدري، قطَّب سانيتش وجهه، ماذا تجفف من هذا السمك! الصغير، فيه حراشف أكثر من الشحم... عبثاً تجمَّدنا لا أكثر. كلٌّ ذلك بسببك، أيها الوغد...

ركل باشا بقدمه. كان الأخير جالساً على الأرض ولم يعد يرتجف، لكن البخار يتصاعد من فمه. أمر غريب، البخار لم ينبعث من فمي ولا من فم سانيتش، انبعث من فم هذا وحده.

- لقد ساء مزاجي بشكل كامل، ركل سانيتش السلَّة هذه المرة. بصراحة، تنتابني رغبة بألَّا أعود...

اندفعت الأسماك من السلَّة المنتفخة، مثل عصيدة ذهبية وافرة. ربما هي من الشبوط أو الأسماك الصغيرة التي لا أعرف لها اسماً. ثمة دلوان أو أكثر من اللون الذهبي اللامع، لن ترى مثل هذه الألوان البراقة حتى في الخريف، فرغم أن أوراق الشجر صفراء، فإنها باهتة لا حياة فيها، ولكنها ألوان موجودة تحت الماء.

بدأ النذل فجأة يجمع الأسماك، وراح الذهب ينسلُّ من بين أصابعه، ويقفز على العشب. امتزجت الأسماك الذهبية، وعنب الثعلب الأحمر، والعشب البني المتعفن.

الفصل الثالث

- لماذا أنت جالس هنا، يا قِشرَ الخشب؟ سأله كوفالِتْس بنبرة مشاكسة.

- أحقاً، لا ترى؟ تثاءب سانيتش، ننتظر الأحمق.

- آها، واضح. بالمناسبة، ثمة مراسل يبحث عنك، يريد أن يلتقط صورةً لك.

أومأ كوفالِتْس باتجاه مقرِّ القيادة.

- دعه يلتقط صوراً لميتكا. وكَزَني سانيتش في خاصرتي.

- لماذا؟ لم يفهم كوفالِتْس، أنت البطل. حين يصبح بطلاً، سيلتقطون صوَراً له.

غمزني كوفالِتْس.

- ما الفرق؟ هزَّ سانيتش كتفيه، لا أحد، على أي حال، يعرف شكلي.

- كيف ما الفرق؟ هذه وثيقة العصر! من يجلسون في مقر القيادة ليسوا حمقى، يقولون إنه يجب التقاط صورة لك، إذاً، اذهب كي يلتقطوا صورة لك.

- اذهب أنت كي يلتقطوا صورة لك عوضاً عني، اقترح سانيتش، ما الأمر؟ أنت أعددت نفسك على الأرجح، لمَّعت حذاءك، كما أرى، وسرَّحت شعرك. هيا، أنا أسمح لك، بصراحة لست مولعاً بالتصوير.

بدأ كوفالِتْس يغتاظ، فهو سرعان ما يحتدُّ ويغضب. سابقاً، كان يعمل طوافاً ينقلُ الخشب عائماً في الأنهار، إنَّه مولع بالصراخ، وضليع بالشتائم، حتى البعوض الشارد يهلك قبل الاقتراب منه، إنما الأمر سيان بالنسبة إلى سانيتش، سواء شتموه أم لم يشتموه، فهو مثل الجرَّار، بل مثل الخزَّان، ضليع بالتثاؤب.

- هل يهم من يكون في الصورة؟ الأمر الرئيس هو أن ينظر الناس ويقولوا: «ها هو ذا البطل! يا له من رجل شجاع!»

- مرة أخرى؟ عبس كوفالِتْس، وارتخى جسمه، وهدَّل كتفيه.

أما سانيتش فقد راح يتثاءب بصوت عال، ويحكُّ أنفه.

- هل أنت في عصابة، يا قشر الخشب؟! تابع كوفالِتْس، أنت قليل الانضباط... هذا معسكر فدائيين، وليس عصابة ماخنو[12]! أنت مقاتل في الجيش الأحمر!

- الآن أنا مَن؟! وكَزَ سانيتش في خاصرته، كي يكف عن التثاؤب بصوت عالٍ، لا ينبغي إغضاب كوفالِتْس عبثاً، من المحتمل أن يكون كوفالِتْس غير مؤذٍ عموماً، لكنَّه متحمس حامي المشاعر، ومتغطرس، تحضره الغطرسة أحياناً، لكنَّه يسيطر على نفسه، على الرغم من أنَّه شديد الغضب. إذا غضب الآن فسوف يسارع إلى القتال، وسيُعاقَب سانيتش بالسجن مرة أخرى.

- بالمناسبة، ثمة خلل ما في شاربيك، قال سانيتش، لا يطولان على الإطلاق، وقد أصبحا أحمرين...

لمس كوفالِتْس شاربيه.

ينبغي الاعتراف بأنَّ شاربيه يطولان بشكل سيئ.

- لماذا أحضرت هذا الشرطي، آ؟ سأل كوفالِتْس، لماذا أنحن في حاجة إليه؟ كان عليك أن تقضي عليه في الأدغال... مهلاً، يا قشر الخشب، ربما هو أخوك، آ؟ إنَّه يشبهك...

ابتسم سانيتش، وأجابه:

- لقد أردنا الإجهاز عليه، لكن الشرطي استرحمنا قائلاً: لا تقتلوني، لدي صديق في صفوف الفدائيين، كنيته كوفالِتْس، لقد نشأنا في حي واحد، ورضعنا من حلمة واحدة. وهكذا، سقناه، معنا احتراماً لهذا الشخص. لماذا لـمَّعت حذاءك على هذا النحو؟ إذا حلَّقت طائرة حربية ألمانية فستلتقط بريق حذائك وتكتشفنا. في المرة القادمة حين تلمِّعه، ضع كمية أقل من الدهان، بالقدْر المطلوب.

لم يحر كوفالِتْس جواباً، فراح يمشِّط شعره.

لم تكن تسريحة شعر كوفالِتْس بهذه السهولة أيضاً، كان لديه مشط لامع من الألومنيوم، ذو أسنان طويلة حادَّة، له نتوء خاص لتنظيف الأظفار، ونهايته تشبه الملعقة، غايتها مجهولة، يعتقد سانيتش أنها أداة لتنظيف الأذنين. أما كوفالِتْس نفسه فيقول إنَّ هذه الملعقة لتذويب الشمع الذي يفرك الشعر به لإعطائه لمعاناً وثباتاً. غنم كوفالِتْس هذا المشط المتميز من وكيل عريف، ثم غلاه مدة طويلة للتخلُّص من الروح الألمانية، وفركه بالكحول ثلاث مرات، وبعد كل الإجراءات اللازمة، وضعه في محفظة الحلاقة، وحين يرى ضرورة لتمشيط شعره، يتناوله بحركة جميلة، ثم يهزه من ناصيته، ويرتِّب مظهره بحركات مميزة.

- كان لدى جيراننا كلب، أسموه كوزنيتشك، قال سانيتش، كان مولعاً بالحكِّ، يحكُّ ولا يتوقّف عن الحكِّ، وينشج من المتعة... ربت سانيتش على كتف كوفالِتْس وأضاف: سرعان ما أصيب بالصلع.

- أنت، يا قشر الخشب، أحمق، قال كوفالِتْس بنفور، أنا لا أنوي الجدال معك، يأمرك غليبوف أن تراجع مقرَّ القيادة بسرعة!

- ربما أنا أحمق، وأنت يا جِلْدَ سمك القاروص في مؤخرة الجبهة، عقِّم المشط بالكولونيا، ثمة كثير من الحشرات المتجمدة تعشش فيه.

- هيا إلى غليبوف! قاطعه كوفالِتْس، إلى غليبوف! اركض رمَلاً!

- اركض أنت.

مرة أخرى، كل شيء يسير نحو العراك، سيهرع شيتِّيكوف أو أورلوف حالاً إلى هنا، أو غليبوف نفسه، فقد اقترب موعد العشاء، لكننا لن نتمكن من تناوله بهدوء. تشنَّج سانيتش، وضغط على مرفقيه، وهدَّل ذقنه، واستطالت أذناه بطريقة ما حول رأسه، أما كوفالِتْس، فعلى العكس، انتفخ مثل ضفدع في حفل الزفاف، وراح يصرخ:

- أسرع إلى مقر القيادة! بسرعة! هذا أمرٌ عسكري !!!

راح يصرخ بصوت عالٍ، كي يحوز ثناء القيادة من بعيد، ظناً منه أنَّه كلما علا صوته، باتت القيادة أكثر انتباهاً إليه.

لكن القيادة لم تخرج على صراخه، بل خرج ليكوف من مجمع الطهاة يحمل قِدْرَين، ونظر إلى كوفالِتْس بامتعاض، ثم وضع القدرين على المنضدة.

- كلوا، قال بهدوء، أردت أن أقدم لكم ما يشبه العصيدة.

جلس سانيتش مباشرة خلف المنضدة، غطَّس ملعقته في العصيدة، واغترف كمية كبيرة، وراح يلتهمها من أطرافها، كأنه يتناول الآيس كريم على عصا.

- هل تسخر مني؟ أخذ كوفالِتْس يزعق.

- لماذا تصرخ؟ بدأ ليكوف يغضب، لا تصرخ في وجهي! أنا أستطيع أن أصرخ في وجهك أيضاً! لماذا تشتبك مع الشباب مرة أخرى؟! لقد تاهوا في الوديان ثلاثة أيام، وأنت لا تدعهم يتناولون الطعام!

ليكوف طباخ سيئ، عمل سابقاً بائع كاز (كيروسين)، كما كان يبيع علب الثقاب، والصابون، والدقيق، والشعير. حسناً، لقد عينوه هنا في المطبخ، حيث هو مفيد، لأنَّ له علاقة بالمنتجات الغذائية. ها هو ذا يطبخ لنا العصيدة، كما يعرف: لا أحد يُلقي بالاً إلى الجريش غير المسلوق جيداً، ولا إلى صرير الرمال تحت الأسنان، ولا حتَّى إلى قلَّة الملح. البصل محروق دائماً، لكن لا أحد بيننا يشتم. الطعام حار ووفير، هذا يعني أنه لذيذ. والآن، ها هي الطقطقة تصرُّ بين أسناننا، نسي ليكوف أن يقلي البصل ويقطِّعه، فألقى به كاملاً في القدْر، وانتشر في جميع أنحاء العصيدة مسلوقاً وناعماً، وقد استبدل الجزر، إما بالفطر المجفَّف، وإما بجذور غير معروفة. أي طعام هذا. سابقاً كنت لأتقيَّأ من كل هذا، أما الآن فسأطلب المزيد، لولا أن ليكوف نفسه قد أحضر المزيد من دون أن يذكِّره أحد. إنه يشفق علينا، لا بدَّ أنَّ لديه أحفاداً، أو أحفاد أحفاد فعلاً، ربما نذكِّره بهم.

حين تهجَّم علينا الأحمق كوفالِتْس وأزعجنا، غضب ليكوف فوراً، وكشف عن حقيقية بائعي الكاز (الكيروسين)، فهم دائماً مجانين قليلاً بسبب أبخرة المحروقات. مظهر ليكوف يوحي بأنه بائع غاز: أصفر، عيناه غائرتان، نحيل على الرغم من عمله في المطبخ، جسمه كلُّه مسموم، عظامه مجرَّدة من اللحم.

- انظر إلـيَّ، أيها الغبي، حدَّق ليكوف حانقاً في كوفالِتْس، أنا أراقبك منذ فترة طويلة! لقد أصبحت رجلاً، وما تزال تشتبك مع الأطفال باستمرار!

راح ليكوف يمسح يديه بسرواله، فتراجع كوفالِتْس، وقد بُحَّ صوته:

- لماذا ينتهكون الانضباط؟! هناك مراسل ينتظر منذ ساعة، وهم يلعقون الملاعق هنا!

- أنت لست في النهر هنا، تُصدِر أوامرك وتنعق! المراسل سوف ينتظر، لن يحدث شيء له، لن ينكسر! أما إذا تابعت الصراخ، فسأريك...

كزَّ ليكوف على أسنانه بصوت عالٍ وبتحدٍّ، إلى درجة أنَّ كوفالِتْس تراجع مرعوباً. فعلى الرغم من مظهر بائع الكاز، فإنَّ ليكوف لسبب ما رجل قوي. رأيت بأم عيني كيف فرَّغ العربة، وحمل على كل كتف كيس دقيق، ولم يحدث له شيء، بل راح يغني. وعلى الرغم من أن كوفالِتْس سبَّاح، ورجل ليس هشاً، فإنَّه لا يمكن مقارنته بليكوف، فضلاً عن أنَّ ليكوف -أيضاً- رجل ذو هيبة، شارك في الحرب الأهلية، وله وزنه، لا يمكن لكوفالِتْس أن يقارن به، مما دفع كوفالِتْس إلى أن يعدل صوته ويترجَّى:

- الأفضل لك أن تذهب، يا قشر الخشب.

- لماذا؟

- حسناً، لماذا، لماذا، قلت لك، لالتقاط صورة.

- لا فائدة، رفض سانيتش، لن أذهب.

- لماذا؟ سأل كوفالِتْس متجهماً.

- لا أدري، هزَّ سانيتش كتفيه، لا يمكن التقاط صورة لي على الإطلاق.

- كيف هذا؟

- ببساطة شديدة، لقد رَقَتْني غجرية في طفولتي.

نخر كوفالِتْس.

- ماذا يعني «رقتْني»؟ عبس كوفالِتْس، أعتقد...

تلك قصة مثيرة جداً، أستطيع سردها بسرعة. لقد سبق أن سمعت قصص الغجر أكثر من مرة. والد سانيتش، وهو معلم مرموق في صناعة رقائق الخشب، وخبير بالأعمال الخشبية الأخرى، سافر ذات مرة إلى سيبيريا في رحلة عمل، وألحَّ سانيتش عليه أن يأخذه معه ليشاهد بحيرة بايكال. لكنهما لم يصلا إلى بايكال، لأنَّ والده ذهب في الطريق كي يحضر مشروباً ساخناً، وفيما كان يقف في الدور، سرق الغجر سانيتش. ركض الأب على طول الطريق وشاهد أولاد الغجر يقودون سانيتش في اتجاه مستودع فارغ. صرخ الأب، وأمسك سانيتش، ثم قبض على أحد الغجر، وجرَّه إلى قسم الشرطة. لحقت بهم عجوز غجرية، ركعت على ركبتيها وترجَّت الأب أن لا يسلِّمه للشرطة، كما قدَّمت لهما أقراطاً ذهبية، وقرأت على سانيتش نفسه رقيةً تحميه من الرصاص والمرض والعبودية.

- منذ ذلك الحين صار كلُّ شيء يرتدُّ عني، قال سانيتش، السكاكين، والرصاص، والصور. لقد جربوا مراراً: جاء مصور إلى المدرسة، ومصور من الصحيفة، ولم يصلا إلى أي نتيجة، حتى لو هرستني.

حدَّق سانيتش في كوفالِتْس وهو يبتسم.

- إما أن العصفور لا يطير[13]، وإما أن تتصدَّع االشريحة، وإما أن يخرب الفيلم. وهكذا لم تلتقط لي صورة واحدة.

- هناك مصور حقيقي، قال كوفالِتْس، جاء من موسكو.

- ها هو مصوري الحقيقي، أشار سانيتش إلـيَّ، لقد شارك في حلقة هواة التصوير منذ كان عمره ثمانية أعوام، أليس كذلك؟

- صحيح، قلتُ، لكن هنا...

- لقد التقط صورة لعصفور، عصفور دوري بسيط، نشروها في صحيفة «بيونيرسكايا برافدا». لكنَّه مهما حاول أن يصورني، لم ينجح.

صحيح ما قاله بخصوص الطائر، وبخصوص سانيتش.

- كانت الكاميرا رديئة، رحت أشرح لهم، حدث عطل في المفتاح، وخدوش في الفيلم بأكمله، فضلاً عن أنه ليس عندنا أي ظروف ملائمة للتصوير، ولا مختبر، ولا... أي شيء...

- أقول لكم، ابتسم سانيتش، لن يتحقَّق ذلك، هذا ما سنقوله للمراسل.

- هذا صحيح، تدخل ليكوف، هذا صحيح، أيها الشبان، من الأفضل أن تتغذوا جيداً، سينضج الحَساء حالاً، وسأغرفه لكم من أسفل القِدْر كثيفاً.

نهض سانيتش من خلف المنضدة، وراح يتمطَّى وينظر حوله.

- أنت الآن في منظمة شبيبة «كومسومول»؟ سأل كوفالِتْس وأجاب في الوقت نفسه، يجب أن تفهم. إني أتعجب دائماً، من أين تأتي هذه الميوعة، آ؟ صار عمرك سبعة عشر عاماً، تكاد تصبح بطلاً، ومع ذلك تستحي! هل هذا ممكن؟

هنا انتقل كوفالِتْس إلى اللهجة العاطفية النابعة من القلب، كما لو أن رفيقاً كبيراً يعلِّم جيلاً شاباً قليل الخبرة. لم يعجبني ذلك، ظننت حقاً أن سانيتش سوف ينفجر مباشرة، لأن كوفالِتْس يذكر البطل عمداً طوال الوقت لإغضابه...

ضبط سانيتش أعصابه.

- عندما يقدموننا سنتكلم، ابتسم سانيتش، أما الآن فأريد أن أتناول الطعام، أشتهي الحساء...

- لا يمكن تفويت الغداء، ابتسم ليكوف أيضاً، أما أنت، يا ليشيك، لا تغضب، اركض بسرعة، وأخبر المراسل أن يأتي إلى هنا. لقد رأيته، بطنه يلتصق بظهره من الجوع، بنقرة إصبع يسقط على الأرض.

صُعق كوفالِتْس، فصمت عدة ثوان، ثم فتح فمه كي يعترض. لاحظ ليكوف هذا، فأخذ يمسح يديه بسترته من جديد.

فجأة وضع سانيتش أمامي الصحن الذي لم ينهِ أكل ما فيه من طعام، ومسح شفتيه بكم سترته، ثم مضى مسرعاً باتجاه مقرِّ القيادة. نظرت حولي، ها هو ذا غليبوف، وقبعته الفرو، كل شيء واضح.

- لماذا أنت قاعد؟ حدَّق كوفالِتْس في وجهي، هيا انطلق أنت أيضاً.

- لماذا يجب علـيَّ أن أنطلق؟

- لا تسأل، أسرع.

حاول كوفالِتْس دفعي في ظهري، فتملَّصت منه. جمع ليكوف الأطباق متذمراً، واختفى تحت الأرض. توجَّهت ببطء إلى المقر، وأنا أتساءل ماذا يحمل المراسل معه هذه المرة؟ كاميرا بَكَرة، أم كاميرا شرائح؟ ربما كاميرا بَكَرة، فحملها أسهل على متن الطائرة، وقد تكون كاميرا سينيمائية.

يبدو أن هذا المراسل قد طار بالفعل إلى معسكر جيراننا، والتقط صوراً للفدائيين وقت الاستراحة، لينشرها في مجلة عسكرية. لست ملماً بكاميرا الأفلام السينمائية على الإطلاق، أنا مطَّلع على مبادئ عملها الأساسية فقط، ولا بأس من تجريبها، لا بأس -أيضاً- من إخراج فيلم عن حياتنا: ماذا نفعل طوال اليوم، أو تصوير غارة، أو كيف نفجِّر جسراً. أنا لم أشارك بعد في غارة، أما تفجير الجسر فشيء هائل. صحيح أني رأيت تفجير جسر من بعيد، ومع ذلك فهو مؤثر، لا سيما حين تهتز الأرض.

رحت أفكر كم سيكون ذلك جيداً في المستقبل، سيرى الناس لاحقاً كيف كنا نعيش هنا، وكيف خضنا الحرب، وكم سيكون رائعاً أن أشاهد نفسي بعد عشرين عاماً، في عام ألف وتسعمائة واثنين وستين. ربما في عام ألف وتسعمائة واثنين وستين، ستكون الدراجات في متناول الجميع، والراديو في كلِّ بيت، وكذلك االراديو المحمول...

كان المراسل جالساً تحت شجرة تنُّوب[14]. هذه المرة، أرسلوا شاباً يافعاً: صادف أنه صغير، في نحو الثامنة عشرة من عمره، ضيق العينين. حمداً لله لا يرتدي نظارة على الرغم من وجود دوائر تحت عينيه توحي بأنَّها نظارة. بدا سانيتش بجانبه عملاقاً. إنه شخص نحيف جداً لكنَّه مراسل، اسمه فيكتور، ربما تلقَّى تعليماً جيداً، وكتب مقالات هامة، وضرورية أيضاً. ولكن لا يمكن أن يحمل الجميع البنادق، هذا ما يردده سانيتش دائماً.

كان غليبوف حاضراً أيضاً. لم ألحظه فوراً، لكنه حاضر، وقد جلس تحت شجرة تنُّوب وأمامه منضدة صغيرة، يدخن، ويقرأ صحيفة على ما يبدو، لكنه كان يسترق السمع.

أخذ المراسل يطرح أسئلة عادية على سانيتش، بالتسلسل، كما هو متوقّع: أولاً عن طفولته، ثم عن كيفية قتل الجنرال. راح سانيتش يتحدَّث بملل، وصار يحكُّ جسمه ويضحك، فهو للمرة الثامنة يتحدَّث عن الحادثة نفسها على الطريق، ويمثِّل ضجِراً كيف قفز وهو يصرخ صرخة نصر مدوية، ويلقي قنبلة يدوية، ثم الثانية، وكيف بدأ إطلاق النار وهو يقطع الطريق على راكبي الدراجات النارية... لا، حادثة راكبي الدراجات حادثة أخرى، مع حادثة المدافع الرشاشة، الجنرال نفسه كان، ويا للعجب، من دون دراجة نارية، يؤرجح كلتا يديه مستهتراً، هكذا...

واضح أنَّ فيكتور ليس له خبرة، كان يكتب كلَّ شيء تباعاً، بالتفصيل، من دون أن يقطع تخيلاته، لذلك أخذ سانيتش يخرج تدريجياً عن الموضوع، وراح يكذب مبالغاً، لم يُعر أي اهتمام لسعال غلييوف. أما أنا فلم أستطع الصبر، فرحت أرسل إليه الإشارات: أغمزه، وأحرك أنفي، لكن سانيتش المتحمس، طبعاً، لم يلحظ ذلك.

- وهكذا سقط، أي قفز إلى الخندق، وهناك راح يصرخ بلغته الفاشية... بالمناسبة، أنا أسرتُ البارحة فاشياً، ليس عقيداً طبعاً، لكنَّه مهم؛ نذل، مراسل، كان ينقل رزمة سرية إلى المحطة...

في البداية لم أفهم عمن يتحدث، لكنني بعد ذلك خمنت أنَّ الحديث يدور حول باشا البارحة، لقد جعله مراسلاً خاصاً.

سعل القائد بصوت عال، فعاد سانيتش إلى رشده وتريَّث.

- أي أننا حملنا تلك الرزمة إلى القائد، فأرسلها إلى القيادة. طبعاً نحن أجبرناه على التهام حقيبته.

- التِهام؟ استيقظ المراسل.

- لِمَ لا؟ هذا هو تقليدنا الأبدي. لما نقبض على شرطي، فإننا نجبره فوراً على أن يأكل شيئاً؛ حزامه الخاص، أو حذاءه، أو قبعته.

- لماذا؟ أخذ فيكتور يبري قلم الرصاص بظُفره.

- كيف لماذا؟

لكي لا يغري الآخرين بالانضمام إلى الفاشيين. كيف علـيَّ أن أتصرف، هل أشكره لأنَّه انضم إلى بوليس العدو؟ لقد التَهم الحقيبة بكل لطف، وطلب المقبلات زيادة، تحدث، يا مِيْت؟

استدار سانيتش نحوي.

- تماماً، أكدت أنا، لقد التهمها.

- وهكذا، فنحن لا نلعب بأحجار الداما مع النازيين. أنا لم أتم حديثي عن الجنرال، هل يهمك الحديث عن الجنرال؟

- نعم، طبعاً...

كان من الواضح أنَّه لا يريد الاستماع إلى قصَّة الجنرال مرة أخرى، إنما لا يجوز رفض طلب البطل. راح غليبوف يخشخش بالصحيفة، لكنَّ سانيتش تابع:

- لم يكن الجنرال بسيطاً، كان ضابطاً حقيقياً في قوات النخبة الفاشية، أتى ليجرِّب سلاحه السريَّ هنا؛ الألغام القفَّازة. اكتبْ، هذه الألغام مخيفة للغاية: فهي لا تنفجر فحسب، بل تقفز قبل انفجارها، فتتسع مساحة الخطر بشكل فظيع! إنَّه سلاح خطير... كان يحمل جميع الوثائق في حقيبته، قاوم مثل الوحش، وتبين أنَّ لديه رشاشاً خفيفاً في سيارته.

- رشاش خفيف... كتب فيكتور.

- نعم بالضبط. حين أخذ ذاك الرشاش، وبدأ يرشُّ منه لم تكد أرجلنا تحملنا... أنا لم أكن وحدي، ثمة آخرون كانوا هناك، لم تكد أرجلهم تحملهم أيضاً... أنا لست جباناً، جئته من الجهة اليمنى، فاستدار الجنرال نحوي وأطلق رشة عن قرب وأصاب سترتي وكلَّ كتفي. حسناً، هنا لم أستطع الصبر أكثر، في الواقع، أردت أسر الجنرال حياً، أدركت مباشرة أنَّ لديه شيئاً مهماً، لكن لما كاد يقتلني برصاصه، فكَّرت في نفسي أنَّه ليس عيباً أن أطلق النار على رأسه مباشرة من مسدّس توكاريف، طاخ! طاخ!

خبط سانيتش راحة يده بقبضته مرتين، فكسر المراسل قلم الرصاص، ثم أخرج قلماً جديداً.

- اكتب، اكتب. ضمَّ سانيتش ذراعيه على صدره، مهم جداً أن تكتب الحقيقة من دون أي شائبة. جاهز؟ إذاً، اكتب سقط الجنرال، وأنا تحسباً لأي طارئ مضيت إلى السيارة، وأخذت الحقيبة. نظرت، فوجدت فيها مخططات عليها نسور. اتضح لي فوراً أنَّها مهمة، عموماً هذا كل شيء، الألمان ببساطة يكرهونني لهذا السبب. لـمَّا علِم هتلر، راح يزعق بعصبية، ووضعني في قائمة أعدائه الشخصيين، وأرسل سرية كاملة من قوات النخبة الألمانية الخاصة للبحث عني.

هزَّ المراسل كتفيه مستغرباً، وراح ينظر إلى الغيوم؟

- إنه يمزح، لم يستطع غليبوف أن يتمالك نفسه تحت الشجرة. لقد تعب هذا الشاب، فقد أمضى ثلاثة أيام في مهمة استطلاعية، ولم يسترح لحظة... عموماً، هؤلاء فِتيان، ماذا يمكن أن تأخذ منهم؟ لقد تناول أحدهم العشاء قبل فترة قريبة في مطعم ألماني...

- لم أكن أنا، قال سانيتش فوراً، ثمة كثير من الأكاذيب تُحاك عني، لا تصدِّقهم، إنهم جميعاً يختلقون أموراً مختلفة. أنا وحدي أقول الحقيقة. هل ستلتقط صوَراً؟

- نعم، طبعاً، أبعد فيكتور قلم الرصاص، الصور ضرورية، أنا هنا في ضيافتكم، وقد التقطت صوراً لمقاتليكم، إذا لم يكن الأمر صعباً عليك...

- هذا ليس صعباً عليه، أطفأ غليبوف سيجارته، واقترب منا، طبعاً، ليس صعباً عليه إطلاقاً...

- إذاً هيا، دعونا الآن، إن كنت لا تمانع؟

شرع سانيتش يحكُّ يده.

- لا يمانع.

أخرج غليبوف كيس تبغ من جيبه، وأخرج منه قليلاً من التبغ، وفركه بين أصابعه.

رفع المراسل غلاف الكاميرا المصنوع من جلد أسوَد إلى بطنه، لم أر مثله، الكاميرا ليست محلية الصنع، حسب ظني.

- مشِّط شعرك، طلب غليبوف، ليمشِّط كل منكما شعره.

لم يكن لدي ما أمشط شعري به، نفضت شعري لأخرج ما فيه من وسخ، أما سانيتش فقد مشط شعره بأن بصق في راحة يده، وفركها بالأخرى، ثم سرَّح شعره في اتجاهين، مع مفرق في المنتصف، فأصبح منظره غبياً، حسب رأيي، إنما سانيتش أراد ذلك فعلاً.

شرع غليبوف يفرك التبغ مرة أخرى، في حين حدق المراسل في وجه سانيتش، لكنه لم يقل شيئاً، وبدأ يستعد لالتقاط الصورة.

- ضع قبعة الفرو. أمره غليبوف.

- شعري هكذا يناسبني كثيراً، كشَّر سانيتش، كانت جدتي تمشطني هكذا دائماً...

- حسناً، فليكن، أنت من سيبدو أحمق، وليس أنا.

- ربما ينبغي أن يحمل سلاحاً؟ طلب المراسل.

- نعم، يُفضَّل، وافق غليبوف، أي فدائي هذا من دون سلاح... خذ.

فتح غليبوف حافظة مسدسه.

- قد يكون أفضل أن أهرع وأحضر رشاشاً؟ سأل سانيتش.

- إحضار رشاش؟ انتعش فيكتور، نعم، مع الرشاش أفضل طبعاً، إن لم يكن بعيداً...

- ليس بعيداً، اندفع سانيتش من مكانه، سأعود حالاً!

هزَّ غليبوف رأسه متوجِّساً.

- فـي أي صحيفة تعمل؟ سألت فيكتور، هل تعمل فـي «كراسنايا زفيزدا» أم فـي «برافدا»؟ ما نوع العدسة الموجودة لديك؟ ينبغي التقاط الصور عاجلاً، ستغيب الشمس. هل أستطيع أن أرى الكاميرا؟ هل أنت من موسكو؟

فتح المراسل فمه دهشاً، في حين حدَّق غليبوف في وجهي، وأصدر صوتاً بلسانه:

- ماذا أفعل بهم؟ وجَّه غليبوف سؤاله إلى فيكتور لسبب ما، لا يجوز أن أطردهم، سيقتلونهم فوراً، وإذا لم يقتلوهم، فسوف يسوقونهم إلى ألمانيا. لا يمكنني -أيضاً- أن أرسلهم إلى بيوتهم، فليس كلهم لديهم بيوت، فضلاً عن أن إرسالهم أمر خطير، كما تعلم. كل شهر تحضر إلـيَّ مجموعة ما، أنا هنا أمثِّل الحكومة السوفيتية، ويجب علـيَّ أن أجنِّدهم...

طوى غليبوف الصحيفة أربع طيات، وضرب بها على ركبته، وقال:

- لكنهم -أيضاً- لا يريدون الجلوس مكتوفي الأيدي، ومع أن أعمارهم صغيرة فإنهم يحاربون...

- إنَّهم يحاربون ببسالة. ذكَّره المراسل.

- آه... لوَّح غليبوف بيده فقط، هذه ليست مهنة أطفال، أنت يا فيكتور، تفهم ذلك...

- في روسيا القديمة، كانوا يشاركون في المعارك وهم في سن الثانية عشرة، اعترض فيكتور، هذه حقيقة تاريخية.

- حسناً، نحن لسنا في روسيا القديمة، قاطعه غليبوف بلطف، نحن في الاتحاد السوفيتي. ينبغي أن يبقى الأطفال في المدرسة، وأن تطهو النساء حَساء الملفوف، ويجب على البالغين أن يقاتلوا. كل شيء واضح، ها أنت، يا فيكتور، ألم تدرس في المعهد؟

- لقد درست التاريخ في «إيفيل» (معهد الفلسفة والأدب والتاريخ في موسكو)، ولكنها الحرب الآن...

لم يجب غليبوف، لأنَّ سانيتش عاد يحمل رشاشاً، ويعتمر قبعة.

- هل كل شيء جاهز؟ سأل بمرح، فلنسرع، وإلا فثمة شخص غير طبيعي يتحامق...

علَّق سانيتش الرشاش على رقبته، وشدَّ القبعة صوب عينيه، وأكسب وجهه طابعاً صارماً.

- صوِّر، قال، إنما أحذرك مباشرة، لن تنجح المحاولة.

- سنرى، سنرى...

انشغل فيكتور بالكاميرا. لاحظت أنها غير عادية، لم أر مثلها من قبل، إنها على الأرحج أمريكية: معدنها مصقول جيداً، وعلى جانبها عدسات احتياطية قابلة للتبديل. جهَّزها فيكتور، وضبط سرعة الغالق، ثم ثبَّتها على حامل ذي ثلاث قوائم لا أعرف من أين جاء به، وطوال هذا الوقت ظلَّ سانيتش محافظاً على وضعيته.

فجأة، ابتعد المراسل عن العدسة، وحدَّق في سانيتش متعجِّباً.

- ما هذا، بالضبط؟ أشار المراسل بإصبعه: على الحزام؟ على حامل الرشاش؟ هذا...

- صلبان حديدية، صرَّح سانيتش بفخر، خمس قطع. أنا علَّقتها هنا بالضبط...

- صلبان حديدية؟ سأله فيكتور بِحيرة.

- نعم، أربعة من الدرجة الثانية، وواحد من الدرجة الأولى، نزعته مؤخراً...

- أبعد هذه القذارة! كاد غليبوف يئن.

- لماذا قذارة؟ تساءل سانيتش مكسور الخاطر، هذه ليست قذارة. الرشاش لي. بالمناسبة، أنا لم أربحه بالقمار، بل اغتنمته في المعركة، وهذه الصلبان انتزعتها من الأعداء، هذه غنائمي. لقد شاهدتم، على الأرجح، كيف رسموا مثلها على الطائرات، ونشروا ذلك في صحيفتك.

سعل غليبوف.

- ماذا أفعل بهذه الصلبان؟ تابع سانيتش، يؤسفني أن أتركها على صدور النازيين، كما يؤسفني أن أرميها، سيرفضها غليبوف، لذلك خطر لي...

نطَّ كوفالِتْس فجأة من مكان ما حاملاً رشاش PPSh.

- دعوني أحمل رشاش PPSh أيضاً، قال سانيتش، سأحمل الاثنين معاً. استمعوا، هل يمكن أن أحمل رشاش «ديغتيار» أيضاً...

توقَّف غليبوف عن السعال، وراح ينظر إلى سانيتش متوعِّداً.

- حسناً، خلع سانيتش الرشاش م. ب. عن عنقه، سيان، لن يحدث أي شيء.

ناولني رشاشه، وتناول الرشاش PPSh، ثم غطَّى رأسه بالقبعة حتى أرنبة أنفه تقريباً.

- اخلع قبعتك على الأقل، نصحه كوفالِتْس، كأنك امرأة.

سحب كوفالِتْس بحرص وتروٍ مشطه، وناوله إلى سانيتش.

- لا، شكراً، رفض سانيتش، آخر مرة تهورت وأخذته منك، ظللت أحكُّ رأسي شهراً كاملاً. هكذا أفضل لي.

خلع سانيتش قبعته، ومشَّط شعره بيده بطريقة عادية تماماً، فظهر بمظهر بطولي لائق.

- دعونا نلتقط الصورة على أي حال، ذكَّرهم المراسل، هذا الشاب على حق؛ ستغيب الشمس اليوم باكراً.

- هيا بنا.

وقف سانيتش مرة أخرى. وبينما واصل المراسل معالجة الكاميرا، شرع سانيتش ينتظر بصبر.

نقر على زر التشغيل، وذكَّره المصور بالعصفور. تحرَّك كوفالِتْس الذي كان يقف جانباً وراء ظهره، فبان جزء منه في الصورة. ضغط فيكتور على الزناد، فتحرر النابض فجأة، وانزلقت ستارة الكاميرا، ثم شرع فيكتور يحكُّ أنفه.

- قلت لك لن تنجح الصورة، قال سانيتش بسرور.

عاد الصحفي يجهز الكاميرا، وأنزل سانيتش الرشاش.

- لا يمكن التقاط صورة لي، قال مرة أخرى، لم ينجح أحد ولا مرَّة في التقاط أي صورة لي.

- أنا الآن، أكّد فيكتور، سأصحح ما تعطّل.

راح يعالج الكاميرا بمفك براغي صغير، وأخذنا جميعاً ننتظر. انزلق قفل الغطاء، فخرج الفيلم، وأفلت من مكانه. فوجئ المراسل، فقضم لسانه، وحدَّق في غليبوف الذي هزَّ كتفيه باستياء؛ هذا مفهوم، فرغم أن لديه كثيراً من المشاغل، فإنه مشغول بنا، ولكن ما العمل، هذا هو النظام، هذه هي السلطة السوفيتية.

رفع فيكتور الفيلم عن الأرض، شعرت بالأسف؛ كم من الصور أهدر هذا الشاب الغبي، على الرغم من أنه درس في المعهد، لكن لعلَّه صحفي أكثر منه مصور، من الصعب إرسال مصور وحده، كلهم في الجبهة.

- دقيقتان، طلب فيكتور، سأصلحها...

- حسناً، لا بأس، راح سانيتش يحدِّق في كوفالِنْس، نحن لسنا في عجلة من أمرنا. بالمناسبة، لا يمكن التقاط صورة لك، يا كوفالِنْس، لا تنزعج.

- لماذا لا يمكن؟ سخر كوفالِنْس.

- شارباك مثل شاربي هتلر. هل يمكنك أن تتخيل ما يمكن أن يحدث؟ أنا هنا في المقدمة، فدائي، أدافع عن الوطن الأم، ومن خلفي يحدِّق هتلر؟ ماذا سيقول قراء الصحيفة؟

نظر فيكتور إلى كوفالِنْس، واستدار غليبوف، لم يصبر.

- لا، لا يشبهانهما على الإطلاق... أخذ كوفالِنْس يتحسَّس شاربيه، شاربا هتلر مختلفان تماماً، إنهما مستقيمان.

- لو اهتممت، يا كوفالِنْس، قليلاً بشكل شاربَي هتلر، لكنت حصلت على وسام منذ زمن بعيد، أو على ميدالية على الأقل، هذا مؤكد.

ضحك غليبوف، واحمرَّ خدَّا كوفالِنْس خجلاً، فتحرك باتجاه سانيتش، وزن الأمر في عقله، ثم استدار خارجاً.

- من أين جاءتك هذه الثرثرة؟ سأله غليبوف، أنا أتذكَّر والدك، كان رجلاً عادياً.

- العاديون في خنادق يأكلون الحصان، سوَّى سانيتش قبعته، أنا أشبه جدي، جدي عازف هارمونيكا، كما أنك لم تستمع إلى أختي ليدكا بعد، إنها لا تتوقف عن الثرثرة. أنا أثرثر قليلاً، أما هي فتجعلك ثرثرتها تهرب ولا تلوي على شيء.

- كل شيء جاهز!

جهَّز المراسل فيكتور الكاميرا مرة ثانية.

نهض سانيتش، واتخذ وضعية قتالية. في هذه اللقطة لم يذكر المراسل العصفور، بل نقر نقرة، فانزلقت الستارة مرة أخرى، وعاد الإخفاق من جديد. المعدَّات الأمريكية ترفض بعناد أن تعمل في مستنقعات بسكوف.

- يبدو أن البكرة عالقة، أكَّد فيكتور جهله الكامل بهذه التقنية، الآن...

- لقد انزلقت الستارة هناك، قلت له، يمكن إصلاحها...

- يمكنكم الانصراف، لوَّح غليبوف بيده، نتابع في وقت آخر.

لم يعترض المراسل، بدأ يحزم أمتعته، لقد تعب، وبدا كأنه أحمق.

- لقد حذَّرتكم، ألقى سانيتش الرشاش PPSh على كتفه، لا يمكن تصويري.

- في المرة القادمة احمل معك كاميرا احتياطية، نصحته، يأتي الآخرون إلينا حاملين كاميرتين دائماً.

- نعم... راح فيكتور يقلب الكاميرا بين يديه بحماقة، ربما...

أخذ يجمع المعدات، وهو يقضم أظافره، عموماً بدا حزيناً. وبينما مضى غليبوف إلى المقر الرئيسي، اختفى كوفالِتْس، وذهبنا نحن إلى مخبئنا. حمَّلني سانيتش الرشاش PPSh، أما هو فمشى متبختراً حاملاً الرشاش MP بفخر، ويهزُّ حزامه المزيَّن بالصلبان الأثرية.

- سنذهب غداً إلى الشمال، راح سانيتش يثرثر وهو يحدق بالغيوم، الطقس غير مفهوم، حبَّذا لو يهطل المطر مرة أخرى، يبدو أنَّ هناك انقشاعات، لقد تحطَّمت طائرة مقاتلة، ربما من طراز «هينكل»، كما أخبرَنا واحد من السكان المحليين، يجب معاينتها. في الواقع، قد تكون فاشية، أو وطنية. أمرنا غليبوف بالذهاب والتحقق، قد يكون هناك شيء مفيد. إذا كانوا من جماعتنا، فينبغي دفنهم، نزهة جيدة! هيهات أن يسبقنا النازيون، سنكون هناك قبلهم... آخر مرة، ذهبنا فيها لمعاينة طائرة، كانت رائعة؛ فقد تحطَّمت طائرة الشحن الألمانية، وكان جميع النازيين معجونين، أما معلبات اللحم فقد بقيت سليمة، المهم ألا يخذلنا الطقس... لحس سانيتش شفته العليا، واستمع إلى أحاسيسه. لست أدري... قال ثم توقف، كيف ستجري الأمور... بالمناسبة، لقد أفادنا باشا النحيل هذا فائدة جمة، إنَّ قرارنا بعدم قتله كان صائباً، اتضح أنَّه كان يعمل في ساحة شحن تابعة للخطوط الحديدية، حيث يناوب الحراس، ورسم هذا المخلوق الفاشي البرنامج اليومي الذي تذكَّره. لقد وضعه غليبوف في حفرة لعلَّه يتذكَّر شيئاً آخر.

- وبعد ذلك؟ سألته، إلى أين سيرسلونه؟

- لا أعرف... أرسل غليبوف رسولاً إلى الجيران، ربما يفيدهم في شيء، هم يتابعون شؤون المحطة. أو ربما يفيدنا في أمر ما، أما إذا لم نكن في حاجة إليه فسنقتله طبعاً، هل سنعلفه أم ماذا... لقد وعدَنا غليبوف بتقديم السكر، نستطيع صنع حلوى الديوك من السكر، هل تعرف كيف؟

- لا...

- نحتاج إلى مقلاة، لا يمكن صنع الحلوى في كوب. يبدو لي أنَّ أَلِفْتينا لديها واحدة صغيرة لكنَّها ثقيلة.

- نعم، عند أَلِفْتينا.

- سأذهب إلى أَلِفْتينا لإحضار المقلاة، راح سانيتش يحدِّق مرة أخرى في السماء، سنصنع حلوى الديك، ونجتمع في جلسة لشرب الشاي، وسوف يعزف يوسوبوف على البلالايكا... هل صحيح أن جدك كان يعزف على الهارمونيكا؟

- كان يعزف على الهارمونيكا، وعلى الربابة أيضاً...

ضحك سانيتش فجأة، ما المضحك في الربابة؟

- حسناً، دعنا نذهب إلى حجرتنا، لماذا نتسكع هنا؟ أفكِّر أن نأخذ معنا غداً الرشاش MP.

- أيُّها الشبان!

التفتنا، فوجدنا فيكتور يقترب منا.

- سوف يعيد أسئلته، تثاءب سانيتش، مرة أخرى عن الجنرال على الأرجح. لقد حدثته عن كل شيء... شيء ممل...

إنَّه لم يملَّ من أي شيء، هو ببساطة مولع بالحديث عن هذا الجنرال، يمكنه الحديث عنه ثماني مرات يومياً، في كل مرة بطريقة جديدة: في البداية كان الجنرال يستقلُّ سيارة «هورش» عادية، ثم انضمت إليه سيارة «بي ام ف» مع جندي يحمل رشاشاً، ثم ظهرت سيارة أخرى، يبدو أنهم خططوا لانضمام حاملة جنود مدرعة، وربما دبابة بعد ذلك. كان يجري تحديث الألغام طوال الوقت، وتزداد أهميتها الاستراتيجية؛ اليوم جرى الحديث حول الألغام القفازة، وفي الشهر الماضي حول الألغام الميكانيكية المتحركة التي كانت تُلقيها الطائرات، وتطمر نفسها بنفسها في الأرض، أما غداً فسيؤلف شيئاً آخر...

اقترب المراسل راكضاً، وهو يفرك أنفه، ويغمز بعينيه، فنظر إليه سانيتش بغطرسة.

- أخبرني القائد أنه يمكنكم أن تطلعوني على كل شيء هنا، تنفس فيكتور، أي أن تأخذوني في جولة في المعسكر. في البداية كنت أريد أن أكتب مقالاً عنكم، والآن، على ما أعتقد، سيكون مقالاً طويلاً، أو سلسلة من المقالات الطويلة. ألست طلائعياً؟

هزَّ سانيتش رأسه.

- لا، لقد تجاوزت السنَّ فعلاً، قال له، لقد انضممت إلى الكومسومول، إنما لا توجد لدينا خلية كومسومول بعد. لكن لا بأس، كل شيء بالتدريج، أنا أرغب في الانضمام إلى الحزب أيضاً.

شرع فيكتور يكتب في دفتره مرة أخرى.

- حدثنا كيف التحقت بصفوف الفدائيين؟ سأله، بعبارات عامة، طبعاً.

- مثل الجميع: جاء الألمان، وطردونا إلى الغابة، ثم استوطنوا بيوتنا، فحفرنا المخابئ، وصرنا نعيش فيها، ظننَّا أن الأمر لن يطول نعم، وما لبث أن حلَّ الخريف، وتجمَّدت الأرض... بالمناسبة، هل ترى تلك الكتل؟ نحن نخلل الفطر فيها، الفطر وافر هنا، جففنا منه الكثير، هل جربت عصيدة الفطر؟

- لا...

أخذ المراسل يكتب عن الفطر.

- اطلبه من ليكوف، إنَّه يطبخه مع البصل.

رحنا نسير ببطء في أرجاء المعسكر، والمراسل يتلفَّت حوله، وسانيتش يتحدث كيف نعيش هنا.

- هل ترى شجرة الصنوبر تلك؟ لا، ليس هذه، فهذا كوفالِتْس يتجسس علينا، حسناً ذاك الذي يسرِّح شعره مثل تسريحة هتلر، انظر إلى اليمين، هناك تجويف كبير في شجرة الصنوبر، وجدنا فيه وشَقاً[15] ميتاً! لقد صعد إلى هناك، ولم يقدر على الخروج، فبقي جاثماً في مكانه، هل تريد أن تراه؟

- لا، حدِّثني بمزيد من التفصيل كيف أصبحت في صفوف الفدائيين.

لا يوجد أي وشَق ميت هناك، ولا تجويف أيضاً.

- هكذا كما أقول لك؛ كنا نعيش في الغابة، قلت لأمي: لماذا نعيش في الحفر، والألمان يحتلون منزلنا؟ دعينا نشعل به النار، ليفروا كالفئران. أجابتني والدتي أنه لا ضرورة لإشعال النار، حين يغادر الألمان، سنغسل أرض البيت والطوب، وندهن الجدران بالعرعر، ونعود إلى حياتنا بهدوء. حسناً، بقينا في المخابئ حتى رأس السنة الجديدة تقريباً، ثم فكرت أنَّه يكفي، لقد تعفَّنت جذوري، فتناولت المجرفة وغادرت.

- لكن لماذا المجرفة؟ تفاجأ المراسل.

- لم تعطني أمي الفأس، وهي لم تكن في حاجة إلى المجرفة، لم يكن ثمة ما تزرعه على كل حال.

- كيف عثرت على الفدائيين؟

ضحك سانيتش.

- ولماذا أبحث عنهم؟ كل شيء جلِّي هنا: ببساطة، إما من الفدائيين، وإما من الشرطة. أنا أعرفُ عناصر الشرطة فوراً عن طريق رائحتهم النتنة، إذا لم تكن الرائحة نتنة فهذا يعني أنهم من الفدائيين. هذا حمّام تحت الشجرة، ينبغي بناء الحمام أو المطبخ دائماً تحت أشجار البتولا، كي يتبدَّد الدخان. نعم، يفضَّل أن يكون كلُّ شيء تحت الأشجار كي لا يُرى، ويجب أن تُرفع مدخنة يوضع عليها دلو لتصريف الدخان. عندنا حمام رائع هنا، الحمام أهمُّ شيء للفدائي، ينبغي أن يبنى أولاً. لكن، في الحقيقة، بيت الخلاء يجب أن يُبنى أولاً. لدينا بيت خلاء رائع للغاية... حسناً، سوف ترى بنفسك، هناك، تحت أشجار التنوب ثمة شخص كما ترى، ذاك هو شيتِّيكوف يحمل فأساً، إنَّه خبير في صنع الساعات، كما أنَّه يصلح السلاح، حقاً... تحت شجرة التنوب، فيكتور، تحت شجرة التنوب، هناك...

أخذ سانيتش بذراع المراسل، ومشيت وراءهما. لا يوجد عمل أقوم به. على أي حال حمْل الرشاش أفضل من القيام بأعمال التمويه أو قطع الحطب، إن غليبوف يجد دائماً ما يعمله.

بيت الخلاء عندنا تحت أشجار التنوب، مثل باقي الأشياء. ثمة لغز: شيء لونه واحد، صيفاً شتاءً لا يتغير، ما هو؟ الجواب هو: بيت الخلاء.

- هل تعرف هذا اللغز؟ سأله سانيتش، صيفاً شتاءً له لون واحد لا يتغير، ما هو؟

- شجرة التنوب؟ اقترح المراسل جواباً.

- لا، ليست شجرة التنُّوب على الإطلاق. هيا، سوف أريك...

دخلا بيت الخلاء، وبعد قليل خرجا منه...

- ماذا هناك؟.. هل هو ما أظن؟ سأل المراسل بِحيرة.

- نعم، أومأ سانيتش بسرور، هم أنفسهم. عندنا قاعدة: كل من يصطاد ألمانياً يقتله، ويسمِّره هنا. ما رأيك بالفكرة؟

- فكرة مثيرة للاهتمام، أعتقد أنَّها تحفز التفكير في أمر ما، تحفز راسمي الكاريكاتور، أو كتاب المقالات الهجائية الساخرة... أظنها أنسب للمقالات الهجائية.

- نعم، مقالة هجائية ساخرة، رائعة! أكَّد سانيتش، كنت دائماً أحبُّ أن أقرأ في الصحف عن مختلف اللصوص، وعن البيروقراطيين... أجل، أجل، اكتبْ مقالاً هجائياً عن بيت الخلاء عند الفدائيين! هذا ليس عندنا وحدنا، فقد رأيت مثله في معسكرات أخرى، حيث تجد صورة شخص عليها تعليقات مختلفة، بعضها، بالمناسبة، شعر، هذا أيضاً نوع من تقاليد الفدائيين للسخرية من العدو...

دوَّن فيكتور شيئاً ما في ألبومه.

- حسناً لا تكتب عن بيت الخلاء، اكتب عن الحمَّـام، أما عن بيت الخلاء فلا تكتب، أنا لم أقرأ أي شيء من هذا القبيل في أي صحيفة من الصحف. ها هو ذا يوسوبوف قادم. سابقاً كان يعزف في الأوركسترا في حفلات الزفاف والجنازات، إن لم يكن يكذب طبعاً، والآن يعمل قنَّاصاً احتياطياً، لأنَّ يديه ماهرتان، ويعزف على البالاليكا، مثلاً «أمام منزل حماتي»، وأشياء لن أعيد سردها.

حدَّق يوسوبوف فينا بتجهم. لا أصدِّق أنَّه عازف في الأوركسترا، واضح للعيان أن شكله شكل كنَّاس، لا يليق بأرنب مثله أن يكون أكثر من كنَّاس، يعبُّ الفودكا، ويصفر.

- وهناك الحُفَر التي نعيش فيها، هل تراها؟

أشار سانيتش بإصبعه.

- لا... هزَّ الصحفي رأسه.

- هنا بيت القصيد، مخابئ لا لأنها تحت الأرض، ولكن لأنَّها تُحفَر تحت طبقة سميكة من تراب تنمو فيه أعشاب ونباتات تحجبها، فلا يظهر منها أي شيء، حتى لو طرت فوقها. أنا حفرت بيدي خمسة مخابئ، خمسة!

لوَّح سانيتش بكفه.

- دعنا نذهب ونرَ. في الواقع، وفقاً للقواعد، ينبغي أن يحفر كلُّ شخص مخبأ لنفسه، حتى لا يشتكي لاحقاً من أنه بارد، أو يدلف منه الماء، أو فيه بقٌّ. ولكن نظراً لوجود نساء عندنا، فضلاً عن وجود

أشخاص... لِنقُل إن أيديهم لا تحسن العمل، هكذا، نظراً لوجود مثل هؤلاء الأشخاص، ترتب علينا بناء المخابئ. دعنا نلقِ نظرة...

مشينا على طول الحُفر، تأوَّه سانيتش تأوُّه من يفكر بعمق، وهو يضرب بالسوط حذاءه، حتى أوحى منظره وكأنَّما هو السيد هنا.

- دعنا نلقِ نظرة... توقف سانيتش، هنا يعيش فدائي سوفيتي عادي، أعتقد أنه لن يمانع إذا ألقينا نظرة.

غمزني سانيتش وبدأ ينزل على الدرج، سار المراسل خلفه، إنما ليس بثقة كبيرة، لم تكن لديه رغبة.

مخبأ... لم أكن أعرف جيداً من الذي يعيش فيه، ولكنه بدا لي مألوفاً. لم أشعر بالرغبة في الدخول، وبينما مكثت أنتظر، نزل سانيتش وفيكتور. ثمة رائحة، وسمعت أصواتاً...

جيد أننا ذاهبون غداً إلى الطائرة، فمن الصعب المكوث في المخيم فترة طويلة. يصبح الأمر مخيفاً، وتنتابني رغبة بالفرار، أو تتراكم في رأسي كل أنواع الحماقة. كنَّا قد وجدنا طائرة. طبعاً، في الغابة ثمة أوساخ ورطوبة، ولكن فليكن، لا بأس، كل شيء أفضل من الجلوس.

ظهر فيكتور، وتبعه سانيتش.

- عذراً، يبدو أنَّ الأمر اختلط علـيَّ نوعاً ما، برَّر سانيتش لنفسه بعينين ماكرتين، أذكر جيداً أن فدائياً حقيقياً كان يعيش هنا، والآن، على ما يبدو، انتقلت فدائية شابة إلى هذا المكان...

ظهر كوفالِتْس فجأة من مكان قريب.

- كوفالِتْس، هل تعلم من هي هذه الفتاة التي تعيش هنا؟ سأله سانيتش، كنت أظن أنني أعرف جميع نسائنا...

أسرع كوفالِتْس إلى المخبأ، ولمس سانيتش بكتفه.

- لا يعيش الفدائيون من دون مزاح، ابتسم سانيتش، هذا المقاتل متوتِّر للغاية، ومرهَق بالأمراض، لديه جميع أنواع البثور والبواسير، نفكِّر في إرساله إلى المستشفى. حسناً يا فيكتور، دعنا نتابع التعرف إلى معسكرنا، في الحقيقة لا يوجد ما يستحق المشاهدة، معسكرنا صغير، لا يوجد لدينا مطبعة ولا راديو، ولكننا متكاتفون. انظر، هذا سباسوكوكوتسكي.

معسكرنا في الواقع ليس كبيراً جداً، إنَّه ضيِّق، أصغر من ملعب كرة قدم، ، لكنَّ فيه نبعاً، توجد حوله في المستنقعات, أشجار التوت البري الذي يصبح حلواً بعد الصقيع، يمكن أكل سلة منه.

- وعندنا هيرنغ هناك، لوَّح سانيتش باتجاه نباتات كثيفة، ليس حقيقياً طبعاً، حصان فاشي، وهو الآن مِلكنا، إنما سابقاً كان ألمانياً، إنَّه سريع الغضب كالكلب، يعضُّ ويعوي، الآن لا بأس به، ننقل عليه الحطب. هذا كل شيء. في الواقع، لا يوجد شيء آخر يستحق المشاهدة.

- لا شيء؟

- لا. اطلب من غليبوف أن ترافقنا إلى المعركة!

- كيف؟

- تذهب معنا في أثناء الغارة، ستكون في المؤخرة! سوف تعجبك، إنما أنا لا أعرف متى، اسأل غليبوف، قد يخبرك.

راح فيكتور يحكُّ جبهته.

- اكتبْ عن ذلك، واصل سانيتش التفكير بصوت عال، ستحصل على مقال طويل، لن تكتب أفضل منه!

- لست أدري...

- إذاً اذهب إلى غليبوف، واسأله. في كل الأحوال، لن تنطلق أي طائرة الآن في هذا الوحل.

- ربما، حقاً... نظر فيكتور في حيرة، سيكون ذلك رائعاً... سأذهب، وأعرف. شكراً لك.

سارع المراسل إلى المقر.

ظهرت ملامح شوري وراء أقرب شجرة صنوبر، لقد توقف على مسافة تحسباً لأي طارئ، يسترق السمع.

- حسناً، ماذا تريد؟ سأله سانيتش.

ركض شوري، وناول سانيتش مثلثاً.

- ما هذا؟

- رسالة.

- لماذا لا تسلِّمها بنفسك؟

- هكذا، أنا لا أعرف... سلِّمها أنت، آ؟ أنت ستوصلها بالتأكيد.

أخذ سانيتش الرسالة.

- حسناً، قال، اسمع هل عندكما أنت وأِلفْتينا مقلاة صغيرة؟

- نعم، عندنا...

- عندنا سكَّر، أعطونا إياه تقديراً لعملنا البطولي، لذلك سنزوركم الليلة، أخبر أِلفْتينا.

- حسناً، سأخبرها، إنما تعالوا مساء، لأن آلْيا ستكون في المطبخ اليوم.

اختفى شوري.

- دعنا نذهب لتناول الغداء مرة أخرى، آ؟ اقترح سانيتش، لقد أعدَّ ليكوف الحساء، على الأرجح.

- هيا نذهب.

أنا لا أعارض أبداً التهام الطعام مرة أخرى.

وجدنا اثنين يجلسان على المقاعد في حجرة الطبَّاخ، هما: كوستيك وخمورنياك.[16] لعل كوستيك تعدَّى الأربعين من عمره، إنَّه رجل بالفعل، ورغم ذلك لا ينادونه إلا بصيغة التصغير كوستيك، لست أدري لماذا هو كذلك. أما خمورنياك فلونه بنفسجي بأكمله، كان يفكِّك قذيفة، فاشتعل البارود، وحرق وجهه تاركاً عليه ثقوباً، أصبح وجهه أزرق غامقاً، لهذا السبب يبدو هو نفسه دائماً مكفهراً قاتماً وحانقاً. راح كوستيك وخمورنياك يتحدثان بهدوء ورويَّـة عن الزبدة (وكيف تُستَخلص، على ما يبدو) ويأكلان بالطريقة القديمة، ويستمتعان بها مع الخبز.

أكمل ليكوف إعداد الحساء فعلاً. نظر إلينا، ثم بصمت تناول الأطباق العميقة وأعادها لنا مليئة تماماً. مرة أخرى ملأها تماماً، ليكوف ليس بخيلاً على الرغم من أنَّه بائع كيروسين.

كالعادة، لم يكن الحساء لذيذاً؛ لقد غلى مكونات الحساء حتى ذابت، ولم يعد ممكناً أن تعرف أين الفطر في الملعقة، وأين الحبوب، وأين البصل. ليكوف موهوب بالتأكيد، ربما كان ليفوز بالمركز الأول في بطولة أسوأ الطهاة، فضلاً عن ذلك، فإن البعوض وإبر شجر التنوب الجافة وغيرها من التفاهات كانت تسرح وتمرح في القِدْر، ويمكن اصطيادها بالملعقة، أو على الأقل تنحيتها جانباً،

لكن لا أحد يفعل ذلك هنا. سابقاً كنت أصطادها، لكنني الآن لا أكترث، على كلِّ حال لا يوجد فرق.

كما هو الحال دائماً، لم يكن الحساء لذيذاً، لكنَّنا كما هو الحال دائماً أكلناه بسرور، إلى أن ظهر كوفالِتْس، إنه كالظل، لا يمكن الاختباء منه أبداً. أخذ سانيتش يفرك عينه.

راح كوفالِتْس يمضغ سيجارة بين أسنانه، لم يدخنها، بل اتخذ مظهراً استعراضياً ببساطة، كانت السيجارة حقيقية، وتلائم كوفالِتْس تماماً، فقد بدا مع السيجارة أكثر رجولة. لعلَّه يتدرَّب على أخذ صورة له، يريد طباعتها في «النجم الأحمر». أعتقد أنه ليس في حاجة إلى التدريب، حتى في شكله الحالي، فيكتور هو من أعطاه السيجارة.

- هكذا إذاً، أيُّها الحمقى، راح كوفالِتْس يحرِّك السيجارة بلسانه من اليمين إلى اليسار، لقد خسرتم، كلفني غليبوف بمراقبتكم.

- حسناً، راقبنا، راقبنا.

ابتسم سانيتش ابتسامة عريضة، وأخذ ينفخ على الملعقة.

- لكن... تناول كوفالِتْس ولاعة مصنوعة من خرطوشة، ثم ضربها وأشعل سيجارته، كما في الأفلام السينمائية تماماً، لكن اسمعوا، إن غليبوف غير راضٍ إطلاقاً عما قمتم به. هذا ليس معسكراً، بل سيرك! يأتي الناس إلينا من الأرض العظيمة لأداء عمل جادٍّ، وأنتم تقومون بأعمال في المراحيض، الشيطان وحده يعرف ماذا! ماذا سيكتبون عنا في الصحف؟! معسكر غليبوف بدلاً عن أن يدمِّر الجسور، يزيِّن المراحيض بالأوغاد الألمان.

خفض سانيتش بصره.

- اسمعوا أمر القائد، أيها الأبطال، نظفوا مرحاض الفدائيين واجعلوه في أحسن حال. معكم مهلة ساعة، بعد مرور ساعة سوف أتحقق شخصياً!

رمانا كوفالِتْس بنظرة غاضبة وغادر.

- يا له من مسخ، تنهَّد سانيتش بارتياح، لا الرِّجل تُكسر، ولا العنزة تنطح...

الفصل الرابع

حدث ذلك في اليوم الخامس، أي في السابع والعشرين من الشهر. ظننت أنها طائراتنا.

حينها لم أكن قد تعلَّمت بعد كيف أحدِّد الطائرات لا من شكلها، ولا من صوتها، ولا من ارتفاع تحليقها. لاحت تحلِّق من جهة قواتنا، من الشرق، كأنها سرْب من الذباب الأسود غير مرئي تقريباً على خلفية الشمس المشرقة. لم أعرها أي اهتمام، لقد كانت السماء في الآونة الأخيرة مليئة بالحركة، فاعتدنا على ألا نرفع رؤوسنا.

في صباح ذلك اليوم رحت أراقب النور، ارتفعت الشمس، حتى صارت فوق الأسطح، وخلال دقائق قليلة، ستدخل بين مداخن مصنع الآليات، وستبدو الشمس معلقة بينها مثل مصباح كهربائي.

انطلقت صافرات الإنذار متأخرة، بعد فوات الأوان؛ متأخرة لدرجة أنني رأيت الصلبان السوداء على أجنحة الطائرات. بدأت المدافع الرشاشة من العيار الثقيل تمطر الرصاص، فمزَّقت سكونَ الهواء خطوطٌ شفافة، انطلقت مدوية بالقرب من الجسر حيث تمركزت البطارية المضادة للطائرات. اسودَّت السماء نتيجة الانفجارات، لكن السرب حافظ على وضعه، مصحوباً بطنين منتظم كطنين النحل، وزحف نحو المدينة، ثم انتشر وراء النهر، وانفصلت عنه طائرات صغيرة تكسَّرت أجنحتها، وتدلَّت أسفل بطونها.

هوت الطائرات بسرعة كبيرة نحو الماء لتشرب؛ إنما لم تكن في حاجة إلى الماء، بل انقضَّت على الجسر، وبعد ثانية اهتزَّت الأرض، فسقطتُ على السطح وانكمشتُ، لم يتوقَّف القصف والهدير، لقد بدا مثل منشار دائري، يحزُّ قضيباً نحاسياً.

فتحت عيني، كانت المدينة نائمة، لم يستيقظ السكان بعد، لم يدركوا ما يحدث، لم يهرب أحد، ولم ينجُ أحد، ثمة عدد قليل من سكان البلدة الذين استيقظوا للتو ينظرون إلى السماء.

صمتت البطارية الرابضة عند الجسر، وتوقَّفت الانفجارات في السماء، ثم استدار سربُ القاذفات ببطء، وعادَ في الجولة الثانية. استمرت المدافع الرشاشة في مقاومتها، محاولة تغطية المدينة، لكن الطائرات لم تلتفت إليها، وانتشرت ببطء فوقنا، وبدت كأنها معلَّقة في السماء، والريح تحرفها قليلاً. انهمرت القنابل على الأرض مرة أخرى، فارتجت ارتجاجاً عظيماً، دفعني السقف مرة أخرى، فقفزت، وسقطت، ثم حاولت النهوض، وانقذفت عوارض الفولاذ تتراقص تحتي، لم أتمكن من الوقوف على الإطلاق، تشبثت بالكاميرا، وحاولت جاهداً ألا تتحطم. كان الموقف مرعباً...

رأيت طائرة مقبلة نحوي من جهة الشمس، هذه المرة رأيت القنبلة معلقة تحت بطنها بشكل واضح، فولاذها يلمع، وتبتسم، فميزت بوضوح شدقاً مكشِّراً مرسوماً على وجهها. انخفضت الطائرة قريباً من الأسطح، واختفت بضع ثوان عن نظري، ثم ومضت فوق رأسي من دون تلك القنبلة.

صدمتني موجة الانفجار، فخلعت قميصي عن جسمي، وفي اللحظة نفسها دوَّى صوت قوي أصابني بالصمم على الفور تقريباً، وفقدت بصري تماماً لثانية واحدة.

سقطت مدخنة المصنع اليمنى، وتناثرت متحولة إلى ركام، لقد انهار المصنع مثل لعبة، أما المدخنة الثانية فقد انهارت بطريقة مختلفة؛ انكسرت قاعدتها وسقطت، وانتشر منها الدخان، كما انبعثت زوبعة غبار كثيفة عانقت السماء، وحجبت الشمس، فعم الظلام، إنما ليس فترة طويلة: فمن اليسار شبَّ حريق في الهواء، مثل فطر برتقالي منكمش، وانفجرت محطة الوقود.هبَّت رياح، وسحبت الغبار في دوامات منفصلة، وشاهدت المدينة تموت.

تموت في صمت.

في الضواحي احترقت البيوت، ومن ثم انفجرت، فتطايرت أسطح المنازل والألواح المكسرة، كما انهارت أبراج المصاعد، واندلعت ألسنة النار البنية فوق محطة القطار، وانقذفت منها مضخة خزان مياه، بُنيَ في عام ألف وتسعمائة وثمانية، واحترقت المباني المكونة من ستة طوابق على الكورنيش، وانهار جدار واحد منها.

بدا العالم كأنه ينهار من حوافه، رحت أنظر إليه تماماً كمن ينظر عبر عدسة مكبرة، كل ما كان أمامي اندفع لامعاً ومحدباً، وما بقي على جانبي تناثر مزيجاً غير واضح المعالم. كما لو أن منظاراً ثُبِّتَ على عيني، ظللت أنظر عبره نحو نصف عام، فأرى العالم مُغَبَّشَّاً، كأنما تفصلني عن الحياة العائمة أمامي عدسات سميكة معكَّرة قليلاً.

لعلَّ هذا ما أنقذ حياتي أيضاً، عقلي على الأقل.

نعم، بالضبط هكذا.

أخذت الرؤية المعتادة تعود إلـيَّ تدريجياً، إنما بقي في الرأس شعور باللاواقعية، وبوجود عيب غريب في الفيلم. لما كان المسعف على قيد الحياة، كنت أتساءل إن كان على دراية جيدة بالطب، فقد تحسَّس رأسي طويلاً، وراح ينظر في أذني، ثم قال إنني أصبت على ما يبدو بتلف في الدماغ، لكن لا يمكن تحديده بالضبط، يمكن أن تعتريني حالات مختلفة: أصوات، ونغمات، ومختلف أنواع الرؤى واللامبالاة والذهول، من المستحيل علاج ذلك، ولاسيما في ظروفنا، لذلك ينبغي العيش بهدوء وحرص شديدين.

الأصوات والمجسَّمات، لحسن الحظ، لم تصل إلى هذا الحد، وعلى الرغم من ذلك فقلّما شعرت بالمتعة، لكن ثمة ذهول، فضلاً عن أنني لم أعد أفهم الخريطة. حاول سانيتش أن يشرح لي: فراح يدلني على الورق، ويرسم لي على الأرض، أين نحن، أين المستنقع، أين الألمان، هنا بسكوف، هنا، انظر؟ هنا لادوغا القديمة، ها هي ذي! الأنهار، والطرق، والسكك الحديدية، كلُّ هذا بات هباء منثوراً. أنا فدائي ممتاز: إذا قبضوا علـيَّ، لا يمكن أن أخون أي شخص، ببساطة لست قادراً على ذلك، لهذا، أنا دائماً برفقة سانيتش. أنا غير قادر على الذهاب إلى أي مكان بمفردي، أضيع بين شجرتي صنوبر. لا يوجد «هناك» بالنسبة إلـيَّ، هناك دائماً «هنا» فقط: لا أستطيع أن أتخيل كيف هي الأمكنة هناك في بسكوف، أما عن موسكو فالصمت أفضل. كلا، أنا أتذكَّر بسكوف، إنما... من الصعب أن أعبَّر عن ذلك بالكلمات، كأني أعيش في دلو ماء.

كما أنني لا أستطيع التفكير في المستقبل، أعجز عن التفكير في المستقبل لثلاثة أيام، أحياناً أحاول أن أتذكَّر، هل كنت أستطيع القيام بذلك سابقاً؟ لا أفلح.

أمر مؤلم، أنت تزحف طوال الوقت على الجليد، ولا يمكنك التمسُّك بأي شيء، ولا التوقف، أنت تنزلق، وتنزلق...

إنما ثمة إيجابيات -أيضاً- في هذا الانزلاق؛ بدأت ألاحظ التفاصيل بشكل أفضل، ربما بدأ ذلك قبل القصف، الصدمة قد تكون محفِّزة لا أكثر... لا أعرف. حاولت أن أتذكَّر... في اليوم الأول ركض أخي إلى الغرفة، وصاح: «أوراا، إنَّها الحرب، الحرب!»، هرعنا إلى الشارع كي نشاهد ماذا يعني ذلك. كنت أنتظر سائقي الدبابات، وسائقي الدراجات النارية، والقاذفات تصطفُّ كالنجوم الهائلة، وتحلِّق في السماء نحو الغرب، فالجميع يعرفون ضد من هذه الحرب، على أي حال، كنت أنتظر أن أرى الجنود يسيرون بأوامر صارمة من قادتهم، وأن أسمع من مكبرات الصوت ذلك اللحن العسكري يصدح بتلك الكلمات المألوفة: «إن بدأت الحرب غداً، إن هجم العدو...»

لكنني لم ألحظ أي شيء من هذا القبيل. كان يوماً كسائر الأيام، إلا أنَّه، في خضمّ الروتين المعتاد، وفي ظهيرة يوم أحد من أيام حزيران، رأيت فجأة وبحدةٍ الطيور جاثمة على أشجار الحور الرقيقة بأعداد غير مسبوقة؛ رأيت ارتعاش الماء غير المفهوم في البرك، وصبياً يسقط كعك الدبس من يده، ولسبب ما، يحدِّق في السماء، وحدث تصدُّع في الجدران المبيضة. اعترت المدينة خشونة حادة تفوق التصور، وأصبحت رائحة الهواء مختلفة، رائحة الطوب المبلل لسبب ما، هذه الرائحة تماماً ترتبط بشكل غير متوقع بالوسط المحيط. وقد سرَّني أنَّه صار من الأفضل التعامل مع المداخن...

- الثلج الأول يذوب دائماً، قال سانيتش، كلام كاذب. أنا أتذكَّر ثلاث مرات لم يذب فيها الثلج. اذهبْ، فمن المتعة النظر إليه.

- ما هو الممتع؟

- اللون الأبيض، أنت مصور، ينبغي أن تعرف كثيراً عن الألوان.

- في وقت لاحق...

- لا، ينبغي الآن، قبل أن يُداس، اذهب، اذهب، انتعل جزمة اللباد، لقد حلَّ الشتاء فعلاً.

أخرجت جزمتي اللباد، ونفضت ما فيها من ورق الجرائد، وما رُشَّ عليها من مسحوق بارود المدافع، كانت متجمدة كالحجر، اضطررت أن أدفع ساقي فيها، وشعرت أنني أسير على عكازَين ثقيلين.

إنَّه الشتاء.

خرجت إلى الشارع، وكدت أسقط. كان الثلج متراكماً وكثيفاً، ارتفاعه يصل إلى الركبة تقريباً، استمرَّ في التساقط على شكل رقائق ثقيلة، أصبح العالم مختلفاً. كل ما كتبه بوشكين صحيح، في الواقع، لم تكن ثمة آثار لأي خطوة، وحدها الطيور وطأته، أو لعلَّها السناجب، أنا لا أفرق بينها.

- أنا أكره الثلج الأول! صاح سانيتش من الداخل.

أما أنا فسيان عندي، لا يهمني الثلج الأول... يلتصق جيداً. ذات مرة، سقطت ندفة ثلج في أذني، ظللت أنظفها نحو نصف يوم، كما أن العينين تحتاجان مدة طويلة حتى تعتادا عليه، الكاميرا تلتقطه بشكل سيء، إذ يزداد التباين والانعكاس، أنا لا أبالي بالثلج، عدت إلى مخبئنا.

- تتجمد الحياة مع الثلج الأول، أوضح سانيتش، إنَّه رطب ومبلل للغاية، يلتصق بجزمات اللباد، يصبح ثقل القدم الواحدة طناً، لو لم تكن الحرب الآن لانتظرنا أسبوعين، غير معقول.

- نعم، هذه حقيقة...

الانتظار أمر سيء وصعب، تريد أن تصرخ.

- تحتفل أَلِفْتينا اليوم بيوم شفيعتها القديسة أَلِفْتينا، قال سانيتش همساً.

- كيف عرفت؟

- أعرف، لقد مرَّ شهرٌ على غياب كوفالِنْس...

- وهذا جيد جداً! كان سيماحكنا وينتقدنا، حسناً، لماذا أنت في حاجة إليه...

- نعم... راح سانيتش يلطم الحائط بقبضته، هذا، طبعاً، ليس سيئاً... لقد أرسله غليبوف في مهمة منذ وقت طويل، لكنني لا أعرف حقاً طبيعتها، ومكانها، إنما لدي شعور بأنه سيعود اليوم، فهو لن يفوِّت الفرصة. هل سبق لك أن احتفلت بيوم قديسك؟

- لا.

- أنا أيضاً، لا أحد عندنا يحتفل بهذا اليوم، أتذكَّر أنَّ أَلِفْتينا احتفلت في المرة الأخيرة.

أتذكَّر أن أحد الزملاء في المدرسة احتفل ذات مرة بيوم قديسه، يومها غنينا، ثم شربنا الشاي وتناولنا الحلوى.

- كم عمرها؟ سألته.

لم يجب سانيتش.

- كم عمرها؟ كرَّرتُ السؤال.

- ربما سبعة عشر، أو ثمانية عشر. أنت ما رأيك؟

- سبعة عشر. أجبته.

لست خبيراً في تحديد عمر الفتيات، بصراحة لا أعرف تماماً كيف يتم تحديد العمر؟ حسب الطول؟

- لماذا قررت ذلك؟ سأل سانيتش باهتمام.

- نحيلة. أجبته.

- حسناً، إنَّها خارجة من الحصار، إنهم جميعاً نحيلون هناك.

- نعم، هذا واضح من عينيها.

- ربما... كان يمكن أن ننام ساعتين إضافيتين. لا، لا، ينبغي أن نذهب إلى غليبوف، ونستمع إليه، ونغير ورق الجدران... إنَّه ليس متمرساً في التعليم، أسوأ من مارتينوفا. كانت في مدرستنا معلِّمة جغرافيا اسمها مارتينوفا، درَّست في المدرسة الثانوية قبل الثورة، هناك أصيبت بالجنون، والصَّمم، لقد كانت مارتينوفا تلك تعلِّم بشكل أفضل. حسناً، دعنا نذهب، وإلا فإنه سوف يعود إلى الشتائم مرة أخرى.

تناول سانيتش من علبة صفيح دفاتر مطوية كالأنبوب، ثم مضينا إلى المقر.

كان غليبوف جالساً خلف المنضدة يكتب شيئاً على لوح محمول، ويدخن طبعاً.

دائماً يذكرني غليبوف، لسبب ما، بالميكانيكي، أنا لا أعرف السبب. ما إن أراه حتى أتخيل ميكانيكياً على الفور، ربما بسبب ذراعيه؛ فذراعا غليبوف طويلتان تتدليان دائماً من كميه، أما أنفه

فكبير، وكذلك أذناه، إنه رجل مشعر وممل، لم أقابل مثله قط. أنا مندهش من أنه قائد معسكر، ينبغي أن يشتغل بصنع السلال... كلا، ينبغي أن يكون قد اشتغل عامل صيانة جوال في السكك الحديدية، وهو لا يزال حتى الآن يجول ويدور حول كل شيء، متفحصاً كلَّ شيء في كلِّ مكان، ويدقِّق، ويلقي علينا درساً واحداً في الأسبوع. حسناً، هكذا هو يسميه، يروي أشياء مختلفة، ثم يطرح أسئلة عما نتذكَّره، ويلقي كذلك دروساً سياسية، إنما هذا ليس علينا وحدنا، بل على الجميع. في أثناء الدروس السياسية كنا أنا وسانيتش نختار زاوية بعيدة نختبئ فيها، ونلعب لعبة الداما أو ننام تماماً.

- مرحباً، مرحباً، استقبلنا غليبوف بصوت محاسب كئيب، اجلسا.

عندنا مقعد في المدرسة، صنعناه بأنفسنا من بقايا جذوع شجرتين، ولوحين من الخشب، غير مريح، إنما لا بأس، يمكن الجلوس عليه. اقترح سانيتش الجلوس ببساطة على جذوع الأشجار، لكن غليبوف أمر بصنع المقاعد. لا توجد لدينا محابر، وعدد الدفاتر قليل، لذلك غالباً ما نستمع، ونكتب الأفكار الأكثر أهمية.

اليوم بدأ غليبوف بالفيزياء، عادة يبدأ بالجغرافيا، من القارة القطبية الجنوبية، لكنَّه اليوم بدأ فجأة الحديث عن الكهرباء، كيف اخترعوها منذ زمن بعيد، وكيف أنَّهم، بعد أن اخترعوها، لم يعرفوا ماذا يفعلون بها، فاستخدموها للتسلية. قبل مئة عام فقط، اختُرع التلغراف، ثم اختُرع المصباح، والمذياع، والسينما مؤخراً، ولكن في الواقع هذه ليست سوى البداية.

كيف ستستخدم الكهرباء خلال مئة عام؟ لدى غليبوف مثل هذا الأسلوب، يحبُّ طرح الأسئلة، وأغلب أسئلته تقريباً تدور حول المستقبل، يتحدث مثلاً عن القارة القطبية الجنوبية نفسها، ثم يسأل ماذا نستفيد منها؟ أنا لم أستطع معرفة ماذا يفيد هذا الجليد المتراكم بلا معنى، لكن سانيتش، طبعاً، له رأيه الخاص؛ قال إنه يمكن تجهيز سجن ممتاز في القارة القطبية الجنوبية، وإرسال جميع الأنذال إلى هناك. لا داعي، طبعاً، لإرسال المهمين منهم إلى هناك، الأفضل وضعهم في أقفاص وعرضهم مجاناً في كل المراحيض، أما العاديون فلا بدَّ من إرسالهم، طبعاً، إلى الأنتاركتيكا (القارة القطبية الجنوبية)، هناك سيجهزون لهم زنزانات خاصة تطفو فوق الجليد، ليبقوا فيها، وعندما يموتون، يلقى بهم -ببساطة- في الماء من أعلى. لا داعي لدفنهم.

الآن غليبوف مهتم بالكهرباء.

- القطارات تسير بفضلها، أجبته، مثل المترو في موسكو. ستدخل السينما إلى كل منزل... عموماً ستنتشر الكهرباء في كل مكان.

- ستنتشر الكهرباء في كل مكان حقاً، أومأ سانيتش موافقاً، أنا هنا أتفق مع ميتكا تماماً. عموماً، الكهرباء مفيدة؛ يعالجون المرضى النفسيين بالكهرباء، وفي أمريكا يعدمون المجرمين بالكهرباء، قرأت ذلك في الصحف، يربطون المجرم على كرسي، ثم صدمة كهربائية واحدة، وينتهي الأمر.

هكذا ينبغي قتل رجال الشرطة الخونة: صعقة، ولن يعود ذلك الكلب قادراً على القفز. هكذا بالضبط؟

سخر غليبوف.

- وماذا؟ الأمريكيون يرسلون إلينا، وفقاً لبرنامج ليند ليز، دبابات وطائرات، ومختلف أنواع اللحوم المعلبة، وربما يزودوننا بالكراسي الكهربائية.

- لماذا؟ تفاجأ غليبوف.

- كيف لماذا؟ كيف؟ هذا شيء مفيد للغاية في الاقتصاد، دعني أخبرك كيف يمكنك استخدامها...

- لا، قاطعه غليبوف، الكهرباء ليست للكراسي الكهربائية على الإطلاق، إنها...

ظهر شيئِّيكوف قلق الوجه، وهمس في أذن غليبوف، الذي عبس.

- انتظرا، أمرنا غليبوف، سأعود حالاً.

خرجا وبقينا وحدنا.

- لقد حالفنا الحظ، قال سانيتش، ظننت أنَّه أراد التحدث عن أفريقيا.

- لماذا؟

- المرة الماضية تحدث عن القارة القطبية الجنوبية، الآن عن أفريقيا، ثم سوف يحدثنا عن أستراليا، كلها تبدأ بحرف «أ». اليوم كنت سأموت، أفريقيا قارة ضخمة، فيها زرافات وتماسيح وحمير وحشية... وماذا أيضاً؟

- النعام. ذكَّرته.

- بالضبط، وكان غليبوف يتمنّى أن يحدثنا عن كل نعامة، وحمار وحشي، كما لو أنَّه لعب معها لعبة قذف العصا. ثم يسألنا: ما رأيكم، لماذا الحمار الوحشي مخطط؟

في البداية، لم أفهم الملل لدى غليبوف، ولا هذه الدروس، اعتقدت أنَّ هذا كلَّه هراء تماماً: الحرب تدور رحاها، وهو يحدثنا عن زُحَل، وكيف عاش الناس في العصور القديمة. لاحقاً لما صار سانيتش يقاطعه، حين يكون مزاجه غير معكر، صرتُ أنا نفسي أفكِّر. السلطة السوفيتية هي السبب: جاء النازيون، ولم تسقط، بل ازدادت قوة. تكتب الصحف أنَّ ثمة من يعمل في إنتاج أفلام

الرسوم المتحركة، وشرعوا يطبعون أشعار بوشكين، ويصنعون الألعاب، فضلاً عن إقامة أنواع من المباريات... يبدو أنه يوجد من ينتج أفلام الرسوم المتحركة، أما غليبوف فيتحدث عن زُحل. كل شيء صحيح.

- لماذا الحمار الوحشي مخطط؟ سألته.

- من يدري، ربما روحه هكذا مخططة. لماذا قمصان البحارة الداخلية مخططة؟ والسؤال الذي يجدر طرحه حقاً، هل غليبوف نفسه يعرف السبب؟

- على الأرجح، أنه كان يعمل ميكانيكياً سابقاً؟

غصَّ سانيتش، وراح يضحك كما لو أنني أخبرته أن غليبوف كان يرقص الباليه.

- غليبوف ميكانيكي؟ حسناً، أنت مبتكر! صفع سانيتش جبهته من الدهشة. غليبوف، إنه من...

دخل غليبوف نفسه قبل أن ينهي كلامه.

- لدي مهمة أخرى لكما، قال غليبوف، المهمة هي...

تهيأ سانيتش.

- مهمة هامة، كرر غليبوف، جدية جداً، أومأ سانيتش باهتمام، أريد أن أطلب منكما أن تعتنيا بشوريك[17].

همهم سانيتش، أو تمتم.

راح غليبوف يدور حول المنضدة، ورأسه يلامس السقف، ويغمغم بهدوء. قال إننا بلغنا سن الرشد، وينبغي أن نشعر بالمسؤولية، كما هو الحال دائماً، يعتني الكبار بالصغار، وأنَّ هذا...

- دعنا نرسله إلى الأراضي الآمنة، قاطعه سانيتش، ماذا يفعل هنا؟ ألا تذكر كيف عثرنا على خمسة فتية صغار؟ وأعدناهم، لم يكونوا أكبر سناً منه.

- أنا لا أستطيع إرساله، هزَّ غليبوف رأسه، لديه أم... مسألة صعبة عموماً...

- إنه مريض تماماً، واصل سانيتش إقناعه، كتفه تطقطق، يعالجها بالطول وبالعرض، وهو في مستنقعاتنا يتسكع، ينبغي إرساله إلى مدينة عشق أباد...

جلس غليبوف على المقعد، ومدَّد ساقيه.

- أنت تحسبنا مربيات. تمتم سانيتش.

- سمِّها ما شئت، إنما نفِّذ المهمة. قال غليبوف.

- نحن في معسكر للفدائيين، تابع سانيتش، ولسنا في روضة أطفال، دع أَلِفْتينا تعتني به، لماذا نحن؟ نحن مقاتلون، أنت نفسك تعرف ذلك جيداً، وأنت تبتدع لنا... لماذا أرسلتنا من أجل الطائرة؟

- أي طائرة؟

- أي طائرة، أي طائرة! طائرة الشحن الألمانية، التي قيل إنَّها سقطت، بقينا نبحث عنها وقتاً طويلاً، ولم نجد لها أثراً. لقد فتشنا نصف الغابة.

- الطائرة موجودة، قال غليبوف وهو غارق في التفكير، ربما سقطت في المستنقع، لذلك لم تعثروا عليها. هذا أمر غير مهم، يمكنكما الانصراف.

- لكن ماذا عن أفريقيا؟ سأله سانيتش بوقاحة.

- أي أفريقيا؟ آه، عن أفريقيا... حسناً في المرة القادمة. انصرفا.

توجهنا نحو باب الخروج.

- مسألة شوريك أمر. أضاف غليبوف في أثرنا.

دقَّ سانيتش كعبيه ببعضهما.

استمرَّ تساقط الثلج. لاحت أمامنا كومة ثلج تحت شجرة تنوب، مرتفعة بشكل غير متوقع، ارتفاعها نحو مترين. أطلَّ شوري من وراء كثيبٍ ثلجي ملوحاً بيده.

- تعالا إلى هنا! صاح.

كزَّ سانيتش على أسنانه.

- هيا، تعالا بسرعة!

اقتربنا منه.

لقد بنى شوري بيتاً من الثلج.

- هل هذا مرحاض من الثلج؟ افترض سانيتش متسائلاً.

- هذا بيت للبطاريات. أجاب شوري بجديَّة.

تبادلنا النظرات.

- بيت للبطاريات؟ أومأ شوريك برأسه.

- هذه أوامر غليبوف، البطاريات تفرغ شحنتها بسرعة، ويجب تجميدها لمنع تفريغها.

ضحك سانيتش.

- ماذا؟ قطَّب شوري حاجبيه، أخبرني غليبوف أنكما سوف تساعدانني، ينبغي إنجازه بسرعة فائقة.

- عموماً، يا شوريك، البطاريات تفرغ شحنتها في البرد، وكلَّما اشتدَّ البرد، تفرغ بسرعة أكبر.

- هذه بطاريات جديدة، اعترض شوري بهدوء، أمريكية، أسقطوها بالمظلَّة، ينبغي أن تبقى في البرد طوال الوقت. تعالا، ساعداني...

- حسناً، بصق سانيتش، بيت بطاريات، فليكن بيت بطاريات.

بدأنا في بناء بيت البطاريات، تحت قيادة شوري، جمعنا الثلج على شكل كُرات، كما لو أنَّها لصنع رجل من الثلج، ثم رفعناها كوخاً مخروطي الشكل.

كان الجو بارداً في البداية، فكرت: لماذا؟ ثم أصبح الجو دافئاً وساخناً، فكَّرت. حسناً، لماذا كل هذا؟ ثم عاد الجو بارداً.

- لعل هذا يكفي، قال سانيتش، لقد أصبح جاهزاً، ما رأيك؟

- جيد، أشاد شوري بالعمل، ولكني... تجمَّدت قليلاً.

- إذاً. اذهب ودفئ نفسك.

- انكمش شوري، مثل عصفور دوري، واتجه إلى مخبئه، وهو ينظف سرواله على طول الطريق من خيوط الجليد العالقة به.

- انتظر لحظة!

توقَّف شوري.

- انتظر. كيف أحوال أَلِفْتينا هناك؟ سأله سانيتش.

- لا بأس، تحيك الجوارب. أنت... حسناً، بخصوص ذلك...

نفض شوري كُمَّه.

إنه يريد مسدَّساً، وعده سانيتش بمسدَّس والْتِر، لكنَّه لم يؤمنه له بأي طريقة، ما زال شوري يحلم به.

- أنت تتحدث عن المسدَّس؟ سأله سانيتش.

- لا، ببساطة...

- أنت في حاجة إلى مسدَّس والتِر كالذي يحمله الضابط؟ حقيقي، مع جعبته؟

- نعم...

- لا، طبعاً، إذا كان الأمر سيان لديك، فمن الممكن تأمين مسدَّس بارابيلوم...

هزَّ شوري رأسه.

- لا، أنا أريد والْتِر فقط!

- الضباط وحدهم يحملون مسدس والتِر، أوضح سانيتش، لكننا لم نقتل ضابطاً اليوم، لا حول ولا قوة، غداً سنقتل ضابطاً، أو ربما هذا الأسبوع، حسب الظروف.

- نعم... مفهوم، طبعاً.

اقشعر بدن شوري، فشدَّ قبعته بإحكام. كانت قبعة للرجال، لا تثبت على رأس صبي في سنِّ السابعة، لذلك كان شوري يشدُّها باستمرار، نتيجة لذلك، أخذت القبعة شكل بيضة: تدلَّت أذناها على كتفيه، فتمكَّن شوري من ربطها، وتثبيت النجمة الحمراء على قذاله تقريباً.

- ثق بوعدي، لا تقلق، أكد سانيتش، في شهر تشرين الأول ستأتي دفعة طازجة من ألمانيا، وهي تكفي للجميع.

- حسناً... تجمَّد شوري.

- أنت ترتعد من جديد؟! هل تعبت؟ تجمدت؟

- لا، أنا مريض فقط، كتفي تطقطق مرة أخرى، اسمع.

انحنى ممسكاً بكتفه اليسرى، ثم رفع يده، فبدأت كتفه تطقطق بصوت مثير للاشمئزاز: طق، طق، طق، طق.

- يكفي، يكفي! أوقفه سانيتش، تحتاج كتفك إلى معالجة، نعم، لكن لا تطقطقها. عموماً، لا تنشر الحطب بيدك اليمنى، بل انشره باليسرى، ستتحسن تدريجياً، إنما لماذا يداك ملطختان بالحبر؟ هل كتبت مرة أخرى؟

أومأ سانيتش باهتمام إلى أصابع شوري.

- حسناً، نعم، كتبت؛ ينبغي أن تصل الطائرة... لذلك قررت أن أكتب مرة أخرى.

شعر شوري بالخجل فجأة.

- لقد كتبنا أنا وآلكا هذه المرة، صحَّح كلامه، أنا كتبت كما يبدو، لكن خطها أجمل من خطي. إنَّها تهدر حبراً أقل، أما أنا فغالباً ما أترك بقعاً من الحبر، لا بأس، آ؟

- ما هو الجيد في البقع؟ تساءل سانيتش، إنه عار، كانوا يعاقبونني ويضربونني بالمسطرة على يدي بسببها.

- أنا لا أتحدَّث عن البقع، بل عن أنَّ آلكا هي التي كتبت، هل هذا مقبول؟

تظاهر سانيتش بأنَّه يفكر.

- لا بأس، ستتصل رسالتك.

- أظن ذلك. ربما الرسائل السابقة لم تصل بسبب الخط؟

- تماماً، وافق سانيتش، ببساطة لا وقت الآن لقراءة الشخبطة، ثمة أشياء أخرى كثيرة الآن، هيا اذهب واشرب شيئاً ساخناً.

- نعم، تعالا مساء.

- دعنا نفكِّر... هيا انطلق.

كزَّ سانيتش على أسنانه.

انحنى شوري، وطقطق كتفه، ثم اختفى بين أشجار التنوب، لقد كان متمرساً به، وأظهر مهارته بطريقة ما؛ تراه يمشي في الغابة أمامنا على بعد نحو عشرة أمتار، يقول شيئاً ما، ويلوح بيديه، ثم فجأة يختبئ في الأماكن المنبسطة، إما أن يختبئ وراء شجرة، وإما أن يغطس وراء نتوء، أو يدفن نفسه بين الطحالب، لا أحد يعرف كيف. لديه ملابس مناسبة لذلك: معطفه ممزق وملطَّخ بالوسخ. سألته مرة أين تعلَّم فن التخفي، لم يجب شوري، وهزَّ سانيتش رأسه.

عدنا إلى مخبئنا، أشعل سانيتش الخرطوشة، وتوليت أنا شأن الموقد، فأشعلته في دقيقة واحدة، الآن يمكنني إشعال الموقد بعينين مغمضتين وبسرعة كبيرة، غليت الماء بسرعة، وأضفت إليه نوعاً من الثمار الحامضة والتوت البرِّي المجفَّف مناصفة، فهذا أفضل من الجزر، مع أنه يمكن إضافة الجزر أيضاً، لا سيما عند الشعور بالجوع.

- أستغرب لماذا غليبوف مشغول بهذا الصبي شوري، آ؟ سألني فجأة سانيتش، ليأمرني بالاعتناء به، بالمناسبة هذه ليست أول مرة يطلب ذلك، دعه هو يعتني به.

- نعم، إنه يعتني بالجميع، أجبته، لقد اعتنى بي أيضاً، هل تذكر لما كنتُ مريضاً؟ كان يعودني كلَّ يوم، يراقب صحتي، إنَّه القائد، هذه واجباته.

- نعم، هكذا يجب...

صبَّ سانيتش الشاي في كوبين.

- ربما هو ابن شخص يهمه؟ تساءل سانيتش، أي ابن جنرال ما؟

- لا، لو كان ابن شخص ما، لكانوا أرسلوه إلى المؤخرة منذ زمن بعيد، إنَّه لقيط، ربما يذكِّر غليبوف بابنه، هذا كل شيء.

- ربما.

أخذنا نشرب الشاي. بصراحة لقد مللت من الشاي، مللت من ثمار البر المجففة، والتوت البري، والزبيب، وأنواع الفطر، وجذور الهندباء، والبابونج... وغير ذلك من الأعشاب المختلفة الأخرى. سابقاً كنت أظنُّ أن الشاي يصنع فقط من الشاي، إنما اتضح أنه يمكن تحضيره من مجموعة متنوعة من النباتات التي تبدو غبية. أشربه دائماً، أشربه بدلاً من الفطور، بدلاً من الغداء والعشاء، وبينهما أيضاً. أنا أكره الشاي، ولن أشربه مرة أخرى، سأشرب الحليب، والمياه الغازية، وعصير الليمون...

- ربما يكون ابن صديقه، قال سانيتش، لقد قاتل غليبوف في إسبانيا، سافر إلى هناك متطوِّعاً، وشارك في الحرب الفنلندية، لديه كثير من الأصدقاء، ها هو ذا يحتضنه باستمرار. لماذا لا تشرب الشاي؟ مللت منه؟

- مللت. اعترفت له.

- لا بأس، قريباً ينبغي أن يوزعوا الحصص التموينية، سيكون بينها شاي حقيقي، وكراميل، أنا مللت أيضاً، إنما يجب أن نشرب.

- لماذا؟

- لأننا اليوم بنينا بيت بطاريات، وذهبنا نبحث عن الطائرة. اشرب.

أخذت أشرب، أخذنا نشرب بصمت.

بعدئذ أخرج سانيتش حذاءه وشرع ينظفه. حذاء بعنق حقيقي، لست أدري كيف حصل عليه، وأنا، على أي حال، لم أر شبيهاً له لدى أي واحد من جماعتنا. نظفه بالسخام، ثم باستخدام شرائح جلد حيوان، وبعد ذلك أسال الشمع وفركه به جيداً حتى صار يلمع.

- كيف؟ حدَّق سانيتش في حذائه.

- رائع. هل دعوك؟ ليس شوري، بل أَلِفْتينا. لم يجب سانيتش.

- هيا نذهب، يعني سنذهب، قال بعد هنيهة، سواء دعونا، أم لا، لدي هدية، ماذا أفعل بها؟ هل أنتظر سنة أخرى؟ لن نكون هنا بعد سنة.

- لماذا؟

- ستنتهي الحرب، شرع سانيتش ينتعل حذاءه، ربما لن تنتهي تماماً، لكنها بالتأكيد ستتجه غرباً، ونحن سنتبعها، ماذا سنفعل هنا؟ غذينا البعوض بما يكفي. انظر ماذا أعددت.

أخرج سانيتش من أسفل سريره الخشبي صندوقاً من الصفيح مصنوعاً يدوياً، وملحوماً بعدة قطع من القصدير، له قفل كخزانة الفولاذ، فتَّش عن المفتاح فترة طويلة، ثم بصق، أخيراً فتحه بمسمار، وتناول منه طائراً أحمر منحوتاً من الخشب.

- لقد نحتُّه بنفسي، قال سانيتش، منذ زمن، هدية لعيدها السابق... ولم أفلح لسوء الحظ.

- ما هذا؟

- بجعة، على الأرجح، كنت أرغب في نحت بجعة، لكنها تبدو مثل إوَزّة، ينبغي أن تجلب السعادة.

- لماذا لونها أحمر؟

- لأنَّها تطير مع غروب الشمس، أوضح سانيتش.

لقد أدركت أنَّه فكَّر بهذا التفسير منذ فترة طويلة.

- إوَزَّة في غروب الشمس...

- في الحقيقة، لم يكن لدي أي طلاء آخر، حقاً لم يكن لدي أي طلاء، حتى الأحمر أيضاً لم يكن متوفراً لدي، فصبغتها بمنقوع البصل، حسناً، مثلما يصبغ البيض.

ناولني سانيتش الإوزة بلطف.

بدت منحوتة بأناقة ودقة، من الواضح أنَّه بذل جهداً طويلاً؛ لتبدو مصقولة فعلاً، وسطحها أملس.

- رائعة. مدحتها.

- نعم رائعة. لقد أردت إخفاء رسالة تحت جناحها...

هبَّ سانيتش مستديراً، وأدخل خنصره في أذنه، ثم راح يدوره، وهو يتمتم.

رسالة.

- لمن كتب شوري الرسالة؟ سألته بفضول، يبدو أنَّه لا يوجد لديه أي شخص باستثناء آلكا.

- إلى ستالين، لمن غيره؟

- إلى ستالين؟!

- نعم.

- لماذا؟ لم أفهم.

- كيف لماذا؟ تفاجأ سانيتش بدوره، الجميع يكتب له، وأنا أيضاً كتبت له رسالتين العام الماضي، واحدة لم تصل بالتأكيد، فقد أسقط الألمان الطائرة، أما الثانية، فربما وصلت.

- ماذا كتبت له؟

هزَّ سانيتش كتفه.

- نحن جميعاً هزمْنا العدو، ونثق بالنصر، وبأنَّ كل شيء على ما يرام. لا يمكنك كتابة أي شيء زائد في مثل هذه الرسالة، كما تعلم. بداية كتبتها بأسلوب معقَّد، وضمَّنتها مختلف أنواع الترَّهات... ثم أعدت كتابتها بأسلوب إنساني عادي. لماذا أنت لا تكتب؟

- لا أعرف لماذا.

- اكتب، نصحني سانيتش، ربما إلى ستالين، أو كالينين، أو ببساطة، هل بقي لديك أقارب؟

- لا أعرف.

كانت لدي، كما أذكر، عمة في نوفوروسيسك تسكن بجوار البحر، إن لم تخني ذاكرتي.

- حسناً، اكتب إلى جندي ما، هكذا يفعل الجميع. الجنود في الخنادق أحوالهم سيئة، بينهم أشخاص لا أحد يكتب إليهم رسائل، كثيرون ذهبوا من دور الأيتام إلى الحرب، سيشعرون بالراحة إن تلقوا رسالة، وأنت ستشعر بالراحة أيضاً، صدقني.

أنا لم أفكر في ذلك، ربما أكتب فعلاً؟ طبعاً، ليس واضحاً ماذا سأكتب إلى شخص غريب... من ناحية أخرى، وصلتنا حصص تموينية من مؤخرة الجبهة، وجدت فيها رسائل أيضاً؛ في الحقيقة لم أستلمها، إنما سانيتش عثر عليها في قفازات، كتبت له امرأة من تشيليابينسك.

- اسمع، يا ميتكا، أرسل رسالة إلى كوفالِنْس، همس لي سانيتش، يمكن ترتيب هذه المسألة، على ألا تكون الرسالة باسمك، إنما باسم فتاة، تريد أن تتراسل مع بطل، هكذا عموماً. خطُّ يدك مستدير وأنيق، مناسب تماماً.

- لماذا؟

- سيكون الأمر مضحكاً، سوف نكتب له أن الفتيات يعشقن حاملي الأوسمة، ونسأله إن كان لديه وسام، أما هو فسوف يبدأ في الكذب علينا. سيقول إنَّ لديه أكثر من وسام، ثم نقرأ رسائله أمام الجميع... لقد حدثتك كيف تداوى من البواسير؟

- لا. إنما...

مرَّ الوقت سريعاً، لم يعد لدى سانيتش الوقت الكافي للحديث عن البواسير.

- حان الوقت!

نهض سانيتش مندفعاً، وطقطق بكعبي حذائه، ودس إبهاميه تحت حزامه، ونفش شعره.

يبدو مميزاً، لا يمكنك التعليق، كأنَّه هارب من فيلم عن سائقي الجرارات. طبعاً، منظري إلى جواره غير مناسب عموماً من دون حذاء...

- لا تعجبني تصفيفة شعري... نظر سانيتش إلى وجهه في قطعة من مرآة، إنَّه يشبه كوفالِتْس إلى حد ما...

هزَّ رأسه، فتغيَّر تصفيف شعره، وبدا راضياً.

- الآن، دعنا نذهب.

- هيا، وافقت.

مضينا إلى الزيارة. لم تكن المسافة إلى مخبأ ألِفْتينا بعيدة؛ نحو عشرين متراً تقريباً، لكنَّ وصولنا إلى هناك استغرق وقتاً طويلاً، لأن سانيتش لم يمض قدماً مباشرة، إنما تجول عبر المخيم بأكمله تقريباً: مررنا أمام مخبأ القيادة، فمستودع الأسلحة، وورش الصيانة، كأننا، عموماً، في رحلة استكشافية حول العالم، تمكَّن سانيتش خلالها من إطلاعي على عادات أخته ليدا السيئة، فقد كانت مدمنة على التصفير عبر فتحة أنفها اليسرى بطريقة مقرفة، أما هو فلم يستطع تعلُّم ذلك، وكذلك أطلعني على طرق صيد جراد البحر باستخدام فأر ميت وخف مصنوع من الألياف، وكيفية تحديد مكان البئر المناسب بدقة، وأيضاً كيفية التمييز بين الفطر الصالح للأكل، والفطر السام، بالإضافة إلى كومة كاملة من المعلومات المفيدة جداً والضرورية للغاية للحياة. كنت قد بدأت أتجمد قليلاً، فاصطكَّت أسناني، ورحت أفكر في العودة إلى مخبئنا، لكن سانيتش قرر المضي أخيراً، وانطلق في اتجاه ألِفْتينا.

عند مدخل المخبأ، نفض الثلج عن حذائه، وتنحنح متصنِّعاً، ثم طرق الباب.

- مفتوح. أجابت ربة المخبأ.

دخلنا بسرعة، كي لا يدخل تيار الهواء البارد إلى الداخل.

مخبأ أَلِفْتينا يختلف كثيراً عن مخبئنا. لا، المخابئ جميعها مبنية بالطريقة نفسها تقريباً: موقد قرب المدخل، مكان للنوم بجوار الموقد، ونافذة صغيرة للإنارة، ما تبقى كل شخص وما يستطيع؛ ثمة من عنده طاولة حقيقية، وآخر لديه كرسي صنع يدوياً، وآخرون لديهم ألواح أحضروها من مكان ما، ثبتوها على السقف، وحتماً ثمة مكان للطبخ مبني يدوياً من أحجار مطلية بالطين، وعادة ما توضع عليه مدخنة معدنية. وفي عدد من المخابئ توجد مدافئ حديدية صغيرة مصنوعة في المعامل.

المدفأة عند أَلِفْتينا شيء ما وسط: بلاطتها وبابها من الفولاذ الصبِّ، وجدرانها ومدخنتها من الآجر، مصنوعة يدوياً، واشتعالها جيد، لقد بدا المخبأ دافئاً من الشارع. عموماً المخبأ مرتب جيداً، وأدفأ من الكوخ، لا توجد فيه نوافذ عادية، لكنك تعتاد عليه بسرعة، فضلاً عن أنَّ المنزل الذي له نوافذ متعدِّدة غير مريح.

- مساء الخير. حيَّاها سانيتش باحترام.

هزَّت رأسها. كانت تجلس إلى جوار الموقد، تقرأ رواية «النفوس الميتة»: إنَّه كتاب مضجر جداً، حتى وأنت تقرأه في يوم مشمس، فكيف في مخبأ مظلم...

ابتسمت أَلِفْتينا، ربما كانت تقرأ الفصل الذي يدور فيه الحديث حول نوزدريف، وكيف كانوا يلعبون لعبة الداما، أنا أحبُّ هذه الصفحات.

- أتينا لزيارتك، ابتسم سانيتش، هل تطردينا؟

- طالما أتيتما لزيارتنا تفضلا، هزَّت أَلِفْتينا كتفها، اجلسا هناك...

الكراسي ملتوية ومشوهة، صنعها شوري بيديه، ولأنَّ المسامير عندنا غالية، تُحْبك الكراسي بحبال من قشر شجر الصفصاف، وهذا ما فعله شوري. كانت الحبال رخوة، فتقوَّست الكراسي، وصارت تتأرجح بشكل خطير.

جلسنا، فقربت الكرسي إلى الحائط لتأمين استناد أفضل.

قرَّب شوري المنضدة، ووضعت أَلِفْتينا عليها سماوار أسود صغيراً، يشبه بيضة مفلطحة، وكؤوساً في حاضناتها سوداء كالسماوار، كما وضعت خبزاً أسمر مقطَّعاً في صحفة خشبية منجَّرة، عليه قليل من السُكَّر. حقاً، شيء يشبه عيد الشفيع.

- تفضلا، كُلا، أيها الضيفان العزيزان، أعلن شوري، وكان أول من جلس حول الطاولة، وانقضَّ على الخبز بشراهة.

لم تجلس أَلِفْتينا إلى جوار المنضدة، بل ظلَّت جالسة على أريكة الخشب، في حين جلست أنا وسانيتش حول السماوار. تبين أن الشاي مع البابونج ونبات بريٍّ آخر، كان الخبز لذيذاً تماماً، شرعت أشرب، وأنتزع حواف قطعة الخبز على مهل.

راح سانيتش يتمعَّن في كأسه بصمت، وشوري يمزمز الشاي، ويقضم كثيراً من السُكَّر، في حين انشغلت أَلِفْتينا بحياكة وِشاحٍ، أو جوارب. عندي فضول لأعرف كيف تحصل على الصوف؟

خيَّم الصمت.

كلٌّ ذلك بدا غبياً فصمتنا: من الواضح أن أَلِفْتينا لا تحتفل اليوم بعيد أي قديس، أو اسم، وإذا كانت تنوي الاحتفال، فهي بالتأكيد لم توجه لنا دعوة. بدأت نار الحطب تغرغر في الموقد، وضجَّ السماوار الأسود، ثم توقف عن الضجيج من تلقاء نفسه. كرع شوري ثلاثة كؤوس من الشاي، وشعر بالملل، فاندس تحت معطف من فرو الضأن، وراح يحزق من هناك.

- كل العلامات تدلُّ على أن الشتاء سيكون بارداً، بدأ سانيتش، فقد صدحت الغرانيق؛ هذا أولاً، وتجمَّدت البرك في شهر آب؛ هذا ثانياً.

- شوري مدَّ يدك.

مدَّ شوري يده إلى أَلِفْتينا من دون أن يظهر من تحت معطف فرو الضأن، فألبسته القفاز مع صنارات الحياكة؛ إنَّها تحيك قفازات.

- من شَعر الكلاب؟ سألها سانيتش سؤال الخبير، هذا هو المطلوب، لدي...

- من الشعر العادي. صحَّحت أَلِفْتينا.

-آسف، هذا يعني أنَّه من الجيِّد أن تعثري الآن على صوف عادي أيضاً. هل سمعتم بـ هيرينغ؟ حصاننا؟

الجميع يعرفون قصة هيرينغ، لكن سانيتش أومأ برأسه إلي، فقلت:

- لا، طبعاً، ما هي قصة هيرينغ؟

راحت آليا تحكُّ أنفها.

- حسناً، سأخبركم حالاً، جرع سانيتش نصف الكأس دفعة واحدة، ثم سعل، وتابع حديثه:، كان مجرد حصان، بلا اسم، ليس معروفاً من أين أخذه ليكوف، لكنَّ غليبوف كان في حاجة إلى حصان في ذلك الوقت، فلقد التهمنا حصانه في أيام المجاعة. تبين أنَّ هذا الحصان قوي، سواء مع غيره، أو تحت السرج وحده. بدأوا يروضونه، لكنه بدا غبياً لا يتجاوب، ولا يفهم شيئاً، ذات مرة قال كوفالِتْس له لسبب ما: «خندي خوخ»، فشنف الحصان أذنيه وحرَّكهما على الفور. حسناً، حينئذ شككنا في أمره؛ حصان كغيره من الأحصنة لا يمكن تمييزه من بينها: أذناه، وذيله، وكل شيء مثلما ينبغي، وكذا حوافره. كما أنه فاشي أيضاً، لا يفهم أي شيء باللغة الروسية، فاضطررنا إلى إعادة ترويضه مدة شهرين. في البداية أردنا تسميته هتلر، لكنَّه لم يرد على نداءاته «هتلر» بأي شكل من الأشكال، إنما تجاوب مع نداء هيرينغ على الفور، ربما كان اسمه هيرينغ سابقاً، هذه هي القصة، ألم أقصُّها عليكم؟

هزّت أَلِفْتينا كتفيها، أما شوري فتمتم:

- قال كوفالِتْس إنَّ الحصان ببساطة أصم، هذا كل شيء، إنه مدفعي، وليس ألمانياً؛ عنقه مصقولة بفعل جرِّ المدفعية، وقد أصيب بالصمم في المعركة.

- أجل، أجل، وافق سانيتش، كانت في مدرستنا معلِّمة جغرافيا صماء، مثل هذا الحصان، لذلك كانت تحمل معها بوق الغراموفون، ذات مرة خبأنا فيه فأراً...

- هل يمكنك، مؤقتاً على الأقل، ألا تروي هذه القصص الغبية؟ سألته أَلِفْتينا.

- إنها ليست غبية، إنها مضحكة... اعترض سانيتش بهدوء.

- تبدو لك مضحكة، لكنَّها في الواقع غبية.

- لا، ليست غبية، فهي تضحك الجميع... همس سانيتش تقريباً.

- يضحك الجميع مجاملة، كي لا يسيئوا إليك، أنت بطل.

لسبب ما، كانت غاضبة قليلاً، ربما بسبب ضيق المكان، ما إن دخلنا المخبأ حتى أصبحنا عاجزين عن الحركة أو الالتفات، أو ربما بسبب الحصار؛ كلُّ من عانوا من الحصار سريعو الغضب، هذا أمر مفهوم؛ كاد الجميع يموتون هناك، وها هم يموتون الآن. يبدو أنَّ لأَلِفْتينا أمَّاً هناك.

أما رأيها بالقصة فهو عبثي، لو لم يروِ لنا سانيتش القصَّة، لكان الأمر أسوأ بكثير، أنا لم أقابل سابقاً مثل هؤلاء الأشخاص القادرين على سرد قصص مضحكة.

- لدي لك هدية. قال سانيتش بخجل.

- أوه... راحت أَلِفْتينا تنظر إلى السقف.

ظننت أنَّها لم تتجاوز السابعة عشرة من العمر، ففي سنِّ السابعة عشرة، يزداد الناس حبَّـاً وسعادة بالهدايا، لا سيما الآن، في مثل هذا الوقت.

- هدية، كرَّر سانيتش بإصرار، لقد صنعتها بيدي.

أخرج سانيتش حزمة من الكيس، لقد تفنن في لف الإوزة البنية بأكملها بورق المحلات التجارية، وأحكم إغلاقها، وحشاها بالشحم. طبعاً، التأمت واشتدَّت الحشية بالشحم، مما اضطر سانيتش إلى كسر أظفاره، من دون أن يستطيع فكَّها، فلجأ إلى أسنانه.

تذمَّرت أَلِفْتينا.

لم تسعفه أسنانه أيضاً، الشحم جامد تماماً، لذا صنع ثقباً فـي الورقة، وسحب الإوَزَّة عبره.

- مبارك.

ناول سانيتش أَلِفْتينا الهدية.

- شكراً. أخذت الطائر.

- هذا طائر السعادة، أوضح سانيتش، ينبغي تعليقه في السقف، إنه يجلب الحظَّ.

- كم نفتقر إلى الحظَّ، قالت أَلِفْتينا، حقاً شكراً.

لست أدري، ربما تراءى لي أنَّها أعجبت بالهدية. عموماً، نادراً ما لا يعجب أحدٌ بالهدايا؛ ينبغي أن يكون أحمق تماماً من لا يعجب بالهدية.

- هاتيها. انتزع شوري الإوزة من أَلِفْتينا.

وراح يتفحَّص الهدية بدقَّة من جميع جوانبها، ويجرِّب بظفره جودة الطلاء، والورنيش، وينقر الطائر على رأسه.

- تشبه طائرة الـ «يونكرز»[18]، قال شوري، إنما من دون ذيل.

قام شوري على الفور، وقلَّد الإوزة؛ طائرة الـ «اليونكرز»، ثم زعق بحدَّة، وانقض على السماوار، وهو يرفرف فوقه بجناحيه.

- حسناً، يكفي! صرخت أَلِفْتينا، لقد انفلقتَ من الصراخ!

صحيح تماماً، لقد أحسن شوري التقليد، فـ«اليونكرز»، تُصدِرُ صرخة رعب، تسبب القشعريرة في الظهر.

- حقاً، أنا ببساطة... جلس شوري على الأريكة الخشبية ممسكاً الهدية، ببساطة، شكراً لك يا سانيتش.

سُمع طرق على الباب، فارتعش خد سانيتش بعصبية.

- ادخل، لم تتوقَّف أَلِفْتينا عن الحياكة.

دخل كوفالِتْس، مبتسماً، أنيقاً، واثقاً من نفسه، بل ومتألِّقاً.

- آه، ما أروع هذه اللقاء الدافئ! صفَّق كوفالِتْس بكفيه، من أرى، يا مرحباً! قشر الخشب، وممسحته!

يعني أنا ممسحته.

- كنا ننتظرك، أجابه سانيتش على الفور، تحدثنا كيف تعاملت مع الخيول، وضحكنا جميعاً: ها ها ها ها!

وكزني سانيتش في خاصرتي.

- ها ها ها ها. رددت.

انهمكت أَلِفْتينا في الحياكة بسرعة أكبر، وراحت الصنارات ترن، والبخار الأسود ينبعث من السماور، في حين ركَّزت أنا جلستي بشكل أفضل على الكرسي غير المستقر، يبدو أن الجلسة لن تكون مملَّة.

جلس كوفالِتْس مقابل سانيتش، ومدَّ ساقيه. كان حذاؤه يلمع أيضاً، وجدت نفسي وسط أحذية لامعة، فتمنيت أمنية.

- أي طقس هذا، أ؟ قال كوفالِتْس بمرح، كرات الثلج تتساقط، سيكون الشتاء بارداً.

- أتظنُّ ذلك؟ سألته أَلِفْتينا.

- طبعاً، حسب جميع الدلائل.

- أمر سيئ... تنهَّدت أَلِفْتينا.

- لا تقلقي، قال كوفالِتْس، الحال هناك الآن أفضل بكثير، لم يُحكموا إغلاق الطوق تماماً، وطريق الحياة يؤدي دوره، كما نُظِّم جسر جوي، سيكون هذا الشتاء هو الأسهل. عموماً، سيفكُّ الحصار بحلول الربيع، هذا أمر مؤكَّد.

- حقاً؟

- بالتأكيد، وسيخرج الناس من هناك يومياً، عبر لادوغا، وعن طريق الجو، لا تقلقي.

فركت أَلِفْتينا جبهتها.

- أنا أيضاً، سمعت عن ذلك، قال سانيتش، بحلول الربيع، سيفَكُّ الحصار، وستتوفَّر المواد التموينية، ألا تذكر، يا ليخ، القافلة التي أُدخلت؟

تثاءب كوفالِتْس.

- ما هذا الفن الشعبي؟ أومأ برأسه باتجاه هدية سانيتش، ناولني هذه الإوزة / البجعة.

انتزع كوفالِتْس الطائر من يد شوري، وراح يتفحَّصه. سمعت بوضوح كيف صرَّ حذاء سانيتش، كان يضع يديه على المنضدة، وحذاءه يصرُّ تحت وطأة الغضب، لا بدَّ أنَّ كوفالِتْس بطبيعة الحال سمع ذلك أيضاً.

- قشر الخشب، على الأرجح، هو من نحته، أوقف الطائر باستخفاف على حافة المنضدة، لا بأس بعصفور الدوري، عادي. فكرتك صحيحة، يا قشر الخشب، الطقس البارد يقترب، والثلج يتساقط، ربما يحدث نقص في الحطب.

لاذ سانيتش بالصمت.

- لكنَّه أعجبني، قال شوري، إوزة جيدة، سأعلِّقها في السقف.

- حسناً، حسناً. ضرب كوفالِتْس على ركبتيه، وصرَّ حذاؤه أيضاً.

ليتهما يؤلِّفان ثنائياً معاً يسمَّى «عزْف النعال»، ويقدمان في القطعات العسكرية حوارات ثنائية من الغناء الساخر مع صرير أحذيتهما.

- أنا، أيضاً، أحمل هدية صغيرة، نهض كوفالِتْس بحركة استعراضية عن مقعده.

منذ فترة طويلة لاحظت وجود أناس استعراضيين، إنَّهم موجودون، لكنَّهم قلة. ها هو ذا كوفالِتْس شخص استعراضي، يتحكَّم بحركته كما لو أنَّه يخطب على المنصَّة. سانيتش ليس خبيراً مثله، ربما يتعلَّم مع مرور الزمن.

سحب كوفالِتْس من عبِّه منديلاً كبيراً أسود، تزينه ورود حمراء وخضراء وصفراء، نفضه، وناوله لألِفْتينا.

- آها. لم تقل شيئاً آخر.

وضعت أدوات الحياكة جانباً، ثم نهضت، وبدت محرجة قليلاً.

- من أين حصلت على هذه التحفة الساحرة؟!

- نعم، هكذا عثرت عليها... هل أعجبتك؟

- طبعاً.

حان وقت خروجنا، واضح أن وقت الخروج قد حان، وشاحٌ واحد مثل هذا يفوق أربعين طيراً، حتى لو كانت تطير نحو غروب الشمس.

تناولت ألِفْتينا الوشاح، ولسبب ما غمرت به وجهها، ثم ألقته على كتفيها.

- لا بأس. أبدى شوري رأيه.

- صنع في بافلوفسكي، حقيقي. قال كوفالِتْس بفخر.

- شكراً. حاولت ألِفْتينا رؤية صورتها في الجانب المصقول من السماوار.

- وشاح جميل، قال شوري باحترام، غالٍ...

مدَّ كوفالِتْس ساقيه مرة أخرى، واحتلَّ بطريقة ما معظم المخبأ من حيث لا يدري، فشعرت بنفسي أنني زائد أكثر مما ينبغي.

- لماذا أنت سعيد إلى هذه الدرجة؟ التفت سانيتش إلى كوفالِتْس، هل فجَّرت قاطرة؟

- اثنتين، أجابه كوفالِتْس مبتسماً، ولماذا أنت غاضب إلى هذه الدرجة؟ هل فشلت في نحت لعبة بوراتينو؟ أومأ كوفالِتْس إلى الطائر الخشبي.

واصلت ألِفْتينا فحص المنديل، قاسته، وألقت به على كتفيها وعلى رأسها، ونظرت إلى السماوار. منديل رائع، غالي الثمن، من الصعب العثور عليه في الأوقات العادية، أما الآن...

- أنا...

- بهدوء، قاطعه كوفالِتْس، لا داعي للكلمات الزائدة، يا قشر الخشب، أفضل لك أن تذهب، وتنحت قطعة خشب.

نهض سانيتش.

- كانت جلستنا رائعة، حتى ظهر الأحمق. قلت أنا.

كنت خائفاً، لم أتخاصم يوماً مع كوفالِتْس. عموماً لم أتشاجر مع أحد، يا للغرابة، وخاصة مع الأكبر سناً.

- يعني، أنت تعلَّمت الكلام؟ حدق كوفالِتْس في وجهي، ما اسمك، لقد نسيت؟ قُلامة ظفر؟ بثرة؟ نشافة؟

- أنا...

- قُلامة، قال كوفالِتْس، هكذا إذاً، يا قُلامة، اسمعني جيداً...

- اسمه دميتري، قال سانيتش بوضوح، لعلك نسيت.

- دميتري؟ تفاجأ كوفالِتْس، لم أكن أتوقع، لم أكن أتوقع... إذاً، دميتري قُلامة، أنت تجيد النطق؟ مرحباً.

مدَّ كوفالِتْس يده لي، ولسبب ما صافحته، فكرهت نفسي على الفور: هو يبصق في وجهي، وأنا أصافحه!

- لا يكاد عدد العناصر في معسكرنا يتجاوز خمسين شخصاً، وأنت لا تعرف سوى أسماء القادة، قال سانيتش بشيء من التهديد، في حين، بالمناسبة، كان القائد سوفوروف يعرف جميع جنوده بالنظر.

- إذاً، هذا يعني أنك أنت سوفوروف لدينا، قال كوفالِتْس باحترام، لم أكن أعرف، أنا آسف، يا سوفوروف... ولكن سوفوروف الصغير، أليس كذلك؟

- يبدو أنَّك لا تحبُّ سوفوروف؟ سأل سانيتش باكتئاب، ربما أنت تحبُّ قادة الجيش الآخرين؟ غوديريان، على سبيل المثال؟

سعل شوري تحت معطف الفرو القصير، وأخرج رصاصة مسدس، وبدأ يدحرجها بين أصابعه، سانيتش هو من علَّمه ذلك، أخبره أنَّ ذلك يطوِّر الثبات والمثابرة، من دون ثبات ومثابرة لا يمكن الصمود في الحرب بأي شكل من الأشكال. كانت الرصاصة تتراقص على أطراف راحته الزرقاء، فيلقيها ببراعة في اليد الأخرى، وبالعكس، ثم يتركها تتراقص مرة أخرى، تمكَّن أحياناً من النقر فوق الرصاصة بأظافره كي ترنَّ.

- إلامَ تلمِّح؟ حاول كوفالِتْس سحب ساقيه غاضباً، لكنّ الأثاث الذي صممه شوري خانه تماماً، فاضطر إلى تقويم ساقيه مرة أخرى، أجِّلْ ألفاظك واخفها، وإلا يمكن أن تفقد حنكك حقاً...

- أنت من يحبُّ التأجيل، أجابه سانيتش، خاصة وقت الهجوم، تنتظر ريثما ينطلق الآخرون، ثم تهرع مسرعاً. هل تعلمين، يا أَلِفْتينا، عندنا قول مأثور في المعسكر: أسرع مثل كوفالِتْس...

لم يعد بإمكان كوفالِتْس تحمُّل هذا، وقام بحركة حادة غير حذرة، فانهار الكرسي تحته، وتفرَّقت قوائمه، وسقط على الأرض، ثم انقلب فجأة على جانبه، فسقطت من جيوبه قارورتا عطر صغيرتان، وعلبة تشبه علب البودرة.

- يا لَأدوات التجميل التي عندنا هنا... قال سانيتش، إنَّها تكفي فرقة عسكرية كاملة! عن أي سوفوروف يمكن الحديث...

- حسناً، يكفي أيها الوغد! جمع كوفالِتْس أشياءه بسرعة، يكفي أيها الدابة...

- فقط لا تبكِ، رجاه سانيتش، اليوم لم أحضر معي أي محارم باتيستا...

وثب كوفالِتْس على قدميه، وصرخ شوري، مسقطاً الخرطوشة، أما أنا فاقتربت من الباب.

- انصرف. قالت أَلِفْتينا بهدوء.

- هو الذي بدأ أولاً، قال سانيتش فجأة بطريقة صبيانية تماماً، إنَّه يتحرَّش بالجميع دائماً.

- انصرف. كررت أَلِفْتينا.

انصرف، انصرف. أضاف شوري.

ألقى سانيتش نظرة على كوفالِتْس، لم يكن ينوي المغادرة، بل على العكس، فقد فتح من شدَّة الحرارة ياقة سترته، وأخرج منديله الكبير ذا المربعات، لكنَّه لم يمسح به العرق عن جبينه، بل راح يدعكه بأصابعه، ولم ينظر إلينا.

- حسناً، يا ديم، دعنا نذهب، قال سانيتش، ثمة شيء ما حارٌّ جداً هنا، رأسي يؤلمني.

لم يتمسكوا بنا.

خرجنا إلى الشارع، فقبض سانيتش كتلة ثلج عن سطح المخبأ، وراح يقضمها.

- دعنا ننتظره، اقترحت عليه، نضربه ضرباً مبرحاً، فليعرف.

هزَّ سانيتش رأسه.

- نضربه ضرباً مبرحاً، كررت أنا، لن ينهض غداً من سريره!

- اذهب أنت الآن، قال سانيتش، إلى مخبئنا، أنا سأتنفس هنا.

- ربَّما...

- سأتنفس قليلاً، أما أنت فاذهب، هيا.

لم أجادله.

كان المخبأ قد برد، استغرق إشعال الموقد وقتاً طويلاً، ثم سخَّنت الغلاية. غير أنَّ سانيتش لم يعد، راحت الأفكار المختلفة تتلاطم في ذهني، هكذا إذاً، الآن سوف ينتظر كوفالِتْس، ويتحدث إليه، ثم ضربة واحدة بسكين في حلقه، أو طلقتي مسدس في رأسه، بالمختصر سوف يقتله، ثم ينتظر المحكمة...

فكرت، وفكرت، فتملَّكني الخوف، وصعدت إلى الخارج.

وجدت سانيتش جالساً على الثلج، تحت شجرة، بلا قبعة، أردت أن أقول له إن كوفالِتْس نذل تماماً، ولا يستحقُّ أن تخرب حياتك من أجله، لكنَّ سانيتش اكتفى بأن لوَّح بيده، وهزَّ رأسه.

لم يكن ينوي قتله، هذا ما فهمته، فعدت إلى مخبئنا.

ألِفْتينا حمقاء، حمقاء بالتأكيد، وسانيتش أحمق، ذهب حاملاً هذه الإوزة، كان يعلم أن كوفالِتْس سيأتي ومعه هدية غالية بالتأكيد، فما الداعي لهذه الإوزة...

بدأ الإبريق يغلي، تناولت علبة فيها خليط أعشاب، ففاحت رائحة الصيف، يا له من يوم حرج، حسنٌ أنَّه شارف على الانتهاء. لقد أصاب سانيتش حين قال: لا خير في يوم يهطل فيه الثلج الأول، نكاد نفقد عقلنا.

الفصل الخامس

ثمة طفل يسير فـي الحقل. يحمـل سلةً وسيخَ سبْر، يجمع زنـابق الثلج والبطاطا. لقد سقط الثلج الأول وذاب، فظهرت حبَّات البطاطا الباقية في الأرض.

- هل نسأله؟ أومأت برأسي باتجاه الولد.

- لا، لن نسأله، قد يكون حفيد المختار؟ ينبغي التخلُّص من السلاح بطريقة أخرى.

- في كل الأحوال نحن نسير فارغي الوفاض...

- ومسدَّس والتر؟

كيف لاحظ؟ لقد خبأته عميقاً في السترة المبطنة، تحت الإبط الأيسر، حتى لمسه غير ممكن، لكنَّ سانيتش، طبعاً رآه، أو عرف به.

- فليسقط السلاح، قال لي، إذا عثروا عليه، فسيقتلوننا فوراً، من غير كلام.

أخرجت مسدسي، في حين أخرج سانيتش مسدسيه الاثنين والطلقات وقنبلة يدوية، ثم وضعنا ذلك كلَّه فـي كيس من القمـاش، وربطنا عنقه، وأخفيناه في الثلج تحت شجرة بتولا ذات جذعين.

- لا يزال أمامنا ثلاثة أيام من التخبط في الوحل حتى نصل إلى المطار، قال، وربما أربعة في هذا الطقس. الأفضل قضاء الليل بشكل طبيعي، وسيكون لدينا مزيد من الوقت كي تتجمد عظامنا مئة مرة أخرى. حسناً، إننا نعمل متشردين كالعادة.

كنت سأتحرَّش بالولد الذي يجمع البطاطا، لكنَّ سانيتش منعني.

- دعه يقترب، وإلا سوف يخاف، ويضج، ويوقظ جماعته، فلننتظر.

رحنا ننتظر.

اقترب الفتى ببطء، وصار يخطو مثل كاشف الألغام الذي يمشي في حقل ألغام، يخزُّ الأرض بسيخ السبر ويتفحَّصها. كان يتوقف بين الحين والآخر، ويضع السلَّة على الأرض، يتمنطق بحبل طويل، ويشدَّه متصالباً على بطنه، ويلتقط أحياناً حبات البطاطا القليلة حقاً، إنما يلتقطها. ربما هذه ثالث مرة يمشِّط فيها الحقل، وقد التقط كل شيء تقريباً، وعلى الرغم من أنه في الربيع يمكن إعادة التنقيب فإنها، في الحقيقة، تتجمد في هذا الفصل، وتحتاج إلى طهي سريع، كي لا تذوب.

استنشق سانيتش الهواء. هبَّت الريح من جهة القرية، ومثلما هو متوقَّع، كانت رائحة الدخان رائحة ريفية عادية تماماً، لكن سانيتش أحسَّ برائحة الدخان بشكل مختلف.

وقال بعد خمس دقائق:

- إنهم يخبزون الخبز، ويعيشون بسعادة...

هذا، طبعاً، أثار مشاعره؛ قلة قليلة يمكن أن تعيش حياة رغيدة خلال الحرب، كقاعدة، هؤلاء ليسوا خيرة الناس. أما الخبز... فمن أين لهم الطحين؟ نعم، حتى في الربيع؟ لقد استولى الألمان على كل شيء، والسكان أنفسهم أكلوا الفُتات. آخر مرة تناولنا الخبز كانت في شهر أيلول. حتى إنَّه كان من الشوفان، لاحقاً كل واحد حسب حظه.

- دعنا نخرج. همس سانيتش.

اقترب الفتى نحو خمسين متراً، لا داعي لإطالة الوقت: خرجنا من الدغل، وحاولنا ألا نبدو مخيفين. لم يكن الباحث عن البطاطا خائفاً، ولم يهرب، فقد توقف، وشرع ينظر إلينا بريبة طبعاً.

- مرحباً يا أخ! ابتسم سانيتش.

صراحة، لم يكن يشبه المتشردين: وجهه مستدير تماماً، أما عيناه... فتختلفان كثيراً عن عيون المتشردين الذين قابلتهم، على الرغم من أنَّه لا أحد يستطيع الآن التمييز، الأحمق لن يميز، وإذا لم يكن أحمق، فسيفهم كل شيء بنفسه.

- هل أنت من هنا. أومأ سانيتش برأسه باتجاه القرية.

- نعم. وأنتما من أين، من نوفغورود؟

سأل الفتى، غير مبال تماماً.

- من روسيا، أجاب سانيتش، ذاهبان إلى عمتنا في بسكوف.

- آه، واضح إلى بسكوف، إلى هناك.

أشار الفتى بإصبعه القذر.

- نعم، نحن نعرف، إنما هذا... حدَّق سانيتش في السماء، اقترب المساء فعلاً، يجب أن نتوقف.

أحنى الفتى ظهره.

- لا أحد عندنا يسمح بالدخول. هزَّ رأسه.

- لماذا؟ غمز سانيتش.

- إنَّها الحرب، إن سمحت بالدخول، فسيقولون إنك تؤوي أحداً.

- من سيقول ذلك؟

- من، من، واضح من، أنت نفسك، ألا تعرفهم؟ لقد ساقوا جميع الشباب...

أومأ الفتى إلى القرية.

- لماذا لم يسوقوك أنت؟ سألته.

أخرج الفتى يده من سترته، يداً يابسة ومترهلة: عظماً، وجلداً، وقليلاً من اللحم. يطقطق مثل شوري، بل أسوأ، ولم يتعافَ بعد.

- لقد دهست عربة كوعي. أوضح الفتى.

- ممكن أن نذهب إلى بيتكم؟ سأله سانيتش.

- أمي لن تسمح بذلك.

- هل توجد بيوت فارغة؟ واصل سانيتش إلحاحه.

لاذ يابس اليد بالصمت.

البيت الفارغ ليس الخيار الأفضل: إن أشعلت الموقد، فسيكتشف الجميع قدوم غرباء، ومن دون موقد يصعب قضاء الليل. لذلك، من الأفضل التظاهر بأنك متشرد جوال، الآن المتشردون الجوالون يتسكعون في كلِّ مكان، لا يوجد مكان يذهبون إليه، كثير من الناس يسمحون لهم بالدخول.

- هل المسافة بعيدة إلى أي قرية أخرى؟

- أربع ساعات، أشار يابس اليد بإصبعه، هناك قرية ستاريكوفو.

- حسناً، دعنا نذهب إلى ستاريكوفو، سنصلها ليلاً على الأرجح.

بصق سانيتش، وركل التراب المتجمد، وراح يتجول في الحقل. بصقت أنا أيضاً، لكنني لم أركل التراب المتجمد، حرصاً على حذائي.

- عموماً يمكنكما الذهاب إلى الرسام. قال يابس اليد في إثرنا.

توقف سانيتش.

- نعم، إلى الرسام. كرر يابس اليد.

استدار سانيتش.

- يعيش وحيداً، توفيت أخته في الشتاء المنصرم. في الماضي كان يستقبل الجميع.

- هل ترافقنا؟

هزَّ يابس اليد رأسه رافضاً.

- لا، ينبغي أن أجمع البطاطا، بيته على مشارف القرية، ستريانه فوراً، ولكن اطرقا الباب فترة طويلة، اطرقاه بإلحاح.

- لماذا؟

- لأنّه... تجهم الفتى، نصف أبيض.

- ما هذا؟ سأله سانيتش.

خلع جامع البطاطا قبعته، وصفع رأسه بقبضته، ومطَّ شفتيه كالأنبوب وأصدر صوتاً رناناً أجوف، كأنَّه صادر من جرن جاف.

- يرسم لوحات... مضحكة، إنَّه رسام.

- رسام؟ حدَّق سانيتش في وجهي.

- نعم، قبل الحرب كان رساماً أيضاً، وقد عرض لوحاته، لديه صندوق أخضر فيه كل رسوم الشخصيات، ودُمى مختلفة الأشكال، تجوَّل بها في جميع أنحاء المنطقة، وأقام حفلات مختلفة، إنه مضحك أيضاً... لقد رسم لوحات على جدران النادي في سوساللينو. هل بقي لديكم طعام؟

بقي لدينا طعام، بطاطا مسلوقة، وبصل، لكن سانيتش هزَّ كتفيه.

- حسناً، أخرج يابس اليد خمس حبات بطاطا من سلته، وناولها لسانيتش، سيؤويكما في جميع الأحوال، ومع ذلك الأفضل أن تحملا إليه شيئاً.

- شكراً. قلت له.

- آه... لوح يابس اليد بيده الأخرى.

تنهَّد ومضى بعيداً عبر الحقل، وهو يجسُّ الأرض بين الحين والآخر بعصاه.

اتجهنا نحو القرية، التقطت بعض الحجارة في الحقل، ووضعتها في جيوبي.

- لم يبق كلاب على الأرجح، ابتسم سانيتش ابتسامة عريضة. لا تخف، لقد أكلوها منذ فترة طويلة، فالألمان، كما تعلم، يحبُّون الكلاب؟ أوه، الكلب لديهم هو الحيوان الأساسي، والخنزير أيضاً، يوم الاثنين، يشوون خنزيراً، ويوم الثلاثاء يقلون كلبة.

- أنت تكذب، التقطت حجراً أبيض نظيفاً، أنت تكذب...

- تماماً، لما جاء الألمان إلينا، ذبحوا فوراً جميع الكلاب، هذا أول ما قاموا به عند وصولهم، ثم شووها بالقرب من النهر، فانتشرت الروائح الكريهة في جميع ربوع المنطقة، إنهم لا يحبُّون الكلاب كلَّها، أعني هم يحبُّونها مشويَّة.

عموماً، سانيتش على حق طبعاً، لقد عبرنا ثماني قرى، ولم نصادف كلاباً إلا في قريتين فقط، حتى إنها كانت تنبح من بعيد، لم تقترب. ما إن أتظاهر بأني ألتقط حجراً، حتى تختفي فوراً، أنا لا أحبُّ الكلاب كثيراً، على الرغم من أنَّ الذئاب تنتشر بكثرة حين تختفي الكلاب، عند الغسق اقتفى حيوان أثرنا مرتين، لم تكن حركاته مسموعة، ولم نره طبعاً، لكنني، مثلاً، حدست بوضوح من يقتفي أثرنا. شعر سانيتش بذلك، فإذا به فجأة، من دون سبب، يقطع فرعاً من شجرة تنُّوب ويشعله، ثم

لوَّح به فوق رأسه، كما انتزع لحاء شجرة بتولا، وضعه على عصا، ودسَّ تحته أوراقاً يابسة، وأشعل مشعلاً، يحترق فترة طويلة، فانبعثت منه روائح كريهة.

عبرنا الحقل، ثم خرجنا إلى الطريق المؤدي إلى القرية. هنا شممت فعلاً رائحة الخبز، فانتابني ألم شديد في أمعائي، كأنَّه عصا تدقها. قطَّب سانيتش وجهه أيضاً، فتوقفت، وراح ينظر إلى الأسطح فترة طويلة.

- إنها لا تخاف، آ؟ قال لي.

لا تخاف.

- حسناً، إذا طرأ أمر ما... سنرى.

وبينما أخذنا نسير ببطء في الأخاديد المتكسِّرة، راح سانيتش يتفحَّص الطريق، كل شيء واضح، ثمة آثار. الألمان لا يمشون تقريباً: يتنقلون إما على متن الشاحنات، وإما بالدراجات النارية، ونادراً على عربات، إنما لم تمرَّ من هنا أي عربة منذ فترة طويلة. نعم، وآثار الأقدام نادرة. ها هي ذي القرية، نسينا أن نسأل عن اسمها. حاولت التخمين، ربما أوفراجيٍ، فغير بعيد من هنا يوجد وادٍ[19]، أو بتروشيفو، فقد عاش هنا بطرس بودايغول، أو سينيوخايفكا، هكذا ببساطة سينيوخايفكا.

- سفينيكي، قال سانيتش، أو سبينيكي. هل لديك أسلوب لفهم الرسامين والتعامل معهم؟

- قليل، في بيت الطلائع، كان عندنا رسام، حوله مجموعة هواة، يذهبون معاً إلى النهر ويرسمون الكنائس... لكننا لم نتواصل معهم مطلقاً، كانت لدينا اهتماماتنا الخاصة.

- الرسامون، نعم مميزون... بصراحة، أنا أيضاً لا أفهمهم. إنما لا نسمع صوت الكلاب.

أصبحت الطريق أسوأ، موحلة، كما لو أنَّ القرية تحافظ على الدفء في أطرافها، فقد ركدت المياه الشفافة في الأخاديد، ولمع الجليد على حوافها. الشتاء، عموماً، الشتاء ليس وقتاً مريحاً جداً، آثاره واضحة؛ في فصل الشتاء، من الأفضل أن تتحرَّر من الأشياء غير الضرورية، وأن تكون حذراً عند قدوم منخفض ثلجي.

- قرية جرباء، تجهَّم سانيتش، بيوتها ريفية عوجاء، تزحف نحو الوادي مثل البق... ربما لا يوجد فيها كولخوز (جمعية ملكيات عامة).

البيوت في الواقع مثل الحشرات، تشبه الحشرات الحدباء، نعم، إنها مثل البق، لقد حالَ لونها فبات أحمر تقريباً، اسمها كلوبوفو (البقة)، هذا اسمها بالضبط كلوبوفو.

لدينا في لوكينو البيت بيت، قال سانيتش، بيت حقيقي من طابقين، تفصل بين الغرف جدران، وليس قواطع خشبية. كان لي غرفتي الخاصة، لها نافذة، تطلُّ على نهر لوفات، الهواء دائماً رطب

ومنعش، ليس كالهواء هنا، والطوافات الخشبية تنساب ببطء وهدوء، أما هنا فوادٍ. ينبغي أن يعيش الإنسان في أماكن رحبة، راح سانيتش يفكر بصوت عال، في الهواء الطلق، تحت الشمس، وليس في أي واد من الوديان. في الوديان ينشأ الناس أبناءَ وديان.

قطَّب سانيتش وجهه بطريقة جعلت التعرف عليه مستحيلاً تقريباً.

- بعدئذ ينتسب أبناء الوادي إلى سلك الشرطة. لم ينتسب من قريتنا أي شخص إلى سلك الشرطة، لكنني أفترض أن نصف السكان هنا يعملون في هذا السلك: إنهم يتنفسون هواء الوادي، والوادي في دمهم، فماذا تنتظر منهم. بالمناسبة، الفاشيون يعرفون ذلك، دائماً ما يذهبون أولاً إلى هذه الأماكن بحثاً عن الخونة. أودُّ أن أحرقها كلَّها...

- كيف الحال في المدينة؟ سألته.

- هنا كل شيء مختلف؛ في المدينة الأمور مختلطة، لن تفهم ذلك، ربما تجد شخصاً يذهب مع الفاشيين، يحدث ذلك. أنا بصراحة لا أفهم حقاً لماذا لدينا كثير منهم، أليس كذلك؟ قد تجد شخصين من كل قرية...

أنا أيضاً فكَّرت في ذلك، في مسألة الخونة. أنا شخصياً لم أعرف أي شخص، يعني لا يوجد أي شخص من معارفي في صفوف الخونة، برغم أنني، من ناحية أخرى، لم أر أحداً منذ أكثر من عام ونصف. يصعب فهم الإنسان. ها هو ذا باشا، على سبيل المثال، كان بالإمكان أن نشاهد فيلم «تشابايف» معاً، أو أن نتنزه في قارب واحد في الربيع، أو نمشي في المسيرات، ونحن نحمل صورة واحدة، الآن هو فاشي.

- كيف كانت حياتك في مدينتك؟

- لا بأس، كان لدينا منزل قرب الساحة، في الطابق الثاني.

- له شرفة؟

- نعم.

- واضح، أومأ سانيتش، أراد أبي أن يبني شرفة، فجفَّف الجذوع، لكن الحرب بدأت، ولم يعد ثمة وقت للشرفات. ماذا كنت تطمح أن تصبح؟ مصوراً؟

- لست أدري، أجبته، عموماً، أنا لم أفكر...

- أما أنا فأردت أن أصبح طوَّافاً، أنقل الخشب في النهر، أي معلِّم تعويم الخشب. ذهبت أربع مرات فعلاً، وفي الخامسة حسمت أمري... بعدئذ التحقت بطوافات تعويم الخشب، ثمة أمر رائع: تبني كوخاً، وتثبت فانوساً، وتعوم، وتطهو حساء السمك الطازج...

راح سانيتش ينظر إلى يمين الغابة، وقد نظرت أنا أيضاً، ثمة سياج امتدَّ نحو عشرين متراً على طول الطريق، أعمدته وحواجزه وكل شيء فيه كما ينبغي أن يكون.

- ما الحاجة إلى سياج في الغابة؟ لم أفهم.

- كانوا يرعون الأبقار هنا، أجاب سانيتش، ربما لا يزالون يرعونها، وقد نصبوا السياج حتى لا تقع في الوادي.

- لماذا لا ترعى في المرج؟

ترعى الأبقار في الغابة، فهي مثل الحشرات في البيت، تنبعث منها رائحة الخبز... أنا لم أستطع فهم حياتي هذه قط، لقد تخليت عن محاولة فهمها. في الوهلة الأولى حاولت مراراً: ها أنت ذا تعيش في المدينة، في الطابق الثاني عندك شرفة، تذهب إلى دورة التصوير، في المساء تجرُّ نفسك نحو باب المنزل، سبع مرات فعلاً، كأنك تمارس الرياضة في نادٍ، «مستعدٌّ للعمل والدفاع»، الأب يغادر كلَّ صباح إلى مصنعه، والأم تخبز الفطائر الهولندية التي تلتهم في لقمة واحدة، أما أختك... بعدئذ فجأة، نوع من الرنين، الدمدمة، صفارات الإنذار، إطلاق النار. أذهب إلى الغابة، وأختبئ في خندق حاملاً سكيناً في يدي، وفجأة تغيَّر كل شيء وأصبح مختلفاً. أنا لم أعد أتذكَّر مما كانت تصنع تلك الفطائر، لسبب ما بدت كأنَّها من الحمص، إنما مَنْ الذي سيخبز الحمص؟

- أمَّا أنا فقد اشتغلت مع كوفالِتْس، كان مساعد معلم سبائك: يخيط الأحذية، ويجلب السجائر، الآن أصبح شخصاً مهماً، وقد قتل ثلاثة ألمان فقط لا غير، حتى هذا تطلَّب منه قنبلة يدوية، إن أي أحمق يستطيع ذلك. إنما دعه يحاول استخدام المسدس، عندئذ سنرى. إنَّه يحبُّ القيادة، قائد... كلا، لن ألتحق بطوافات تعويم الخشب. سيكون كوفالِتْس هو القائد هناك، لا يمكنني الاتفاق معه. سأمضي إلى نوفغورود، وأحصل هناك على وظيفة في مكان ما، ثم أقصد مدينة لينينغراد، ربما ينبغي إعادة إعمارها بعد الحصار، فثمة حاجة إلى الناس... كلا، سنرى!

أشار سانيتش بعصا.

ثمة مشنقة أكيد، نصبت أمام مدخل البناية مباشرة.

طمأنني سانيتش:

- لا ترتعش، لم يشنقوا هنا أحداً بعد.

- كيف عرفت؟ الأمر واضح للعيان.

لقد تمعنت جيداً، المشنقة مشنقة، ما الذي يحتاج إلى فهم...

- لا تتوقف! أمسك سانيتش بتلابيبي، وجرني بعيداً، ماذا، ألم تر مشنقة من قبل؟ لا تثر الانتباه، امشِ.

لقد رأيت، ومع ذلك لم أقبل ذلك قط. مَنْ كان يتخيل قبل عامين أن المشانق ستنصب في مدننا؟ نعم، أنا لم أستطع، الكلمة نفسها لا تعجبني، بشعة، تشبه ثعباناً فاسداً لزجاً، لكنه لا يزال حياً. لما رأيتها أول مرة، كاد يغمى علـيَّ. نعم، والآن أشعر بالتقيؤ. مشنقة... تذكرني بكتاب عن جان دارك، عن عصور الظلام، عن الطاعون. ينبغي أن تكون المشنقة قديمة ومتداعية، يحطُّ غراب على عارضتها بالتأكيد، أما هذه فطرية، خشبُها لم ييبس بعد، إنَّها حية نوعاً ما، وحبلها جديد، ولسببٍ ما ثمة خشبة في الأنشوطة.

- لم يشنقوا أحداً هنا، كرر سانيتش لما مررنا أمامها، نصبوها ليخيفوا الناس، للتذكير من هو السيد هنا.

أردت أن أصدق، الأمر هكذا على الأرجح، سانيتش لم يخطئ قط، لم يخطئ قط تقريباً.

دوَّت الرياح، واصطدمت الأنشوطة بالعمود، فتعالى رنين اصطدام البكرة بالعمود.

- ربما نكسرها، اقترحت بغباء، منظرها مقرِف...

- لماذا؟ اعترض سانيتش، شيء مفيد، لن يكون ثمة داعٍ لإعادة نصبها.

ابتسم سانيتش ابتسامة عريضة.

دخلنا القرية، لا أحد. لا، ثمة أشخاص تشعر بوجودهم، لكنهم يختبئون. لا يوجد رجال البتة، ولا شبان أيضاً، ثمة نساء، وأطفال، وعجائز، كما هو الحال في أي مكان آخر. الستائر مسدلة، لا أزهار على عتبات النوافذ، لا أحد يختلس النظر، لا يهمهم النظر إلى الخارج، سيطر عليهم الرعب.

لا يوجد رجال، المنازل متداعية، إطارات النوافذ انزاحت عن أماكنها، والأسطح تقوَّست تحت ثقل الثلج، ولا يوجد من يرممها، أسيجة المنازل عموماً منهارة في كثير من الأماكن، ومغمورة في الثلج، الفوضى عارمة. ثمة كثير من أشجار الحور، نمت بسرعة باسقة وطويلة، ربما في الصيف سيصل وبَرُها حتى الركبة، عليها كثير من الأعشاش معلَّقة كتلاً سوداء. قرية صغيرة قذرة، لم نلتق أحداً فيها، صمت مقيت يزحف في الأكمام مع البرد، ثمة عصيدة من الوحل تترجرج تحت الأقدام: لا يوجد أحد، والطريق وعرة، هل هم يختبئون منا؟

- هل أحببت الذهاب إلى المدرسة؟ سألني سانيتش فجأة.

- لا.

- أما أنا فأحببتها، كانت الأحوال جيدة في المدرسة، الدروس سهلة دائماً، والتعلّم سهل. كنت دائماً في بداية الدرس أرفع يدي وأجيب بسرعة، ثم يمكنك النوم فعلاً: تغمض عينيك وأنت تنظر إلى الكتاب فتنام، لا أحد يلمسك. كنت سأدرس حتى الصف السابع، لكنَّ أبي مرض، فاضطررت إلى الذهاب للعمل في معمل رقائق الخشب، أكدح هناك من الصباح إلى المساء، لا مكان تهرب إليه... كم كانت علامتك في مادة اللغة الروسية؟

- آه... لا أذكر. حقاً لم أعد أذكر، خمسة[20]، ربما.

- كانت علامتي أربعة، وباقي المواد جميعها خمسة... اسمع، من المثير للاهتمام أنَّه ينبغي علينا أداء خدمة العلم في الجيش، آ؟ كأننا الآن نخدم في الجيش، ولكننا في صفوف الفدائيين، كيف سيحتسب ذلك؟

- لا أعرف، أنا لا أفكِّر بعيداً هكذا.

- عبثاً، يجب أن نفكِّر الآن، سأسأل غليبوف، أتمنَّى أن أخدم في الجيش، فالأمور فيه جيدة: يطعموننا، وعموماً... يبدو أننا وصلنا.

كان منزل الرسام منفرداً، على أرض منخفضة قليلاً.

- أغلب الظن، قال سانيتش، أنَّه منزل صغير لا بأس به، غني...

منزل الرسام رائع حقاً، مرتفع، جداره الشمالي مبني من جذوع الأشجار الضخمة، وسطحه واسع، ربما يتسع لثلاث عائلات معاً، فيه مدخنتان، هذا نادراً ما يتوفَّر في كثير من المنازل، فضلاً عن وجود مقصورة منفصلة خلفه، أو حظيرة، أو أي اسم آخر. على الأرجح، هذا ليس منزلاً، إنما سفينة حقيقية، دفعها إلى هنا فيضان نيسان منذ مائة عام، وتعطلَّت هنا. لا يوجد سور أيضاً، إذا كانت الأسوار في القرية محطَّمة بكل بساطة، فهي هنا غير موجودة إطلاقاً، ما حاجة السفينة إلى السور؟

- بيت لا بأس به، قال سانيتش، ينقصه برج. ذات مرة رأيت منزلاً خشبياً من أربعة طوابق، احترق فيما بعد. مساحته كبيرة. يجب أن يسمح لنا بالدخول، دعنا نقرع الباب. اسكت أنت، وحافظ على صمتك، أما الباقي وكل ما هو ضروري فعلـيَّ.

ابتعدنا عن الشارع قليلاً، فسقطنا فوراً في الثلج، كانت خطوة غير موفقة، لقد سقطنا في حفرة، وغمرتنا حتى الخصر تقريباً. راح سانيتش يشتم، ثم قال إنَّ ذلك أفضل، إذ بات منظرنا يدعو للشفقة، ينبغي على الرسام السوفيتي أن يشعر بالشفقة على الأطفال السوفييت، بغض النظر عن أنَّ الفاشيين يحيطون بنا هنا من كل حدب وصوب.

- أمر غريب... بعد نحو عشرين متراً توقف سانيتش، ألا ترى؟

- أنا أرى، لا يوجد أي أثر؟

- لا، ثمة منزل، إنما لا وجود لأي آثار، ربما لم يخرج منذ فترة طويلة... أو أنَّه قد مات...

أخذ سانيتش يتفحَّص الثلج.

- لا، لم يمت، فهو يشعل الموقد أحياناً.

تفحَّصتُ الثلج أيضاً، فرأيت نقاطاً سوداء صغيرة من السخام، كان الموقد مشتعلاً فعلاً.

- الرسام في المنزل، قال سانيتش، أمر مؤسف أنَّ المرحاض من الجهة الأخرى، ثمة درب مخصَّص له. ما الفرق...

شقَّ سانيتش طريقه إلى المنزل، وراح يطرق الباب بصبر: توك، توك، توك، توك.

مضى وقت طويل ولم يفتحوا، كما أخبرنا يابس اليد، ثم فُتح الباب مواربآً على نحو غير متوقع، لا خطوات، لا نفس من ورائه، يبدو أن صاحب البيت يقف ويستمع إلى ما نقوله عنه، أو ربما خائف أن يفتحه لشخص غريب الآن؟ نعم، لا سيما أننا في أراضٍ محتلة.

لكنَّه فتح.

رجل مسن تماماً، نحيل، كان شارباه ذات يوم مفتولين، والآن تهدَّلا مهمَلين. يرتدي سترة مبطنة عادية، وينتعل حذاء له عنق، لا شيء يشي بأنَّه رسام على الإطلاق: تفوح من الرسامين رائحة الألوان، وأيديهم ملطَّخة بها دائماً، أما يدا هذا الرجل فهما ملطختان بالفحم، وقفازاته مضحكة، مقصوصة من منتصفها، وأصابعه تتدلى منها.

- يعطيك العافية، قال سانيتش، لقد ضللنا أضعنا الطريق، وأمسى الوقت متأخراً، أخبرونا بأنَّه يمكننا قضاء الليلة هنا؟

راح الرسام يحدِّق بسانيتش، لسبب ما لم ينظر إلـيَّ. لقد قرر فوراً مَن المسؤول، مَن الأكثر خطورة. لدى جميع هؤلاء الرسامين سرعة بديهة: رسامنا، في بيت الطلائع، كان يفوز على الجميع في لعبة الشطرنج، لأنَّه يخمِّن بدقة في أي اتجاه سيتخذ الخطوة التالية.

- البرد قارس جداً. اشتكى سانيتش.

راح الرسام يحدِّق، ويحدِّق، ثم مدَّ يده، وقد بدا لي أنه يريد أن يلمس سانيتش، غير أنَّ سانيتش لم يتزحزح، ولسبب ما لم يلمسه الرسام، وضمَّ أصابعه كأنَّه احترق.

- ادخلا، قال لنا، هنا عتمة لمن لم يألف المكان.

اختفى خلف الباب المنخفض، ودخلنا في إثره.

لم تكن هناك أي رائحة في المدخل. عادة تنبعث روائح مختلفة في بيوت القرى: الصوف، والفطر المخلل، والسلال، والفئران، وقطع الحديد الصدئة المتدلية من السقف، والبصل. ولكنْ هنا لم تفح أي رائحة. البرد، والطحالب، والمكانس لا تزال معلَّقة. غريب، لم ألحظ الحمَّام، ربما يستحم الرسام في حجرة الموقد.

صرَّت فصالات الباب، وراحت ألواح الأرضية الخشبية تصدر تحت أقدامنا لحنها شبه الصيفي، ولامست أذني جرساً بارداً، فانبعث رنينه.

- احذر، نبهني سانيتش، توجد هنا سماورات.

فعلاً، سماورات. امتدَّت ذراعي إلى الأمام، وعانقت بطنه المحدَّب الأملس. غريب أنها لم تُسرق بعد. السماور شيء غالٍ، ذو قيمة من جميع الجوانب، إنما هنا... لقد عثرت على أربع قطع منه، تصطفُّ على رفٍ مثل فرسان تغطي بطونهم دروع معدنية، وثمة مكواة أيضاً. حركت يدي على طول الرف، فلمست وجوهاً حادة وباردة، ثمة كثير منها أيضاً، لقد عددت ست قطع، وهناك أوانٍ من حديد الزهر، وعجلات خشبية، يبدو أنها عجلات للغزل، وثمة صناديق إلى جوار الحائط، يبدو من ملمسها أنَّها قديمة جداً.

- الآن، لنصعد إلى الطابق العلوي، درجات السلَّم شديدة الانحدار، حذر سانيتش، سينكسر عنقك... يمكن بناء قلعة من هذه الجذوع الخشبية. أين الباب هنا؟

- هنا. أجاب الرسام.

لم يصرَّ الباب المؤدي من المدخل إلى داخل المنزل. تسلَّلت إنارة عبر فجوة إلى الظلام الذي يلفنا، ولاحت منها يد تحمل شمعة.

- ادخلا، قال الرسام، تفضلا.

اختفت اليد، وفتح الباب على مصراعيه، فانبعث الدفء ورائحة زيت عباد الشمس من داخل المنزل.

كان المنزل رحباً، مساحته كبيرة، لا توجد فيه أي حواجز، وحده الهواء يجعل ضوء الشمعة يتراقص. ثمة شمعة واحدة، وضعها الرسام وسط المنضدة، ولم يطفئها، كما برزت المشاعل من الجدران على ارتفاعات مختلفة، مما جعل الضوء يهتز بحيوية. الكراسي قديمة الطراز ذات مساند طويلة، يبدو أنَّه لا وجود لأي أثاث آخر، لا أَسِرَّة، ولا مكاتب، ثمة موقد روسي ينتصب وحيداً.

توجد لوحات معلّقة على الجدران قاتمة وغير مفهومة: صور أناس، أو حيوانات مثل الدببة، إنما ترتدي قمصاناً، وتنتعل أحذية، ووحوش خرافية. يوجد كثير من الصور، كلها صور أطفال أساساً، ولوحات حفلات زفاف: يجلس العريس والعروس الفتيّان، وهما يرتديان الملابس الأنيقة، وينظران أمامهما محرجين. أظنُّ أنه يقوم بدور مصور فوتوغرافي هنا، يأتي الجميع إليه، فيرسمهم، ثم يشعر بالحسرة على فراق اللوحات، لأنَّها تعجبه جداً، فإما أنَّه يرسم واحدة احتياطية، وإما أنَّه يخبئها، لذلك هو غير محبوب هنا. إنهم لا يفهمونه، الرسام في القرية عاطل عن العمل، لا يريد أن يعمل كالجميع، لكنَّه شره يلتهم كثيراً من الطعام.

غسلنا أيدينا في مغسلة قديمة مهلهلة، ثم جلسنا إلى المائدة. أحضر الرسام عصيدة في قصعة فولاذية مليئة، ثم صبَّها في صحفتين. أدركت فوراً من الرائحة أنها عصيدة الشعير الفاخر. قِدْر كبيرة مليئة بالعصيدة، لا تزال دافئة، جلبت من الموقد مباشرة.

- تفضلا كُلا، دفع الرسام الصحنين أمامنا، هذه وجبة اليوم.

ضيَّفنا بسخاء، فملأ لنا الصحنين، وشرعنا نتناول العصيدة بملاعق خشبية مطلية، رُسم على كل منها طائر، طبعاً، كانت تلك ألذ عصيدة في العالم، طهيت اليوم على الأرجح؛ طهاها ثلاث ساعات، ثم وضعت عشرين ساعة أخرى في عمق الموقد.

لم تكن الصحون عادية، بل تبدو صناعة يدوية؛ صناعة يدوية تماماً، لأنَّها ليست مستديرة. كان صحني مثلَّث الشكل، أما صحن سانيتش فغير منتظم عموماً، في البداية ظننت أنه من غير المريح تناول الطعام من هذه الصحون، إنما اتضح عكس ذلك تماماً: لم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الأطباق المريحة، تتجمع العصيدة في المكان المناسب، وتنساب بسهولة في الملعقة. للأكواب، بالمناسبة، ثنيات، مصنوعة من الصلصال، تزينها الرسوم، والزهور، والنجوم، وقد استعيض عن مقابضها بأفاعٍ خبيثة وأشكال حيوانات غريبة. صبَّ الرسام الشاي في هذه الأكواب، في الحقيقة لم يكن شاياً، بل مشروباً مغلياً كثيفاً وحلواً، يشبه إلى حد ما السحلب، إنَّه يلائم العصيدة تماماً.

لزم الرسام الصمت، وراح ينظر إلينا، أما نحن فتابعنا المضغ. استمرَّت هذه الحال فترة طويلة. ازداد الجو ظلمة، إذ أخذت المشاعل تنوس، وامتدَّ الظلام من الزوايا بغرابة، وانتشرت معه الظلال غير المستوية. لقد لاحظت في وقت سابق أشياء ساحرة على طول الجدران، تشبه الجذامير الكبيرة، اعتقدت أنها جذوع يابسة، إنما الغسق أكسبها أشكالاً مبهمة... إما مخيلتي، وإما أمر آخر، لم يجعلني أراها جذامير يابسة على الإطلاق، بل وحوشاً مقيتة مخيفة غير واضحة، راحت تنظر إلـيَّ بعيون حكيمة عميقة، آسفة لحالي، وأنا شعرت -أيضاً- بالأسف لحالها، وقد ازدادت رغبتي في النوم حقاً.

تزداد الرغبة في النوم بعد الطعام عادة، ولا سيما بعد العصيدة. أخذنا نتثاءب، فنصحنا الرسام بأن ننام فوق حجرة التدفئة. كانت هناك معاطف فراء عتيقة بدت لي أفضل من ريش النعام. لقد غلبني النوم فوراً، واستيقظت مباشرة معانياً من الألم، أردت أن أوقظ سانيتش، لكنني لم أعثر عليه، وجدت أغطية جلد الغنم مكوَّمة.

فتحت عيني بحذر، فرأيتُ الرسام وسانيتش يجلسان حول المنضدة متقابلين، بينهما أشكال صغيرة، مثل لعبة الشطرنج، إنما لها أذرع. تدلَّى من جسر في السقف الخشبي مصباح معلَّق بسلسلة نحاسية، يكاد يشتعل، ويدور حول نفسه متمايلاً، تاركاً على طول الجدار ظلالاً مستديرة تتراقص بكسل. يعيش الرسام عيشة ليست سيئة، يوقد مصابيحه بالزيت، ربما خزنه مسبقاً، حتى قبل الحرب، أو ربما رسم بعض اللوحات، وتقاضى ثمنها زيتاً، أو ربما يحتفظ بزجاجة للضيوف، نحن مثل الضيوف.

لسبب ما، سمعت صوت راديو، كأنَّه تناهى إلـيَّ في المنام، لاحقاً تذكرت أنَّ الراديو لا يمكن أن يعمل هنا على الإطلاق، لقد حولوا أعمدته إلى مشانق، فضلاً عن أن الراديو الذي أسمعه لم يبث حديثاً، بل أجوبة أيضاً، ثم خمنت أن سانيتش والرسام يتحدثان. لقد غيَّر الغسق صوتيهما، وأضفى عليهما عمقاً وسكينة، تناغمت الأصوات مع لحن صرصور، استيقظ معي.

- إنما ماذا عن الخونة؟ لماذا هم موجودون؟ حسناً، وجود الأبطال أمر مفهوم، إنما الخونة؟

- هنا، أيضاً، كل شيء واضح. لسوء الحظ، الخونة كانوا، وسيظلون موجودين، لا تستطيع فعل أي شيء.

- لماذا هم كثر؟

- لا، هم ليسوا كثيرين، أجاب الرسام، تقريباً واحد من بين كل اثني عشر، لقد تم إحصاؤهم منذ وقت بعيد.

- كل اثني عشر... هذا كثير. إذا كان لدينا معسكر مكون من ستين شخصاً، على سبيل المثال، يتبين أنَّه ينبغي أن يكون بينهم بالضرورة خمسة خونة؟

- شيء من هذا القبيل.

- هل الأمر من دون خونة غير ممكن بأي حال من الأحوال؟

- لا مفر، قال الرسام بأسف، طالما يوجد أبطال، فسيكون هناك خونة دائماً؛ هذا قانون.

- غير صحيح، اعترض سانيتش، في معسكرنا لا يوجد خونة إطلاقاً.

لماذا هو مهتم ويصرِّح علناً؟ في مسألة الخونة والمعسكر. إنَّه يعترف مباشرة أمام شخص غريب أنَّه عضو في معسكر للفدائيين، هذه أول مرة أشاهده هكذا.

- ماذا، هكذا كان الأمر دائماً وسيظلُّ كذلك؟ سأله سانيتش، حسناً أنا أتحدث عن الخونة؟

- لا، طبعاً، ابتسم الرسام بوضوح، سيتم فرزهم، أنا متأكد من ذلك.

- قريباً؟

- أعتقد ذلك، خلال كذا سنة...

- عشر سنوات. استخلص سانيتش بفارغ الصبر.

لاذ الرسام بالصمت.

- عشر سنوات فترة طويلة، اعترض سانيتش، يبدو لي خلال فترة أقصر، ما إن تنتهي الحرب حتى يُفضح الخونة، سيقضون على عدد منهم، وعدد آخر سينتحر، لست أدري كيف سيتم التعامل معهم، لكنَّهم لن يبقوا، هذا أمر مؤكد.

بقي الرسام صامتاً.

أنا أتفق مع سانيتش، بعد الحرب سيصبح عدد الخونة قليلاً جداً، وربما لن يبقى منهم أحد على الإطلاق. الحرب تساعدنا في معالجة هذه المسألة، كل من أراد أن يخون فضح نفسه بنفسه، لذلك بعد النصر، ستصبح الحال أنظف والأعداء أقل. سيقل عدد الأبطال طبعاً، الأبطال في أي حرب هم أول من يموتون... ينبغي لنا أن نسأل كيف نتعامل مع هذه الحال؟ كيف نعيش من دون أبطال؟ ربما يعرف الرسام الجواب.

- تلك الصورة، أومأ سانيتش برأسه باتجاه الظلال المنحنية على الجدار، تلك... لمن؟

أجاب الرسام، إنما بصوت غير مسموع، لذلك سأل سانيتش مرة أخرى:

- أي فوج؟ فيها كثير من الأشخاص طبعاً، لكنَّهم لا يشكِّلون فوجاً على الإطلاق، سَريّة ربما... قمصانهم مضحكة...

كرَّر الرسام جوابه بهدوء مرة أخرى، وصلني منه نهاية العبارة فقط:

-... إنهم يحرسون، هذا أمر لا جدال فيه. جميع من سقطوا في المعارك... ليس فقط في المعارك، كل الناس الشرفاء والطيبين، يمثلون...

تنهَّد سانيتش مشكِّكاً.

- كيف يعيشون هناك؟ سأل مع ابتسامة واضحة، لماذا لا يتساقطون عبر السحاب؟

ضحك الرسام أيضاً مثل صبي، خطر لي أنني كنت مخطئاً في تقدير سنه: ليس مسنَّـاً كما بدا لي في البداية، ببساطة الحياة أنهكته، فتهدَّل شارباه، وهرِم.

- السحاب أصلب بكثير مما نظن... أما هم فيعيشون عيشة ممتازة...

عاد مرة أخرى إلى الهمس غير المفهوم، وراح يتحدث بسرعة كبيرة، عن مصيبة عظيمة.

- حين تأتي مصيبة كبيرة، سوف ينهض أولئك الذين سقطوا دفاعاً عن أصدقائهم...

- ما يجري الآن أليس مصيبة كبيرة؟ قاطعه سانيتش، لا توجد مصيبة أكبر مما يحدث، حسب رأيي، كادوا يصِلون إلى موسكو.

أجاب الرسام، لكن لم أسمع من جوابه إلا «قادمة» و«الفجر»، بل لستُ متأكِّداً مـمَّـا أقول.

- هل تصدِّق ذلك؟ ابتسم سانيتش ابتسامة عريضة، كنت أسمعه بوضوح أكبر، ربما لأنني معتاد فعلاً على صوته، هذه... خرافات.

رنَّ صوت الرسام من جديد: تسلَّل صوته عبر الجدران، وتدانى هامساً من وراء الموقد ومن السقف، حملني على النعاس، فانزلقت عائداً إلى النوم، أحاول أن ألتقط أي شيء.

يبدو أن الرسام أخذ يتحدَّث عن النور، وقد أشار إليه أيضاً.

حرك المصباح حركة ما، وفجأ صار النور ساطعاً، وانتشر في البيت بقوَّة، مما جعل الزيز يصمت. انشطر النور إلى حزم منفصلة، راحت تتراقص على الجدران، ثم اختفى كلُّه تقريباً، باستثناء شريط قرمزي تحت جسر السقف، لكن فجأة توهَّج من جديد، فتراقصت على الجدران رايات حمراء، وتألَّق الفيروز، وباتت الأخشاب زمرديَّـة، وسطعت الشمس، ثم أتى الحديد والشتاء على ذلك كله، وانتصب تحت السقف تماماً قوس قزح من نجوم ذهبية... قد يكون هذا حلماً، أو حِيَلاً سحرية: فربما كان لدى الرسام مجموعة من مرشِّحات الضوء أو الزجاج الملون... لا، الأرجح، إنَّه حلم.

في الصباح، طقطق الفحم في الموقد، إنما كان الجو دافئاً، لقد بدأ الموقد الروسي يسخن، سيدفأ الجو بعد مرور نحو ثلاث ساعات، ليس قبل ذلك، وبعدها يمكنك ألا تشعله مدة يومين، وأن تعيش بهذا الدفء المخزون.

كان سانيتش مستلقياً على مقعد رافعاً ساقيه، وسانداً قدميه إلى الموقد المتسخ الذي تبيِّن الآثار أنَّ الرسام يسند قدميه إليه، بيد أنَّ الرسام نفسه لم يكن موجوداً.

- أين صاحب البيت؟

- هل استيقظت؟ أنزل سانيتش ساقيه، وتناول حذاءه، ثم انتعله وهو مقطِّب وجهه.

- أين صاحب البيت؟ سألته مرة أخرى.

- لقد خرج. إنَّه عازم على أن يتوسَّل الطعام لنا من أخت زوجته. لست أدري، كأنَّه... مؤمن بالله على ما يبدو.

تفحَّصت البيت في ضوء النهار، لا توجد أي أيقونات، لا في الزوايا، ولا على الجدران. الجدران هي الجدران، والفرن متسخ، واللوحات صغيرة وقاتمة جداً، يصعب تمييز محتواها، والجذامير الخشبية والصحون مثلثة الأضلاع عادية، لا شيء فيها يثير الدهشة، خشب وصلصال. حتى إنَّها قبيحة. لعلَّ الجمال يحتاج إلى ظلام كي يظهر على نحوٍ ما.

ثمة لوحة أخرى إلى جوار النافذة، موضوعة على منصَّة رسم كبيرة سيئة الصنع تغطيها قطعة من الخيش، انكشف جزء صغير من زاويتها العليا إلى اليمين. نظرت: إنَّه سانيتش. تنبَّهت، كلا. في الحقيقة كان سانيتش واقفاً...

- دعنا نخرج من هنا، آ؟ اقترح سانيتش.

كدت أقفز، لقد رأيته للتو في الصورة، وها هو ذا، يرتدى ثيابه وينكش أنفه جاهزاً للخروج.

- ما معنى ذلك؟

- حسناً... لوَّح سانيتش بيده، لقد جمع لنا كل مؤونته، وأهدانا معطفه الفرو، وخرج كي يحضر لنا شيئاً ما، وهو لا يكاد يقف على قدميه، لا يجوز نهب مثل هذا الإنسان. دعنا نذهب.

ارتديت ملابسي بسرعة، وانتعلت حذائي، وشربت بعض الماء، وفي غضون عشر دقائق كنا نسير على الطريق. لاذ سانيتش بالصمت، وراح يتلفَّت حوله، كأنَّه يتوقَّع أن يلحق شخص ما بنا. لما ابتعدنا عن القرية، قال:

- يا له من مجنون...

أخذ يتلفت من جديد.

- ماذا؟

- أقول لك: ظلَّ طوال الليل يحدثني أحاديث هراء مختلفة.

- أي أحاديث؟

هزَّ سانيتش كتفيه.

- عن قياصرة ما... يونانيين، أو شيء من هذا القبيل، في الأزمنة الغابرة، باختصار لما كانوا يحاربون بالرِّماح.

- عن القياصرة؟ فوجئت، بدا لي أنه كان يحدثك عن المستقبل، لقد استيقظت في بعض الأحيان...

أومأ سانيتش.

- لقد حدَّثني عن المستقبل أيضاً، كذب كثيراً، حدَّثني عن مستقبلٍ مختلفٍ تماماً.

- أي مستقبل؟ سألته.

لم يجب سانيتش مباشرة، ركل الثلج.

- مجنون، حقيقي...

- لماذا؟

- نعم، لقد ثرثر كثيراً.

لوح سانيتش بيده، وراح يتحدث.

- ما اسمك، سألني، من أين أنت؟ رحت أفكر لماذا يريد أن يعرف اسمي، ومن أين أنا؟ حسناً، لقد كذبت، وانتحلت اسماً غريباً؛ اسمي فيودور، أجبته، أنا من كرياكينو من الشرق، ضحك، ولم يصدقني. عموماً فكرت أن أنام، أما هو فقد انطلق في الحديث... تثاءب سانيتش، وتابع:

- راح يحدثني عن القيصر، ليس القيصر الذي كان عندنا، إنما عن قيصر قديم جداً، أيام كانوا يرتدون الدروع. لذلك، فقد كلفوا هذا القيصر مع محاربيه بحراسة ممر في الجبال، فبدأوا في الحراسة. ألا تعرف هذه القصة؟

- لا، لما مررنا في الدروس على اليونان، أصبت بالحمى القرمزية تماماً.

- أما نحن فلم يكن لدينا دروس في التاريخ على الإطلاق، قال سانيتش متنهِّداً، ليس في كل السنوات طبعاً، إنما في الصف السادس فقط، ربما فاتني ذلك، على الرغم من أنني لم أحبَّ

اليونانيين على الإطلاق، فقد كانت لديهم عبودية...

- كان ذلك لدى الرومان. اعترضت عليه.

- لا، لدى الإغريق أيضاً، أنا أذكر تماماً، لقد حاربوا بعضهم بعضاً، ثم تاجروا بالعبيد فيما بينهم... حسناً، إنه تاريخ أعرج، فضلاً عن أنَّه ممل.

بصق سانيتش.

- لديه لوحة معلقة هناك، أنت رأيتها بنفسك: لوحة غريبة، أناس غير واضحين، ينظرون بطريقة أو بأخرى... حسناً، لست أدري... تشبه رؤساء التعليم، صورة كاملة فيها رؤساء التعليم وحدهم! إنَّها تثير القشعريرة فعلاً، رسمت العيون منفصلة عن كل شيء تماماً... لوحة العيون!

هزَّ سانيتش كتفيه.

- إذاً، في اللوحة أناس يرتدون ملابس غريبة، للوهلة الأولى يبدو الجميع في قمصان بيضاء، إنما إذا تمعنت عن كثب، فإنك تستشفُّ تحت قمصانهم شيئاً آخر، عددٌ منهم يرتدي سترات رسمية تقليدية قديمة، وآخرون يرتدون الدروع، وثمة من يرتدون بزة المراسم. وهذا...

أخذ سانيتش يتلفَّت حوله مرَّة أخرى.

- طبعاً، رأيتهم في الظلام... بدوا كأنَّهم أحياء، كما لو أنَّهم يتحركون، ليس واضحاً كم عددهم، يبدو قليلاً، إنما إذا تمعنت فترة طويلة... في الواقع، ربما يعادلون فوجاً.

- مع ذلك، ما رأيك بالرسامين؟

نقر سانيتش بإصبعه على صدغه.

- الرسامون أنواع مختلفة، أجبته، عادة لا يشبهون أحداً. إذا كان الرسام يرسم الطبيعة، أو النهر، أو البحيرة، فكيف يصاب بالجنون؟ إنه على العكس من ذلك طبيعي جداً، يكسب كثيراً من المال.

- أما هذا فهو غير طبيعي. لو أنَّك رأيت لوحاته الأخرى، إنها لا تشبه أي شيء، فأي أحمق سيشتري هذه اللوحات؟ لن أقتنيها حتى مجاناً. لقد ألحَّ علـيَّ قائلاً، دعني أرسمك، ثمة مكان لك، قال لي، هناك في الصف العلوي إلى اليمين. أما أنا فسألته: «لماذا ينبغي أن تكون صورتي هنا؟» لكنه لم يجب، وراح يمزج بعض الألوان، واستأنف حديثه مرة أخرى عن قياصرته.

انزلق سانيتش في شقٍّ كبير، كاد يسقط، فغرز يديه في التراب، وراح يشتم، ثم صعد ليمسح راحته بالعشب اليابس، وبجذوع أشجار البتولا على جانب الطريق.

- قف، كما لو أنَّك تمسك رمحاً! عاد سانيتش إلى الطريق، فقلت له: «كيف أقف ممسكاً بالرمح، إذا كنت لم أرَ هذا الرمح مطلقاً؟» فغضب، وقال: «لا غنى لك عن الرمح إطلاقاً»، وارتعد جسمه كلُّه، وارتجفت يداه...

بصق سانيتش على راحته ومسحها بسترته المبطنة.

- حسناً، عندئذ فكرت، علامَ أنا آسف؟ لقد أطعمَنا الرجل آخر قطعة خبز لديه، وسقانا الشاي، ونمنا في بيته، وأنا لن أصاب بأذى، أليس كذلك؟ «حسناً، قلت له، سأقف». هكذا وقفت في الزاوية مستعداً، متخذاً هيئة من يتهيَّأ لالتقاط صورة له. أما هو فراح يرسم بسرعة كما بدا لي. حسناً، أنت رأيت، وأضاف لي نجمة.

- ماذا؟ قلتُ له، كلامك صحيح، فأنت تستحق رتبة جنرال منذ وقت بعيد.

- في الحقيقة لم أخبره.

- كيف؟ لم أفهم.

- هكذا، لـمَّـا راح يرسم، لم يسألني أي سؤال على الإطلاق، لقد رسم النجمة من تلقاء نفسه، وأنا لم أصحِّح له، قلت في نفسي دعني أتخلَّص في أقرب وقت ممكن. نعم، لقد رسم لي نجمة.

هزَّ سانيتش كتفيه.

- إنَّه مجنون حقاً، ماذا جرى له... يجب أن يخفي هذه اللوحة، إذا رأوها، فسينصبون المشنقة مجدداً بالتأكيد. إنَّه يراها جيداً. إذا وشى به وغدٌ قُضيَ عليه، ولن يرسم بعدها أبداً...

توقَّف، وخبط قدمه، وأطلق شتائم أقذع من تلك التي أطلقها لما سقط في الوحل.

- ماذا؟

- ماذا، ماذا؟ نسينا المسدسات! قال سانيتش بغضب شديد، إذاً، الآن، علينا العودة ثلاثة كيلومترات إلى الوراء.

الفصل السادس

- من هنا، ينبغي أن نكون أكثر حذراً، هنا تبدأ الأراضي التي يحتلُّها الفاشيون.

تثاءب سانيتش.

لم تكن الأراضي التي يحتلُّها الفاشيون تختلف عن أراضينا. الطرق نفسها، وأشجار التنوب نفسها، والثلج الأبيض مثل الثلج لدينا.

- هذا الدرب الضيق يؤدي إلى النبع هناك، بالقرب من الصخور. إنه موازٍ للطريق، ومطروق جيداً، يبدو أن الناس كثيراً ما يسلكونه للحصول على الماء.

- يُعدُّ ماؤه صحياً، قال سانيتش، لا يتجمَّد في الشتاء، ولا تشتهي الطعام بعد الشرب منه. سنشرب منه فيما بعد، هل ترى شجرة الصنوبر تلك؟ سنمشي إليها.

توجَّهنا نحو شجرة الصنوبر، طبعاً ليس مباشرة، إنما بمسار دائري متعرِّج، كي لا نترك وراءنا أثراً. وقفنا أعلى النبع، لم يكن متجمِّداً، على الرغم من أنه يشبه قنفذاً جليدياً. كان البخار يتصاعد فوق الماء، مثل الغيوم. وقفنا فترة أطول مما ينبغي، ولم تكن لدينا رغبة في المغادرة.

شربنا، كانت مياه النبع باردة معدنية نوعاً ما، تملأ المعدة تماماً، هذا ليس ماء، بل طعام.

جلسنا بين أشجار الصنوبر الصغيرة بحيث لا نُرى في مخبئنا، أما الممر، فعلى العكس، كان مرئياً.

تناول سانيتش ساعته.

- الواحدة والنصف، قال سانيتش، هذا هو الوقت المناسب.

- لماذا في هذا الوقت المبكر؟ سألته، يمكننا أن ننام.

- في هذه الحالات يفضَّل عدم النوم.

تناول سانيتش بعناية كيس القماش الخشن، ثم فكَّ الشريط، وأخذ يرتب المؤونة: زجاجتين كبيرتين سعة الواحدة ثلاثة لترات من (الساموغون)، مغلفة جيداً بقشر الحـور الأنيق لحمايتها، وخمساً من معلبـات اللحـم (ليند ليز)، وخمس علب من تبغ الماخوركا.

كان عندي المؤونة نفسها: الساموغون، والتبغ، ومعلبات اللحم.

للمبادلة.

أخرج سانيتش علبة لحم، وضغط على غطائها، لم يتأثر الغطاء. الأميركيون الطيبون يرسلون لنا المعلبات، من الأفضل لو يفتحون جبهة ثانية، الأوغاد.

- غطاء العلبة معدن، نقر سانيتش بظفره على العلبة، لقد جهَّزت الطعام، لدي رغبة في أن أصطاد سمك الزاندر... بالمناسبة، لم يذهب كوفالِتْس ولا مرة، يقول إن الألمان يخافونه. إنهم يخافونه، لكنهم لا يخافوننا، آ؟ بالمناسبة، لقد قتلت ثلاثة أضعاف ما قَتل منهم، أرديت في معركة واحدة أربعة عشر فرداً...

وضع سانيتش علبة اللحم جانباً، وتناول زجاجة الساموغون من عنقها، ثم سحب سدادة الفلين بأسنانه، وبصق في داخلها، ثم سدَّها وأعادها.

- كان من المفترض أن يوجِّهنا غليبوف إلـى الطريـق السريع، قال سانيتش، لنستطلع الجسور، لكنه لم يوجهنا، بل أرسلنا إلى هنا.

لم يكن مزاجه حسناً. بصراحة، كان خائفاً؛ نادراً ما انتاب سانيتش هذا الشعور، أنا أفهمه. إنه أمر يدعو للأسف.

- إذاً، من الممكن تناول هذا... أشرت برأسي إلى علبة اللحم، دعنا نبتعد عن هذا المكان، ما رأيك؟

لزم سانيتش الصمت.

- نقول إنَّ أحداً لم يأت، واصلت كلامي، ألا يحدث أن لا يأتوا؟

- يحدث ذلك، وافق سانيتش، لكن غليبوف أمرنا بالمجيء إلى هنا؛ هذا يعني أنَّهم سوف يأتون.

قال سانيتش ذلك بنبرة تشبه كثيراً نبرة قائد لا جدال فيها.

- غير واضح على كل حال، قلت له، نحن فدائيون من المعسكر السادس والستين، كل شيء كما ينبغي أن يكون. ونحن نذهب لتبادل البضائع مع الفاشيين، صحيح؟

- الأمر بسيط. الفاشيون... استغرق سانيتش في التفكير، أنواع مختلفة؛ من حيث الضرر، ثمة فاشيون ينبغي القضاء عليهم أولاً بأول: عناصر الأمن، وفرسان الوحدات الخاصة، والطيارون، ورماة المدفعية، ويوجد آخرون، ليسوا فاشيين تماماً. لنأخذ ستالينغراد.

- وبعد.

- كل الفاشيين الحقيقيين يتركزون الآن هناك. أما هنا، فلدينا مختلف أنواع التافهين الصغار: أفراد شرطة، جنود، هؤلاء لم يضمُّوهم إلى الجيش، عندهم عاهات، مثل: رِجل أقصر من رِجل. إنهم لا يريدون القتال حقاً، ولا يستطيعون، ولا ينبغي لنا أن ننشغل بهم أيضاً، فهذا هدر للذخيرة لا أكثر. هدفنا هو ادخار قوانا...

لم يقل ذلك بثقة كبيرة، لكنه استعاد تماسكه على الفور، مما زاد صوته صرامة.

- مهمتنا هي الحفاظ على قوانا للضربة الرئيسية. كرَّر رأيه.

- إذاً، لماذا نشنُّ الغارات؟ سألته مندهشاً.

- أعتقد أن ذلك بغرض التخويف، لا أكثر، أجابني سانيتش، كي لا يزداد الألمان وقاحة. ثم ألم تلحظ أنَّ هدف غاراتنا محدود دائماً: تفجير جسر، أو قطار، أو حرق خزانات وقود، إنَّه عمل استخباراتي مرة أخرى. ولا جدوى من تدمير المجالس القروية.

- لماذا؟

- المسألة بسيطة... ألقى سانيتش نظرة من خلال منظاره، هذه ببساطة... استراتيجية؛ لنفترض أننا أعددنا، على سبيل المثال، هجوماً، نحن هنا نجلس في الأدغال، ونراقب عربات القافلة، هل ازداد عددها، هل مرَّ عدد أكبر من الدبابات، لا نستطيع تفجير أي منها من دون أمر، أما إذا شُنَّ الهجوم، فسيبدأ الألمان بزجِّ قوات جديدة، عندئذ سنغادر، ونهجم على عربات القطار ونخربها،

وننسف الجسور، هذا أهم بكثير من شنق عريف، كما تعلم. عموماً، لا مجال للمبادرات الذاتية هنا...

واصل سانيتش النظر بالمنظار.

- المبادرة الذاتية ضارة، كما تعلم... حسناً، لنفترض أننا قتلنا عشرة من الفاشيين، عندئذ سينقلون الأفواج التأديبية إلى هنا، وسيجرون كل أنواع التحقيقات، ويحاصرون المعسكر، أو حتى يقصفونه، وحين نحتاج إلى تفجير قافلة، لن يكون هناك من يقوم بذلك. واضح؟

- لكن ماذا عن: «اقتل ألمانياً»؟ لم أفهم، أنت نفسك قلت لي...

- اقتله، طبعاً، وافق سانيتش، إنما بحكمة، لكن ليس الآن، في وقت لاحق، بعد بقليل. عموماً، من الأفضل ألا نقتل الألمان الآن. لا يزال الوقت مبكراً، كما قال غليبوف. أما إذا قُبِضَ على أي وغد من البلطيق، أو فلاسوفي من أوكرانيا، أو عنصر من الشرطة، فيمكن قتله، ولن يأبه الألمان لهذه النفايات...

دفع سانيتش المنظار إلـيَّ، وتناول الحربة وغرزها في الثلج.

- طبعاً، يصعب أحياناً ضبط النفس، قال لي، يصعب كثيراً.

- أنت نفسك قتلت فعلاً ما يقارب السبعين. تنهَّدت.

- حسناً، كانت تلك أوقاتاً مناسبة. لم تكن ثمة قيادة، ولا إدراك، أيضاً... كانت أفكارنا ضيقة، أما الآن، فلدينا تنظيم. كل معسكر مشغول بمهامه الخاصة، منطقة فدائية. يعرف الفاشيون أين توجد قرانا، وهم فعلاً لا يدخلونها دائماً، يسلكون خطوط السكك الحديدية الضيقة، ويتنقلون بواسطة العربات بأمان، وطائراتهم تحلِّق، واتصالاتهم فعالة تلتقط الصور، والطرق تحت السيطرة. أما رجال الشرطة فيقبعون في جحورهم، أمر يشبه النظام.

كزَّ سانيتش على أسنانه، وتناول الحربة.

صباح البارحة أخذ يشتم، ويصرخ، لأنَّه يشعر بالملل، ولم ينضمَّ إلى الفدائيين كي يتآخى مع الفاشيين، وسيذهب لإخبار غليبوف حالاً. ذهب وأخبره، ثم عاد إلى المخبأ غاضباً جداً، وقال: لقد كلفونا بمهمة سيراً على الأقدام، ولدي خمس دقائق كي أستعد، وقال أيضاً: كوفالِتس وغد، فليجرِّبها مرّة واحدة على الأقلّ... والآن يحدثنني عن استراتيجية العمل الفدائي، يا له من مفكِّر استراتيجي.

- الحرب الفدائية ليست كما تتصورها؛ إطلاق نارٍ فحسب، بل هي فوق ذلك تعفُّن وفساد.

- ماذا؟ لم أفهم.

- إنَّها تعفن الروح المعنوية. حسناً، ماذا تظن، لماذا أتينا بكل هذا؟

وأشار إلى أكياس القماش الخشنة.

- لتبديلها بالذخيرة، وبالقنابل اليدوية... أليس كذلك؟

هزَّ سانيتش رأسه.

- لا، لدينا من الذخيرة الكثير. طبعاً، يمكن أن نأخذ القنابل اليدوية؛ إنما هذا ليس ضرورياً، الشيء الضروري هو أن هؤلاء... أشار سانيتش برأسه نحو القرية، يعتادون، فينجذبون، ولما تحين الساعة المناسبة...

امتقع وجه سانيتش، لقد أدركت أنه يرى بوضوح تلك الساعة، وماذا سيحدث فيها.

- دعنا نأكل قليلاً، ابتسم سانيتش فجأة، أشتهي شيئاً ما. لدي بعض المنغِّصات في بطني منذ البارحة... لكن البيض المقليّ عند غروشا كان لذيذاً، أليس كذلك؟

إنَّها المرة الثانية التي نتوقف فيها عند غروشا، بالأحرى أنا أتوقف مرَّة ثانية، أما سانيتش فقد توقف مراراً قبل ذلك، يبدو أنَّ بينهما قرابة بعيدة. تشتهر العمة غروشا بالبيض المقلي، لا يزال لديها دجاجتان على قيد الحياة، غلاشا وباشا، بقاؤهما معجزة، لا أعرف كيف.

تناول سانيتش علبة لحم، وفتحها بالحربة، ثم قطَّع السمكة ببضع ضربات، ولفَّها بعناية، ووضعها في جيبه. بعد ذلك قصَّ غطاء العلبة على طول حافتها، ونظر إليَّ عبر غطائها الذي عكس خيال السمك.

- لكن، ينبغي أن نبادلها...

هزَّ سانيتش رأسه.

- لا، قال لي، يمكن أن نلتهم واحدة. غليبوف يأمرنا أن نفعل هذا دائماً.

- لماذا؟

- إنه التعفُّن من جديد، ينبغي أن نظهر شبعانين ومسرورين، فهذا يدبُّ الخوف في قلب العدو. لهذه الغاية أعطونا معاطف الفراء القصيرة، والقبعات المصنوعة من الفراء، ليعرفوا من هو السيد هنا.

- يتضح أنهم ينبغي أن يخافوا منا، وألا يخافوا في الوقت نفسه؟ سألته.

- نعم، هذه أفضل طريقة؛ الغموض، فحين يسيطر الغموض، يصبح الوصول إلى المرحاض من دون مسدس أمراً مخيفاً، مثل الركض وقت الهجوم. دعنا نأكل.

ظهر اللحم الأحمر داخل العلبة نظيفاً وخالياً من الدهن. قطَّعه سانيتش نصفين، أكل حصَّته بسرعة، وناولني العلبة، وشرع يراقب الممرَّ من جديد.

كان اللحم بارداً ولذيذاً جداً.

- أتعلم لماذا يعلِّقون المشانق في كل مكان؟ من الرعب، فليخافوا... إنهم قادمون.

- ماذا؟

- أقول: إنهم قادمون، الأوغاد.

كدت أختنق، سدَّت قطعة لحم حلقي، وتملكَّتني رغبة في السعال، لكنني لم أقدر. لوَّح سانيتش بقبضته وقطَّب حاجبيه بحدة. لكن السعال تملَّكني تماماً، كي أقاومه غرست أسناني في ساعدي، فأطلق سانيتش ضحكة خفيضة ساخرة.

ظهر ألمانيان يمشيان متمهِّلَين على الدرب الضيق. في الواقع، هما لا يشبهان الألمان على الإطلاق، إنَّهما وحشان حقيقيان من وحوش الغابات، ينتعلان حذاءين مصنوعين يدوياً ومحزومين بأسلاك، يرتديان معطفين عسكريين كأنهما منفوخان من الداخل، ثقيلين ومضحكين. كان الجنديان مبللَين، وقبعتاهما مقلوبتين وملفوفتين بخرق لا يمكن تحديدها. يحملان بندقيتين قصيرتين. عين الصواب، فمن يُسلِّم بنادق رشاشة لتنابل المؤخرة... لم ألحظ كيف تناولت مسدسي، واستهدفت مَنْ في أقصى اليمين. أمسك سانيتش مقبض المسدس، هزَّ رأسه، وكزَّ على أسنانه.

- ليس الآن... قال هامساً.

أبعدت السلاح. ليس الآن، مرة أخرى ليس الآن. مضى ما يقارب عامين، ولم أقتل أحداً.

صفَّر سانيتش صفيراً مرحاً ومنخفضاً في الوقت نفسه، كمنْ يلهو، ولكي لا يصل إلى مسافة بعيدة. توقَّف الألمانيان، لم يسحبا سلاحهما، وإنما راحا يحدِّقان بالدُّغل بقوَّة.

صفر سانيتش مرة أخرى.

ردَّ الألماني الجواب صفيراً أيضاً، ولوَّح بيده. كادت تجحظ عيناي؛ صارا يلوِّحان لنا. كانت أختي واقفة على الشرفة تلوِّح بيدها، ولما اندلعت النار في شعرها قفزتْ، ولم أتمكَّن من إمساكها...

التفتُّ بعيداً. أهو حلم، أم كابوس؟!، لا، إنَّها اليقظة. أفكِّر أحياناً أنَّ اليقظة غير موجودة علـى الإطلاق. كلُّ هذا سيستمر، ويتكرَّر: الغابـات، والطرقات التي تغطيها الثلوج، والوحول، والمنازل التي تفوح منها رائحة جزمات اللباد الشتوية، والحطب الرطب، والخبز على موقد الطوب، وكذلك الفئران الجائعة الشريرة التي تأكل آذان النيام المتجمدة من الصقيع، وأصوات محركات الطائرات التي تئزُّ في السماء، والنجوم المتألقة بسطوع باهر منذ كمٍّ من السنين.

هؤلاء فاشـيون. إنَّهـم... هم... كـلا، لقد فهمـت أنـه من الأفضل استراتيجياً أن نصبر عليهم، وأن نتحمَّلهم الآن، ومن الأفضل -أيضاً- أن نضربهم لاحقاً ضرباً مباشراً وبعنف، ثم نقتل كثيرين منهم، حتى يتحوَّل الثلج إلى اللون الأحمر، فالرمادي، وحين يبدأ بالذوبان في الربيع، ستظهر من تحته الأيدي ذات الأظافر السوداء الداكنة، لأننا دائماً ندفن قتلانا، أما هم فيدفنون قتلاهم كيفما اتُّفِق...

- راقبْ ذاك الذي بقي في الممر.

أخذت أراقبه، مهمة سهلة: راح الألماني الواقف في الممر يراوح مكانه، ويفرقع بكعبيه، وينظر حوله، لكنَّه لم يكن جباناً كثيراً، إما بسبب شعوره بالقوة، وإما لأنه مجرد أحمق، وإما لأنه اعتاد على المقايضة.

شقَّ الثاني طريقه عبر الثلج، وهو يرفع عالياً أطراف معطفه من جانبيه، فظهر تحته رداءٌ متعدِّد الألوان يرتديه طلباً للدفء، وسروالاً فضفاضاً مشدوداً على الخصر بخيوط حمراء.

- بطاطا مطاطا! بطاطا مطاطا!

كان يردد، وهو يبتسم كاشفاً عن أسنانه البنِّية. أما سانيتش فوقف متأهباً، إنما بهدوء، ويداه ظاهرتان. لوَّح الألماني -أيضاً- بيديه، وقد بدا الخوف في عينيه، يريد أن يعيش هذا الوغد. إنَّه عجوز، لكن كبار السن أكثر خطورة ثلاثة أضعاف كما يردِّد سانيتش دائماً، يبتسمون لك، ويبتسمون، ثم يطعنونك في الظهر بمسدَّس والتر.

اقتربا معاً من شجرة الصنوبر، وألقى الألماني حقيبته، فرنَّت الذخائر في داخلها، وكذلك القنابل اليدوية.

- حسناً. قال الألمانـي وهو ينظر إلـيَّ بريبة.

- قنابل يدوية؟ سأله سانيتش.

- حسناً.

فتح الألماني الحقيبة.

قنابلنا الليمونية. إنهم حتى لا يعرضون قنابلهم، لا أحد في حاجة إليها سوى النازيين أنفسهم، فهي تنفجر ببطء: اسحب شريط الأمان، وامسكها، ثم عدَّ، إذا رميتها في وقت مبكر، فسيعيدونها إليك، وإذا ألقوا بها في وقت مبكر، فيمكنك التقاطها للمرة الثالثة، كل هذا خطير. قنابلنا أكثر أماناً.

أدخل الألماني يديه دفعة واحدة في الحقيبة، وأخرج سبع قنابل كحبات البطاطا، ماسكاً إياها بين أصابعه الغليظة والطويلة. لا أحبُّ الأشخاص الذين لديهم مثل هذه الأيدي، لن يكونوا مصوِّرين، بل سيكونون قاذفي مدافع رشاشة جيدين.

- بيضاء؟ سجائر؟ شحم خنزير؟ أومأ الألماني إلى كيس القماش الخشن، وراح يلعق شفتيه.

أخرج سانيتش زجاجة ساموغون، وغرزها في الثلج. ظننت أن الألماني سوف يساوم، لكنه لم يساوم، وضع القنابل اليدوية في يدي سانيتش، ثم أخرج المتفجرات من الحقيبة.

- جيد.

هزَّ سانيتش رأسه، وسلَّمني القنابل، فخبَّأتُها في حقيبتي. اقترب الألماني، وناولني الصواعق[21]. لم أشأ أن ألمسها إطلاقاً، سحبت قبعتي ذات الأذنين ومددتها. لقد أدركت على الفور كيف يبدو ذلك: أنا أقف ماداً قبعتي أمام ذلك الفاشي، إنما بعد فوات الأوان، كان الفاشي قد وضع الصواعق فيها.

سحب الألماني الزجاجة من الثلج، ونزع سدَّادتها الفلّين، ثم جرع جرعة، فجحظت عيناه، ثم عبَّ جرعة أخرى، فلهث وراح يشمُّ كمَّه.

- واحدة بيضاء ثانية؟ ألقى الألماني نظرة منتشية على كيسينا.

قطَّب سانيتش حاجبيه.

ضحك الألماني، فكَّ معطفه الكبير، ثم فرشه على الثلج. كان يرتدي تحته رداء قطنياً عليه خطوط برتقالية وخضراء.

- موتَر، نكز الألماني جنبه، موتَر آوس رايخ.

- أرسلته أمي لي من الرايخ. ترجم سانيتش كلامه.

أفرغ الألماني حقيبته.

ثمة ما يقارب عشر قنابل أخرى، وعدَّة علب من طلقات الرشاش MP، ومسدسات والتر، وبراوننغ، وطلقات لهما. شرع سانيتش يدرس المقترح. وضع القنابل اليدوية جانباً، وفي المقابل وضع زجاجة. لم يساوم الألماني مرة أخرى، كما أنَّه لم يستطع مقاومة اختبار الساموغون.

- نخمِّره بالزبل. قال له سانيتش.

- الزبل جيد! ضحك الألماني مرة أخرى.

أخرج سانيتش علبة اللحم. فمسح الألماني شفتيه.

- أمريكا! طرق سانيتش بإصبعه على العلبة، مخصَّصة للجبهة!

أومأ الألماني بجدية، في حين أخذ سانيتش يفرز الطلقات برغم أنَّ الطلقات لم تكن تهمه كثيراً، وكذلك المسدسات. قلب سانيتش مسدَّس والتر بازدراء بين أصابعه، ورماه على المعطف، ثم انتصب واقفاً.

- مقرف، قال سانيتش، لا ينفع.

انحنى الفاشي، وصفَّق بيديه.

- نريد ساعة، أشار سانيتش بإصبعه إلى معصمه الأيسر، ساعة! الساعة، بخمس علب!

الساعة شيء نادر؛ في معسكرنا توجد ساعة لدى غليبوف، وساعة لدى سانيتش فقط. من الممكن استبدالها بعشر علب تماماً، لكن سانيتش يخفض السعر بشكل مقصود.

- خمسة!

أظهر للألماني أصابعه الخمسة.

التفت الفاشي إلى زميله وأومأ له برأسه، فاتجه الألماني في الممر الضيق نحونا شاقاً طريقه عبر الثلج بطريقة مختلفة، لم يرفع ساقيه، بل جرَّهما. اقترب منا، وشرع الفاشيان يتشاوران، وهما ينظران تارة إلينا، وتارة إلى العلب، مما أثار حفيظتي تماماً؛ بدا لي أنهما على وشك البدء بإطلاق النار.

لم يقلق سانيتش على الإطلاق، على العكس من ذلك، كشَّر عن أنيابه وراح يحدِّق في الشمس التي كانت لسبب ما ساطعة في ذلك اليوم، وأومأ لي وحدَّثني أنَّه خلال بضعة أيام سيكون من الممكن تذوق السمك النهري، الصقيع جيد، والسمك مدهن جداً، يكاد يخرج من مكمنه، لقد حان وقت نصب الشِّبّاك.

أخيراً، توافق الألمانيان على أمر ما: علّق الشخص، الذي كان واقفاً في الممر، بندقيته على كتف الآخر، ثم خلع الساعة من معصمه، وناولها لسانيتش.

- كرونومتر، هزَّ الفاشي الساعة، آلية!

تناول سانيتش الساعة، وقرَّبها من أذنه، ثم أومأ برأسه.

أخذ الفاشيان يجمعان علب اللحم.

- شوكولاتة؟ سألهما سانيتش، شوكولاتة؟ حلوى؟ سكاكر (سوكيركي)؟

- سوكيركي! قال الألماني بإعجاب.

تواصلت المبادلة، وقد تبيَّن أنَّه يوجد لدى الفاشيين كمية كبيرة من الشوكولاته، وقد نجح سانيتش في سحبها كلها. في النهاية، بقيت لدينا زجاجة واحدة من الساموغون. تبادل الألمانيان نظرات غير سارة، وجمع الألماني ما تبقَّى من مواد على معطفه، ثم وضعها في حقيبته، وارتدى المعطف فوق ردائه القطني، وهو يحدق بلوعة في الزجاجة، كأنها ملك له.

- حسناً، أتضحك، أيها العدو؟! غمز سانيتش بوقاحة وبهجة، هتلر كابوت[22]؟!

تملَّكني الخوف، إذ ظننت أنَ أمراً ما سيقع الآن لا محالة، لكنَّ الألماني اكتفى بالضحك فقط، غمز سانيتش بخبث، وسحب من علبة القناع المضاد للغازات مسدساً. يبدو أن سانيتش لم يكن قلقاً على الإطلاق، إنَّها الرقية حقاً...

لكن الفاشي لم يتناول مسدسه، بل قارورة أسطوانية ملساء عليها نقش أبيض مموج قليلاً. في مثل هذه القوارير تباع السكاكر.

- نيفيا... قرأ سانيتش، ما هذا؟

علا الابتهاج وجه الفاشي، وفتح غطاء القارورة بظفره، ثمة سائل زيتي أبيض في داخلها، انبعثت منه على الفور رائحة الكولونيا، وانتشرت في كل الاتجاهات، لم أسمع بذلك منذ وقت طويل، بصراحة لم أسمع بذلك قط.

- ما هذا؟ سأل سانيتش، فازلين، أم ماذا؟

- عطر! تصنَّع الفاشي وجهاً مبتهجاً، عطر باهر! عطر النبيذ، نبيذ نبادله بالعطر! قدمه لصديقتك! حالاً، حالاً!

قدَّم القارورة إلى سانيتش.

فكّر سانيتش لحظة، ثم تناول القارورة.

- شم، أيُّها الفدائي الصغير! ابتسم الألماني، هذه هي الحضارة!

استنشق سانيتش بحذر.

- جيد! صفق الألماني، جيد جداً! شفيس! عطر من زيوريخ!

ناولني سانيتش القارورة، كانت لا تزال دافئة، بالمناسبة دافئة ليس من يدي سانيتش، إنما من يدي الفاشي؛ فقد أمسكها فترة طويلة. استنشقت رائحة أزهار ممزوجة بمواد كيميائية أخرى، اخترقت الرائحة رئتي، وعلقت في حلقي، فشعرت برغبة في التقيّؤ، لحم المعلبات يلحُّ على الخروج من أمعائي، وأنا أبذل قصارى جهدي للحفاظ عليه؛ نصف علبة من ذلك اللحم، لا أريد أن أفقد نصف علبة منه...

أعدت القارورة إلى سانيتش، واتجهت إلى شجرة التنُّوب. في حين استمرَّ سانيتش يساوم الفاشيين في ذلك الوقت. لم أسمع ما قاله، وبما أجابه الألمانيان، رحت أمضغ أوراق التنُّوب الإبرية، أمضغها كي أكبح الإقياء، فامتلأ فمي باللعاب، وأخذت أبصقه طوال الوقت، غير أنَّه استمر يملأ فمي أكثر فأكثر، وانتشرت حولي على الثلج بقع اللعاب الخضراء، لم أستطع التخلُّص من رائحة الكريم السويسري في حلقي.

عندئذ أغمضت عيني، وبدأت أتخيل الليمون، كنت أقضم الليمون المجمد، الحامض، المرَّ، البارد، غزير العصير، ولم ينحسر الغثيان، أخذت أرجوحة تدور في رأسي، وأنا أصبر وأضغط على قبضتي.

أصبر وأضغط.

- هل تشكو من شيء؟ سألني سانيتش.

فتحت عيني.

كان يقف إلى جواري.

هززت رأسي.

- سوف تمر. إنما احبس أنفاسك فترة أطول.

استنشقت الهواء، ورحت أنتظر.

- صادفنا فاشيين غير جشعين، قال سانيتش، يبدو، أنهما يعملان في المستشفى، ينزعان الأعضاء من الجثث. لديهم الكثير من الجثث، هذا جيد. وهما جائعان، يطلبان الطعام. في المرة القادمة سنقايضهم على ساعة لك. احبس نفسك، تماسك!

حبست نفسي دقيقة على الأرجح، ثم تنهدت.

- أنا لست في حاجة إلى ساعة. أجبته بصعوبة.

- حسناً، سنؤمن لك ساعة عادية من صناعتنا؛ سوفيتية، لدى الطيارين ساعات جيدة، إنَّهم يبادلونها بمكنة حلاقة. أما زلت تشعر بالغثيان؟

- ليس بحدة.

- حسناً، جيد. دعنا نذهب.

ناولني حقيبة الظهر الأصغر حجماً والأخف وزناً، ومضينا باتجاه معسكرنا. سنمضي يومين كاملين نتسكع، مساء سنكون في كوخ غروشا، حيث سنقضي الليل، ثم نعود عبر المستنقعات، المسافة من هناك ليست بعيدة.

- أما زلت تشعر بالغثيان؟ سألني سانيتش.

- لا.

لم أعد أشعر بالغثيان فعلاً.

- يمكنك أيضاً أن تعضَّ خدَّك، نصحني سانيتش، سيساعدك ذلك أيضاً، أو أكثِر من التنفس هكذا؛ تخرج لسانك خارج فمك في الوقت نفسه.

أخرج لسانه وتنفَّس، أصبح يشبه كلب البولدوغ، لقد رأيته ذات مرة، الفرق أنَّه كان يحمل ميداليات. أعني أن البولدوغ حمل الميداليات.

- الأسهل وضع ثلج على عظمة الأنف، لكنَّه سيسيل على الفور، أو عليك أن تجمد ولا تتحرك. لقد رأيت كيف أغمضت عينيك، هذا خطأ: ينبغي ألا تغمض عينيك بأي شكل من الأشكال، بل على العكس، ينبغي أن تحدِّق بنقطة واحدة ولا تتحرك. ويمكنك أيضاً مضغ التوت البري... انظر ماذا بادلت ذلك الوغد.

توقَّف سانيتش، ودسَّ يده في عبه، ثم أخرج علبة بدت لي مسطحة. لم أعرف كنهها مباشرة.

لقد أراد الألماني مبادلتها بنصف زجاجة، قال سانيتش، أما أنا فقد ساومته على الربع. ثقيلة، تزن نصف كيلو تقريباً.

ناولني قالباً ضخماً من الشكولاتة، لم أر مثل نصفه قط، لا في وزنه، ولا في حجمه، ربما يعادل ستة قوالب عادية، أو حتى ثمانية. أطول من كتاب مدرسي، وسمكه بسمك الإبهام وذو مربعات مضلَّعة، مغلف بورق السلوفان فضلاً عن ورق بني سميك ورقيق. لست أدري لماذا خمنت مباشرة أنَّ تحت عبوة الشوكولاتة، ثمة شوكولاتة حقيقية مجمدة صلبة ورمادية قليلاً.

- إنه لأمر مؤسف، حقاً، أنَّه كُسر، لكن لا بأس، سوف أجبِّره لاحقاً. كيف وجدته؟

تنهَّدت بإعجاب.

- شوكولاتة سوكيركا بالكامل، راح سانيتش يشرح لي، صنع خصيصاً لمناسبة الاستيلاء على موسكو المقرَّر هذا العام.

ضحك ساخراً، وأعاد قالب الشوكولاتة إلى مكانه.

- على أي حال... هززت رأسي، هذا طعام فاشي...

- هراء، بصق سانيتش، هراء... هذه غنيمة، لكلِّ شيء موقعه الحقيقي: ألا يوجد لديك مسدس م. ب؟ يمكنك إطلاق النار منه، لا بأس، والشوكولاتة هي الشوكولاتة... مثلها مثل القنبلة تقريباً؛ وزنها قليل، وفعلها كبير، ثم هل تعلم أن غليبوف نفسه، أوصاني بأن أحصل على الشوكولاتة إن أمكن. رجال الاستطلاع في حاجة إلى تناول الطعام الجيد، حتى لا يغمى عليهم في أثناء التنقلات. هل هذا واضح؟

- واضح. وافقته الرأي.

- لا داعي للنقاش، أيها المناضل. سارع الخطا.

لم يعد ثمة مكان للإسراع إليه، برغم ذلك بذلت جهدي. أما مسألة الشوكولاتة فقد برزت أكثر من مرة في طريق العودة إلى المعسكر: إذ راح سانيتش، من دون سبب، يتحدَّث عن غنائم الشوكولاتة، وغنائم الشاي، وغنائم القهوة.

- الشاي لا ينمو في ألمانيا، يعرف الجميع ذلك، قال سانيتش، والقهوة أيضاً، رغم أنهم يصنعونها من الشعير، أما الشوكولاتة فإنَّهم بالتأكيد يحضرونها من أفريقيا؛ من ثم فإنَّ كل هذه الأشياء ليست ألمانية على الإطلاق...

أو أمر آخر:

- المنتجات ليس لها جنسية: إذا استولينا، على سبيل المثال، على الكيروسين، فإننا لن نسكبه على الأرض، بل سنستخدمه في المصابيح. أليس كذلك؟

أردت أن أقول إننا لا نشرب الكيروسين، لكن سانيتش تذكَّر الدواء مباشرة.

- أو لنأخذ الدواء؛ نحن نستولي على الأدوية الألمانية، ماذا نفعل بها، هل نرميها بعيداً، أم ماذا؟ لا، ينبغي إنقاذ الجرحى. أما حين ندخل ألمانيا، فسيكون كل شيء ألمانياً عموماً.

- لماذا؟ أنا لم أفهم، لماذا ندخل ألمانيا؟

- لماذا؟؟ أتظن أننا سنتوقف عند الحدود؟! كلا! سنضطر إلى احتلال ألمانيا بأكملها حتى آخر شبر، كي لا يفكروا في الاعتداء علينا مرة أخرى. طبعاً، سيقبض على هتلر، وسينقل إلى موسكو، وسيوضع في قفص زجاجي، وسيمر الجميع ويبصقون عليه، وسيشيدون مثل هذا القفص في كل مدينة، سيكون هناك ما يكفي من الفاشيين لروسيا بأكملها، كما قلت لك فعلاً.

طغت مسألة البناء بعد الحرب على سانيتش فجأة، وراح يضع الرؤى لكيفية تنظيم كل شيء لاحقاً، بعد النصر.

- بعد الحرب، سيوضع ألماني تحت تصرف كل شخص سوفييتي، دعهم يصلحون ما دمَّروه. لن نحتاج إلى ألمانيا نفسها، لم يعد يوجد فيها أي شيء مفيد، لقد استهلك الألمان كلَّ شيء فعلاً، إنما ليس من الضروري رميها أيضاً. سوف نعيد توطين جماعتنا هناك، في مكان ما في الشمال، وسيعلِّمون الألمان بسرعة العيش بشكل صحيح. سنعيد ضم فنلندا، لا مجال للصداقة مع الألمان، سيصبح اسمها جمهورية فنلندا السوفيتية...

- ما حاجتنا إلى فنلندا هذه؟ اعترضت على كلامه، لا يوجد فيها سوى أشجار التنوب والبعوض.

- لماذا؟؟ والموانئ؟ وحماية حدودنا الشمالية؟ لقد قاتلناهم فعلاً مرة، هذا أولاً، ثم إنَّهم مدينون لنا عن مدينة لينينغراد، فهم يحاصرونها من الشمال. فنلندا مذنبة أيضاً...

بدأنا الجدال حول فنلندا، وبولندا وغيرهما من البلدان الأخرى، كان ذلك مسلياً وممتعاً للغاية، فقد مرَّ الوقت، على أي حال، بشكل أسرع، ثم بدأنا نلعب لعبة البلدان: يختار واحدنا بلداً ويصفه: أي أناس يعيشون فيه، وما أنواع الأشجار التي تنمو فيه، والحيوانات التي تعيش فيه، وعلى الآخر أن يخمِّن اسم ذلك البلد. لقد خسرت اللعبة: تبين أنَّ سانيتش يعرف كثيراً من الدول بشكل مدهش، لم يخمِّن منغوليا وحدها. هكذا استمرَّت اللعبة حتى وصلنا إلى غروشا.

بعد يوم ونصف عدنا إلى المخيم، وتوجهنا مباشرة إلى غليبوف. كما هو متوقع قدَّم سانيتش تقريراً عن الوضع، أما أنا فجلست إلى جوار المنضدة أحدِّق في الفطائر؛ فطائر حقيقية مصنوعة من

الطحين الأبيض، موضوعة في صحن معدني تلمع بقطرات من الزيت، وإلى جوارها ثمة مرطبان من خشب البتولا، خمَّنت أنَّه يحتوي على المربى، طبعاً ليس مربى السمورودنا الأسود الحلو جداً، إنما مربى على أي حال. الفطائر، والمربى مخصَّصة لنا.

لكننا لم نبدأ بتناول الفطائر على الفور، فقد حضر شيتِّيكوف ومعه آخرون. وضع سانيتش حقيبتي الظهر، وبدأ بتوزيع الغنائم. في البداية، وضع كلَّ شيء أمام شيتِّيكوف، الذي فحص كل شيء ووضعه جانباً، حسب العائدية، واحتفظ بالقنابل اليدوية لنفسه.

كان سانيتش في مزاج جيد، وشرع يمزح:

- هل تعلمون لماذا أخذ شيتِّيكوف كلَّ القنابل اليدوية لنفسه؟ إنَّه يريد أن يحفر بعناية على كل قنبلة يدوية: «الموت للفاشيين»، بالإضافة إلى علامات أخرى غير لائقة.

سعل غليبوف.

- مهنة إيغور إيفانوفيتش الحقيقية هي صنع الساعات، راح سانيتش يتحدَّث، إنه معلم ذو يدين ذهبيتين، ينفذ أدقَّ الأعمال مغمضَ العينين. يقوم بالعمل نفسه على الخراطيش، فعلى كل خرطوشة يمكن أن تقرأ: «شيتِّيكوف إي. إي مع التحية السوفيتية». حقاً، نحتاج لقراءتها إلى عدسة مكبرة، فهي غير مرئية. هل تعلم أنه ذات مرة ركَّب خمس عشرة ساعة، ووضع في كل ساعة إبرة مسمومة معلَّقة بنابض، ثم وضعها في صندوق وألقاها على طريق بسكوف؟ سُرَّ الفاشيون، وتقاسموا الساعات، وفي تمام الساعة الواحدة بعد الظهر، انغرزت الإبر في معاصم الأعداء! كانت الحصيلة خمس عشرة جثة!

في هذه المرة سعل شيتِّيكوف، ونظر إليه الرجال باحترام أكبر.

- بالمناسبة، هذه ساعة، أخرج سانيتش الساعة، إنما هذه الساعة من نصيب ليكوف... أين ليكوف؟ غير موجود؟

- إنه يطبخ العصيدة، قال شيتِّيكوف، الأفضل أن تقدِّمها لي، أنا في حاجة حقاً إلى ساعة جيدة... نظر إلى غليبوف، أنا لم أصنع أي ساعة مسمومة، إنَّه يؤلِّف كل شيء.

- صنعت، الجميع يعلمون. أنا لن أعطيك الساعة يا شيتِّيكوف، إن أعطيتك الساعة فستحولها على الفور إلى قنبلة.

- أما ليكوف فهل يحولها إلى عصيدة؟ سأل شيتِّيكوف، فضحك الجميع قليلاً.

- لا، إنَّها من نصيب ليكوف حقاً. دائماً يحرق الطبيخ أو يقدِّمه غير مطهو جيداً، الآن سيجعله صالحاً للأكل، وفي المرة القادمة سوف أحضر ساعة لشينِّيكوف...

دخل كوفالِتْس المخبأ بحذر، تماماً مثل جوقة، وراح ينظر بتؤدة في موادنا. طبعاً، لاحظ سانيتش ذلك.

- لكوفالِتْس نصيبه أيضاً، قال سانيتش، حسب طلبه تماماً.

- أنا لم أطلب منك أي شيء، شرع كوفالِتْس يسحب قفازه الجلدي الأسود، الذي لم أر مثله لدى أي شخص في معسكرنا حتى الآن.

- أنت ببساطة نسيت، دسَّ سانيتش يده في جيبه، لقد نسيت.

ناول سانيتش كوفالِتْس قارورة زرقاء صغيرة.

- هذا مسحوق مضاد للبراغيث، قال أحدهم من الجانب الآخر، لقد رأيت مثله ذات مرة.

أخذ كوفالِتْس يسحب قفازه الثاني.

- هذا ليس مسحوقاً مضاداً للبراغيث على الإطلاق، صحَّح سانيتش، إنه على العكس فازلين للحلاقة، لكي تواصل إثارة الغزاة الألمان الفاشيين بجمالك!

ضحكنا بصوت عال، وأخفى كوفالِتْس قفازيه في جيبه. لم يتقاتلا، إنما في وقت لاحق في المساء، ولم يعط سانيتش قالب الشوكولاته لأي شخص.

الفصل السابع

طبعاً كالعادة، أيقظنا كوفالِتْس بطريقة الخنازير، كما يحبُّ أن يفعل دائماً: تسلَّل إلى مخبئنا، وجلس قبالتنا على السرير، وأخذ يئن، ثم قدَّم لنا تبغاً ممزوجاً بالطحالب.

- كوفالِتْس، هل صحيح أنك قبَّلت حورية البحر؟ سأله سانيتش.

غصَّ كوفالِتْس فراح يسعل، وصفع قذاله براحة يده.

- وأصبت بعد ذلك بالحزاز، انقلب سانيتش على ظهره، وأخذ يفحص أظفاره، الجميع يعرف ذلك.

- لقد أصبت بالعدوى من القطة! تنهد كوفالِتْس، لقد جلبت ابنة خالتي قطة...

- آه، إذاً قبَّلت القطة...

هبَّ كوفالِتْس واقفاً، فاصطدم رأسه بعارضة السقف، وسقطت فوقه خنافس أيار، ووقعت في ياقته. ارتعد جسد كوفالِتْس، كما لو كانت تلك الخنافس حيَّة.

- ينبغي أن تكون حذراً، تثاءب سانيتش، ليس لديَّ وقت لإصلاح المخبأ، في كل مرة تزورنا تحطِّم كل شيء برأسك، ينبغي أن أبلغ غليبوف، كي لا يسلِّمك خوذة، لديك رأس يرتد الرصاص عنه.

مزَّق كوفالِتْس سترته، وخلع قميصه، فسقطت خنافس أيار على الأرض، وراح يدوس عليها بشراسة، فعلت الطقطقة.

أخذ سانيتش يراقبه.

- الأفضل لك لو تقتل الألمان على هذا النحو، نصحه سانيتش، وإلا ستصاب بالترهل. تارة تشكو من ضيق الحذاء، وتارة تمتعض وتجد الأعذار.

هل مرضت يا كوفالِتْس، في الوقت المحدد، أم على العكس، ليس في الوقت المحدد؟

- إلى ماذا تلمح؟

نسي كوفالِتْس عقب السيجارة، فحرقت أصابعه وراح يصرخ، ورمى سيجارته.

- أنا أقول، قلِّل علاقتك بالقطط، هذا ما أقوله.

ركل كوفالِتْس الجدار غاضباً، في حين لزم سانيتش الصمت.

- لقد منحكما غليبوف سبعة أيام، قال كوفالِتْس حانقاً، اتركا سلاحكما، يمكنكما أن تغادرا، على أن تعودا بحلول يوم الجمعة. هذا كل شيء.

استدار وخرج واثباً من المخبأ ساحقاً الخنافس في طريقه. أما سانيتش فقفز من السرير.

- استعد! وكزني في خاصرتي، استعد، سنذهب!

- إلى أين نحن ذاهبون؟ لم أفهم.

- نذهب إلـيَّ! إلى بيتنا! منحَنا غليبوف إجازة. لماذا أنت جالس: سبعة أيام قليلة جداً: يومان في الطريق إلى هناك، ويومان للعودة، وثلاثة أيام في المنزل. دعنا نسترِح...

أنزلت ساقي عن السرير. كـان سانيتش قد ارتـدى ملابسـه، وراح يعبئ حقيبته القماشـية: وضع فيها شوكولاتة، وبعض السُكَّر، وقطعتين من معلبات اللحـم، وتبغاً. أن نذهب إلـى البيت، هذا أمر عظيم. ينبغـي أن أشعر بالحزن والحنين، لكننـي لـم أشعر بأي شيء من هذا القبيل. راح دخان كوفالِتْس الغبي يلسع حلقي، أردت السعال، وانتابني الغضب مرة أخرى، ليتنا نمنا ثلاث ساعات أخرى.

- لماذا تجلس؟ وكزني سانيتش في كتفي.

- في الحقيقة، أنا... ربما لن أذهب... الطريق طويل، ورجلي تؤلمني. واليوم صقيع. هلا، أنت...

تناولت كيسي القماش، ووضعت فيه بعض الأشياء: ثلاث علب من تبغ ماخوركا، وقطعة شوكولاتة أحتفظ بها لرأس السنة الجديدة، وعدة مكعَّبات من السُكَّر ملفوفة في ورقة، واحد منها يشبه كعكة مستديرة. مضحك للغاية مكعَّب السُكَّر هذا، ثلاثاً من علب اللحم الأمريكية، وبسكويت.

جمعت كلَّ هذا الخير معاً، ووضعته على سرير سانيتش.

- قدمها لأقاربك، لديك أخوات، والفتيات يحببن الحلوى.

جمع سانيتش مؤونتي بصمت، ووضعها في حقيبة الظهر، ولم يقل شيئاً. يعجبني هذا الأمر فيه أيضاً، فهو لا يثرثر بما لا يعنيه، غيره كان سيبدأ: كلا إطلاقاً، لن آخذها، لا، خذ عشر كوبيكات مني، إنما لا، لست في حاجة إلى عشر كوبيكات...

- حسناً، قال سانيتش، لديك خمس دقائق.

- ماذا؟ سألته.

- سأنتظرك خمس دقائق تحت شجرة الصنوبر، خمس دقائق، هذا كل شيء.

ألقى سانيتش الكيس على كتفه، وقفز خارجاً، ثم عاد، وقال بصرامة:

- انظر إلـيَّ! إذا لم تذهب... توعَّدني بقبضته، إذا لم تذهب، فسوف أنزعج، فهمت؟

طبعاً، من الأفضل عدم إزعاج سانيتش، حزمت أمتعتي بسرعة. حسناً، لأذهب في زيارة، بدلاً من أن أجلس هنا أسبوعاً كاملاً أقضيه بالتجوُّل هنا وهناك. لنر كيف كان سانيتش يعيش. لن أشعر بالملل، فضلاً عن أنني إذا لم أذهب، فإن كوفالِتْس سيسخِّرني في تقطيع الخشب ونشره، وسيخترع عملاً آخر، وسيشرع بالتأمُّر والتذمُّر وإبداء الاستياء، وسيعلمني ما هي الأمور الصحيحة...

الأفضل أن أذهب إلى سانيتش. طبعاً، أصبح الجو صقيعاً الآن، وسترتي المبطنة مُهلهلة لا تقي من البرد، فما بالك مع العاصفة الثلجية، إنما الصقيع أفضل من كوفالِتْس.

انتشرت في الهواء رائحة الدخان والخميرة. كان سانيتش يتحدَّث مع ليكوف في أمر ما؛ طبعاً، يحاول تسوُّل شيء ما على الطريق، وسينال مراده بطبيعة الحال. دخل ليكوف المطبخ، ثم عاد من جديد، وناول سانيتش حزمة. لوَّح لي، وأنا لوَّحت له أيضاً.

اقترب سانيتش وهو يهزُّ الحزمة.

- عصيدة، قال لي، تزن كيلوغرامين، من القمح، مع البصل والفطر. آ؟ ما رأيك؟

- حسناً فعلت.

- هكذا إذاً، لم نعطه الساعة عبثاً، تعلم سنسير طوال اليوم، هيا إلى الأمام، إلى الشمال أولاً...

في البداية نحو الشمال عبر المستنقع، نتزحلق بين التلال فوق الجليد، ونتثبت من المنحدرات غير الواضحة بالأشجار ذات الأغصان المكسَّرة، ونحاول الابتعاد عن الينابيع المتدفقة في الأسفل التي تعلوها طبقات هشَّة من الجليد الرقيق. امتدَّ المستنقع مسافة طويلة، لقد خرجنا منه فعلاً بعد الظهر، وداهمتنا على الفور عاصفة ريح هوجاء. في عام أربعين وتسعمائة وألف، ضرب المنطقة إعصار، كسح الأشجار، وفيما بعد نبتت بينها أشجار البتولا الصغيرة، فأصبحت المنطقة تشبه المتاهة: من المستحيل عبورها بالتأكيد. إنه مشهد حقيقي، تعجز سرية بل فصيل عن عبوره. لذا لا طائل من قصفنا جواً؛ ففوقنا غابة فوقها غابة.

في المستنقع، لزم سانيتش الصمت، وراح ينظر إلى الأعلى وإلى مختلف الجوانب، وما إن داهمتنا العاصفة، حتى أخذ يتذكر طفولته؛ غالباً تذكَّر مشاويره في الغابة وبين الأنهار، وكيف ضاع في

الغابة، وغرق في النهر، وكيف سقط من برج الجرس، وجرَّب التصويب من بندقية حقيقية مزدوجة، وصنع سهاماً نارية ذاتية الدفع من أعواد الثقاب، وتشاجر مع أولاد من القرية المجاورة.

لقد اعتدت الاستماع. غير أن سانيتش سئم خلال وقت قصير من الحديث عن نفسه، واقترح علـيَّ أن أتحدث في أمر ما. لم تكن لدي رغبة حقاً في الحديث عن طفولتي، لأنَّها بالمقارنة مع حياة سانيتش، كانت عادية ورتيبة للغاية. حسناً، هل الحديث عن التصوير الفوتوغرافي ممتع. ذات مرة حاولت أن أحدثه عن التصوير، إنما ما إن شرعت بالحديث عن تركيب الضوء، حتى أخذ سانيتش يتثاءب ويحكُّ أنفه.

لذلك، اقترحت أن أحدثه حول كتاب ما. رحَّب سانيتش بالفكرة، إنما اقترح ألا يكون ذلك الكتاب بسيطاً عن الطبيعة، أو عن الحبِّ، بل عن الحرب.

شرعت أتذكَّر كتباً عن الحرب، بيد أنني لم أتذكَّر إلا كتاباً واحداً فقط.

- عن الحرب؟ أكَّد سانيتش.

- حسناً، تقريباً، كيف هاجم سكان المريخ الأرض. أخذ سانيتش ينظر في السماء، لم يكن الظلام قد حلَّ بعد، لكن لاحت نجوم متفرقة فعلاً في بعض الأماكن، ربما كان المريخ بينها، لكنني لم أعرف في أي زاوية من السماء يختبئ.

- ناس من المريخ؟ استوضح سانيتش مدققاً.

- لا، ليسوا أناساً، بل يشبهون الأخطبوطات، حطُّوا في إسطوانات من الفضاء، وحين خروجوا منها قضوا على الناس جميعاً بالأشعة الحرارية، ثم شيدوا حاملات مثل الخزانات، إنما على سيقان، وراحوا يطلقون تلك الأشعة ذات اليمين وذات اليسار.

أبدى سانيتش اهتمامه، وقد أصغى وأنا أحدثه، كيف أنَّ الناس في البداية لم يفهموا ماذا يحدث، وما هو مصدر ذلك، ولم يفهموا ماذا يبغي سكان المريخ، ثم تبين أنهم يبغون شيئاً واحداً فقط: يريدون استخراج الدم من الناس، فوضعوهم في زنازين. حدثته حديث إنسان كأنَّه كان في المكان الذي هبط فيه سكان المريخ، وشاهدهم وهم يحتلون الأرض...

- ماذا عن الجيش؟ توقف سانيتش، كيف كان ردُّه؟

- في البداية ظنوا أن سكان المريخ أصدقاء، وكان من الضروري تدمير كل تلك الإسطوانات فوراً، وعدم الانتظار حتى تبدأ بالزحف. ولما وقف سكان المريخ على الخزانات ثلاثية السيقان، أخذوا يقتلون الجميع مباشرة، ولم تفلح أي وسيلة في مقاومتهم.

- لماذا؟

- كانت لديهم دروع لا يمكن اختراقها، وقد قضي على ثلاثة فقط من القادمين من خارج الأرض طوال عملية الغزو، في حين دمروا هم جميع الجيوش على الأرض باستخدام الأشعة الحرارية.

حدثته عن الشعاع الحراري، وعن المدافع ذات المحركات الغازية، وكيف تعطَّلت الرؤوس الحربية المميزة. بدأ سكان المريخ ثلاثيو السيقان يتقدمون، وأخذ كل شيء يحترق، وينفجر، لم يستطع الجيش فعل أي شيء على الإطلاق، ودبَّ الذعر والفوضى...

- اللاجئون واللصوص، تابع سانيتش، نعم، هذا ما ينبغي أن يحدث، هجوم غادر من دون إعلان حرب، وقصف المطارات، فضلاً عن أنَّ أسلحتهم هي الأقوى منذ البداية؛ الشعاع الحراري، كما تقول؟

- نعم، لقد كان يشطر كلَّ من يقاومه إلى نصفين، ويفجِّر المنازل، وإذا سقط في الماء، تتبخر مياه البحيرة فوراً، وكلُّ مَن حولها يسلق حياً.

- كيف تصرَّف السكان؟ سأل سانيتش بقلق، هل أبدوا مقاومة؟

- طبعاً. لكنك تدرك أنَّه لا يمكن حقاً مقاومة ثلاثيِّي السيقان؛ لقد هرب الناس ببساطة، وأولئك الأقوى، اختبؤوا جميعاً في المجاري...

- وأين حدث ذلك بالضبط؟ سألني سانيتش بخفَّة.

- في إنجلترا.

- أصبح الأمر واضحاً الآن، وكيف انتهى ذلك؟ هل هزموا القادمين من المريخ؟

- ماذا أقول لك: بينما كان ثمة بطل يتجول في جميع أنحاء إنجلترا، شاهد الدمار في كل مكان: كل شيء يحترق، والجثث تحيط به من جميع الجهات، والكلاب تعدو، ولا وجود لأي شخص حي على الإطلاق. انتاب ذلك الرجل الشك في أنَّه الوحيد تماماً الذي بقي حياً على سطح الأرض، وأنَّهم التهموا الباقين جميعاً، فأصيب بالانزعاج لدرجة أنه فقد عقله.

- فقد عقله تماماً، أم ماذا؟ سألني سانيتش بخيبة أمل.

- لا، مؤقتاً. أصيب بجنون مؤقت، كما حدث مع زميلنا كولوبايف لـمَّا فقد ذاكرته، وحين عاد إليه وعيه، اكتشف أن الأمر قد انتهى، وانقرض القادمون من المريخ جميعاً.

- كيف؟

- من الجراثيم، لقد شرب المريخيون الدماء، التي كانت تحتوي على جراثيم، فأهلكتهم جميعاً.

هزَّ سانيتش رأسه.

- أليس الكاتب إنجليزياً أيضاً على ما يبدو؟ سألني.

- نعم، على ما يبدو.

- هذا مفهوم. البريطانيون يبذلون قصارى جهدهم كي تخدمهم الميكروبات؛ فعوضاً عن أن يتكاتفوا، ويجمعوا أنفسهم ويقتلوا هذه الأخطبوطات القذرة، أوكلوا هذه المسألة إلى الميكروبات.
ضحك سانيتش.

- عموماً، لديهم مقولة صحيحة: يجب غسل اليدين قبل الطعام، مع أنني، على سبيل المثال، أستطيع تناول الطعام من دون أن أستخدم يدي، حتى حساء الملفوف الساخن.

أنا لم أصدِّق ذلك.

- الأمر في غاية البساطة؛ في قريتنا عاش بروتاسوف وكانت يداه قد قطعتا في الحرب الإمبريالية، فصار يستخدم قدميه للقيام بجميع الأعمال، حتى الخياطة.

- هل كان يأكل بقدميه أيضاً؟

- لا، لقد كان يأكل من دون استخدام رجليه على الإطلاق: كانت زوجته تصبُّ حساء الملفوف في كوب، وهو يضع فيه نصف رغيف من الخبز، فيمتصُّ الخبز حساء الملفوف بأكمله، وبعدئذ يستطيع أكله فعلاً، وفي النهاية يتجمَّع الباقي في القاع بسهولة. لقد جرَّبت ذلك ونجحت.

نتيجة الحديث عن الطعام، أخذت أمعائي، كما هو الحال دائماً، تقرقر بصوت عال، فسمع سانيتش ذلك وطمأنني:

- لا تخف، سنكون قريباً في كراسني دور، حيث سنتناول الطعام. هناك ابنة أخت شيبِّيكوف، وهي تخبز الخبز. سنكون هناك في غضون ثلاث ساعات.

إنما لم يسعفنا الوقت في تناول حساء قريبته، كما لم يسعفنا في تناول الخبز، وحساء الملفوف، ونيل الدفء، إذ هبَّت علينا عاصفة ثلجية من الغابة، وفي لحظة وجدنا أنفسنا داخل زوبعة ثلجية تحيط بنا من جميع الجهات، فضاع الممر، وتوقَّف سانيتش، وفجأة ساد البرد.

- تأخرنا، تثاءب سانيتش، بقي أمامنا خمسة عشر كيلومتراً.

- ربما نقطعها تزلّـجاً؟ خمسة عشر كيلومتراً مسافة ليست بعيدة...

هزَّ سانيتش رأسه.

- لن نقطعها تزلُّـجاً، قال لي، اللعنة!

أصبحت شتائمه أقذع، قضاء ليلة في الغابة، لا يثير الخوف. عموماً، هذه ليست أول مرة... إنما ليس اليوم، اليوم الحرارة أدنى من ناقص ثلاثين، فضلاً عن أنَّه لا يمكن إشعال النار هنا أثناء عاصفة ثلجية، لذلك كنا بحاجة إلى موقد، ولكن علينا أن نحمله مدَّة ثلاث ساعات تقريباً في هذه الممرات، وسينقطع نفسنا حتى نركِّبه.

- يوجد مكان، أومأ باتجاه النهر، ليس بعيداً، إنما...

- إنما ماذا؟

- لا شيء، هكذا، هيَّـا إلى النهر.

استدار سانيتش بحدة إلى اليمين.

هرعنا إلى النهر، حيث كان الجو أبرد وأخطر، وعرَّى هبوب الرياح الجليد؛ نظرت إلى أسفل فشاهدت الظلام. كان الجليد شفافاً، تتخلَّله خطوط فضية رفيعة تكاد تلحظ، وتحته مياه قاتمة. وبينما انعكست صور النجوم، استمرَّ تدفُّق المياه، لذلك شعرت بحركة تحت حذائي: إذ تلألأت النجوم وتماوجت كأنَّها حيَّـة، وكأنني أسير في السماء. كان العمق محسوساً، من غير المحتمل أن يزيد هنا عن خمسة أمتار، لكنني شعرت بهوة سحيقة تحت كعبي. ولسبب ما توقفنا في منتصف النهر، وراح سانيتش يصغي من جديد إلى عواء الرياح.

بدأت أسناني تصطكُّ، ورحت أرقص على الجليد محاولاً، مع ذلك، عدم النط، إنما لتمرين قدمي. توجَّه سانيتش إلى الضفة المقابلة، وهو يحدِّق بالسفوح والشاطئ ولم يكن هناك أي مخرج على الإطلاق: الرياح تهبُّ عاصفة، والثلوج غطَّت المنحدرات. المنحدرات غير سالكة. سرنا باتجاه الشط.

- هذه هي الضفة، أومأ سانيتش إلى حقل ثلجي، الرمال جيدة هنا. لقد حتت المياه الصدف منذ القدم. لو تجمعها وتطحنها، فستحصل حينئذٍ على مسحوق ينظف الأسنان، ويجعلها بيضاء لامعة. يأتون من بسكوف إلى هنا بحثاً عن هذا الصدف... طالما وصلنا، دعنا نمضي إلى هناك.

استدار بحدة إلى اليمين. الثلج هنا عميق، يصل إلـى ما فوق الركبة، تعلوه قشرة متجمِّدة؛ عبرنا منطقة المياه الضحلة، وأخذنا نخوض في بستان البتولا، وقد تبين أنَّ الثلج هنا أقل مما في النهر، على الرغم من ذلك كان المشي أصعب على أي حال، حتى بالنسبة إلى سانيتش، غير أنَّه يشبه قطاراً مدرعاً في صحارى السهوب، لقد سهَّل علـيَّ الطريق. بدا لـي أنَّه لا يتعب على الإطلاق،

إنما لا يمكن مقارنة عملية صهر الفولاذ مع التصوير، كما أن نادي «الاستعداد للعمل والدفاع» هنا لا يمكن أن يساعد أيضاً، أي «استعداد للعمل والدفاع» هنا...

- ما الذي نبحث عنه؟ سألته.

- توجد هنا قرية... كانت موجودة هنا سابقاً... هل تسمع؟

توقف كي لا تُسمع طقطقة الثلج تحت قدميه. ثمة صوت أنين، صوت عميق طويل، كأنَّ أحداً يبكي، ليس أفضل أصوات الغبش الزاحف، لكن أقوى من العاصفة الثلجية، وأكثر حدَّة من الريح وزوبعة ثلج قوية.

- لقد توقفنا هنا العام الماضي، قال سانيتش، ثمة صمت، لا أحد يزورها، إنها تنعم بالهدوء... قرية ميتة، ميتة تماماً.

- هل خربوها؟

- لا، كان ذلك قبل الحرب... هناك شيء ما... حسناً، دعنا نذهب، وإلا سأبكي قريباً من الصقيع. إنها قريبة من هنا فعلاً، عبر حرش البتولا.

حرش البتولا، لم يعجبني أنا أيضاً، لقد نزعوا قشور أشجار البتولا، عادةً لا تهترئ قشور أشجار البتولا الحية، لكن هذا... مكان سيء.

بُنيت القرية نفسها على هضبة وسط حقل، أي كان يوجد هنا حقل في الماضي. الآن، مثله مثل أي حقل منسي، تنتشر فيه أشجار البتولا الرقيقة، التي يصعب المرور عبرها، أخذت الأشجار تدفع ظهرينا، وتسوط وجهينا. لم تعجبني أشجار البتولا هذه على الإطلاق، أما سانيتش فقد أخبرني أنَّها تصلح لصنع قضبان صنارات ممتازة.

صعدنا إلى أعلى هضبة، ورأينا من أين يأتي صوت الصرير؛ إنها رافعات الماء. عموماً، لا توجد لدينا -تقريباً- آبار مزوَّدة بروافع، نستخدم السلاسل والعجلات عوضاً عنها، لكن ثمة من يحصل على الماء، ببساطة، بواسطة مغرفة ذات مقبض طويل. أما هنا فيستخدمون الروافع. لقد انهارت جدران الآبار منذ فترة طويلة، وبقيت الروافع مهملة، تدور تحت وقع الرياح، وتقرع قطعها الواقية، وسلاسلها الصدئة تصرُّ بحدَّة.

- لقد عاش هنا أناس مختلفون، قال سانيتش، بولباش، وأوكرانيون، وفنلنديون وعمَّال في مناجم الخث[23] أيضاً... لقد شاهدت هياكل براكات كان يعيش فيها عمال ورش البناء، إنَّها طويلة أحادية

الطابق، وفيها حمَّامات.

الحمام في الجهة اليمنى وضعه جيد: له سقف وجدران ووتد مثبَّت بالباب له حبل. لا وجود لآثار مرئية، البراكات قاتمة، وخشبها أسود، يعلوها الثلج الأبيض، خلعت العواصف الثلجية واجهاتها الأمامية. ظلَّ الثلج يتساقط ندفاً خفيفة وكبيرة. كان بودي أن أستريح في الحمام، لكن سانيتش تجاوزه.

- هل النوافذ صغيرة؟ سألته.

- نعم، النوافذ صغيرة. لكن... الحمامات لا تستخدم للنوم.

- لماذا؟

هزَّ سانيتش كتفيه.

- في الحقيقة هذه هي العادة. لا ينامون فيها، وانتهى الأمر. انظر، سننام في تلك البراكة.

اتجهنا صوب منزل هرمي غير مألوف في هذه الأماكن، نوافذه واسعة لكنها مسدودة بالألواح، والأبواب محكمة الإغلاق بالأخشاب. لم ندخل المنزل، بل صعدنا إلى العلية، إذ وضع سانيتش سلماً، وأمرني أن أشقَّ طريقي إلى الداخل حتى ألامس المدخنة، هناك، على اليسار.

تابعت طريقي في الظلام، محاولاً عدم التعثُّر، لكنني، طبعاً، تعثَّرت، ألقيت بيدي أمامي، على القش والأكياس.

- ما زلتَ حياً؟ سألني سانيتش.

- ما زلتُ حياً، أجبته.

أشعلت القداحة فرأيت سانيتش واقفاً إلى جوار مدخنة، جزء منها مفكك، وقد تحوَّل إلى موقد، في داخله غلاية على حجرين من القرميد، وإلى جوارها عرمة حطب.

- أحياناً نتوقف هنا، أوضح سانيتش، في الأوقات الحرجة، كملاذ أخير.

تناول سانيتش شمعة من الموقد وأضاءها.

- أين السكان؟ سألته، هل أعدمهم الفاشيون؟

- لا... هزَّ سانيتش رأسه، لا علاقة للفاشيين بالأمر؛ لا أحد يعيش هنا منذ وقت طويل.

- تبدو قرية حديثة نوعاً ما.

- نعم.

أنزل سانيتش الشمعة، ووضعها على الأرض بيننا. يا لها من شمعة: وميضها ضئيل، أقوى قليلاً من رأس عود ثقاب مشتعل، هذا الضوء يكفينا.

- البحيرة الدافئة ليست بعيدة عن هنا. قال سانيتش بهدوء.

- وماذا؟

- هكذا، مكان كريه. هنا سابقاً... كان.

- ماذا كان؟ سألته.

إما أن سانيتش لم يرغب في الكلام، وإما أنه تظاهر بأنه لا يرغب، لست أدري. تلحَّفت بأرديتي علني أتدفأ أكثر. ومضت الشموع وميضاً خافتاً، فآلمتني عيناي، وشعرت بحكة في أنفي.

- سابقاً كان ثمة دير للنسَّاك على ضفاف البحيرة الدافئة. هل تعلم ما هو دير النسَّاك؟

- أعلم، أجبته، يقصده النسَّاك، كما أظن.

- المؤمنون القدامى، دقَّق سانيتش كلامي، يقال إنهم لا يزالون موجودين في مكان ما، في الغابات، ثمة عدد من العائلات هناك. يبدو أن هؤلاء المؤمنين القدامى يعبدون غولاً غريباً...

ألقى سانيتش خشبة في الموقد.

- لقد سمعت هذه الأساطير منذ الطفولة، قال لي، تمتدُّ هذه الأدغال حتى البحر تقريباً، وهي متشابكة لا يمكن اختراقها، إنها أمكنة مهلكة فيها افاعٍ طيَّارة، وضفادع حمراء ضخمة بحجم الأرانب المنزلية.

انبعث الدفء من الموقد، فاقتربنا منه: أنا من جانب، وسانيتش من الجانب الآخر. راح الحطب يهسهس، وشعشعت النار من خلال الشقوق بين أحجار الموقد، وانتشر دخان يعمي العيون. ألقى سانيتش خشبة سميكة في الموقد، ستحترق فترة طويلة، ثم تناول قرميدة من الموقد، ووضعها تحت سترته.

- لقد تدفأت فعلاً، قال لي، كلما كانت أقرب إلى المعدة، قلّت الرغبة في تناول الطعام. عمَّ كنت أتحدث؟

تناولت قرميدة أيضاً، وفككت سترتي المبطَّنة، ثم وضعت القرميدة على بطني، كانت لطيفة، برغم أنها ساخنة قليلاً. إنها فكرة جيدة، مؤسف أننا لا نمتلك مثل هذا الموقد في مخبئنا، إنَّه رطب تماماً.

- عن الضفادع الضخمة...

- عن الغول، تذكَّر سانيتش، غول البحيرة. ثمة أصنام على هيئة إنسان في الغابة، إذا اقتربت منها وألقيت نظرة فاحصة عليها، فسترى على الفور، بدلاً من رأس إنسان، رأس حصان، أسنانه تشبه أسنان التمساح نوعاً ما، ملطخة إما بالدهن وإما بالدم، أمر غير مفهوم؛ أماكن وحشية باختصار. جميع الأصنام متشابهة، كلها مخلوقات بوجه حصان. جدُّ جدي حدَّث جدي أنَّه رأى غولاً يطعم بقرة. هنا بالتحديد... أومأ سانيتش برأسه إلى الحائط، حدث ذلك في مكان ما هنا. لقد ضاع جدي في الغابة، لا أعرف كيف حدث ذلك، على الرغم من أنَّه كان يذهب إلى قرية لوفاتي مغمض العينين. باختصار، لقد ضاع ودخل القرية.

- هذه القرية؟ سألته.

- ربما هذه، هنا، في مكان ما قريب من البحيرة الدافئة. كانت قرية لطيفة، سكانها ودودون وطيبون. حسناً، لقد أطعموا الجدَّ، وحمَّموه، وفرشوا له الفراش. في اليوم التالي كان عندهم عيد، استيقظ جدي على صوت الموسيقا، كانوا ينفخون المزامير. قدموا له البيرة، وفطائر بطاطا بالقشطة، ودعوه إلى الرقص. مضى جدي يتمشى في القرية، ونظر حوله فشاهد الأهالي يسوقون بقرة كبيرة مزخرفة، زينوا قرنيها بالشرائط...

لم تعجبني هذه القصة على الإطلاق، خاصة لما بدأ سانيتش يتحدث عن البقرة. تنسجم هذه القصة إلى حد ما مع هذا الكوخ البارد، ومع القرية المهجورة، ومع عويل الريح في الخارج، فجميعها ذات نغمة واحدة. شعرت كيف تملَّكتني القشعريرة، إنما ليس في ظهري؛ لقد ضغطت على كليتي، بل على بطني تحت حجر القرميد.

تابع سانيتش:

-... كانت الأجراس معلَّقة، أجراس فضية، أصواتها تشبهها. أحاطت الفتيات بالبقرة يسقنها، ويغنِّين الأغاني، والرجال إلى جوارهن، يرتدون الملابس الجميلة ويضحكون. هكذا سار جدي أيضاً مع الجميع. أخذ رأسه يدور من الاضطراب على الأرجح بعد ذلك. عبروا القرية ودخلوا الغابة وهم يغنون أغنية، إنما كأنَّها من دون كلمات، أي كانوا يغنون شيئاً غير واضح، كلماته غير

مألوفة، بطرق مختلفة، كلها من نغمة: آ- آ- أو- أو، ي، ي، راحوا يغنون، ويغنون، شعر جدي أنَّ رأسه يدور بطريقة ما، فغمرت روحه الغبطة والسرور...

استبدل سانيتش حجر القرميد، وأنا استبدلته كذلك، ووضعته على جسمي، فتدفَّق الدفء فيه.

- ها هم يسيرون عبر الغابة، يغنون، ويسوقون البقرة، فيما الأجراس تدقُّ حولها، والأبواق تدوِّي. سمع جدي دويَّ هذه الأبواق وهي تتعالى، كصوت النحيب بهذا الشكل أو ذاك. وفجأة ظهرت البحيرة، ليست كبيرة جداً، تحيط بضفافها مستنقعات ممتلئة بشجيرات صغيرة. هرع الجميع إلى هذه البحيرة، إلى الماء، اقتربوا أكثر، وعلت أصوات الأبواق إلى درجة تصمُّ الآذان. عزفوا فترة طويلة، لم يستطع جدي أن يفهم لماذا... بعد قليل فهم: أخذت المياه تضطرب وتتماوج، ثم خرج منها شيء ما...

تمايل سانيتش واستدار، جاعلاً جلوسه أكثر راحة.

- هذا ما حدث بالضبط، ذلك المخلوق يشبه التمساح الضخم، إنما رأسه يبدو كرأس حصان، لقد أخبرنا جدي أنَّ أذنيه كانتا بارزتين، وقد أطلق السكان المحليون عليه اسم غلوت[24]. هكذا، زحف الغلوت إلى الضفة، وتمدَّد تماماً فاتحاً فمه، ثم دخلت البقرة بمحض إرادتها تقريباً إلى فمه، فالتهمها بمضغتين، وراح ينظر، وينظر، ثم غطس عائداً إلى البحيرة. نظر جدي حوله فجأة، لقد حلَّ المساء فعلاً، وطار النهار من دون أن يشعر. أين تذهب في الغابة ليلاً؟ ليس إلى أي مكان. قرَّر جدي أن يقضي ليلة أخرى، ويهرب مع بزوغ الفجر. لقد استلقى في فراشه، لكنه لم يستطع النوم على الإطلاق، لقد تملَّكه الخوف، وخيِّل إليه أنهم قادمون إليه. هكذا راح يتقلَّب، ولم يغفُ إلا قبيل الصباح. لمَّا استيقظ في الصباح، سمعهم يغنون من جديد، والأجراس تدقُّ بصوت عالٍ. استعدَّ جدي للمغادرة، لكنهم لم يسمحوا له بالخروج، وقالوا له: «انتظر، لا تتعجل، اليوم يبدأ عيدنا الحقيقي»، فوافق جدي على مضض. قدَّموا له البيرة مرة أخرى، إنما الكأس كان أكبر. فقرَّر أن يرفض، لكنه لم ينجح؛ كانوا يراقبونه، ذهب إلى المغاسل، وتقيأ كل شيء بهدوء. ذهب الجميع مرة أخرى إلى البحيرة، لكن لم تكن معهم أي بقرة، ثمة فتاة شعرها طويل وجميل مجدول بشرائط من حرير، راحت تبتسم، وأمسكت يد جدي، ثم فجأة علَّقوا الجرس في عنقه، وشرعت الفتيات الأخريات يزيِّنَّهُ بالشرائط، أخيراً فهم كل شيء...

لسبب ما تصوَّرت كل ذلك بوضوح تام، كما لو كنت حاضراً هناك: الغابة، الطقس ربيع لسبب ما، أناس يرتدون قمصاناً بيضاء طويلة، ثمة رنين ومخلوق قديم كالتمساح يزحف من البحيرة، يتغذَّى على الأبقار، يظهر مرة واحدة في السنة...

- هكذا فهم جدي ما ستؤول إليه الأمور، تملَّكه الخوف طبعاً، لكنه لم ينهر. راح يبتسم، والفتاة تمسك بيده، وتقوده إلى البحيرة. استمرَّ كل شيء كما حدث بالأمس: دوَّت الأبواق، وزحف غلوت من الماء مباشرة فاتحاً فمه، غير أن جدي ركض فجأة على طول البحيرة...

- هل هرب؟ سألته.

- طبعاً هرب، وظل ثلاثة أيام يشقُّ طريقه عبر الغابة.

- قلت إنها قريبة من هنا؟ قاطعته.

- ليست بعيدة، بالتأكيد. إنها هنا، إنما... تضلِّل قليلاً.

- تضلِّل؟ لم أفهم.

- نعم، الناس غالباً يضلِّون؛ فالغابات والمستنقعات مليئة بالنباتات والشجيرات المتلاصقة، ومن السهل أن تضيع. ربما يستغرق الطريق ثلاث ساعات، لكن الناس يهيمون فيها عدة أيام. لذلك حين قصَّ جدي ذلك كله، لم يفاجأ أحد على وجه الخصوص. لقد عرف كثير من الناس هذه القرية اللعينة، ولم يسكنوا في هذه الأماكن قط. بعد الثورة، أسكنوا هنا الباحثين عن الفحم إذ لم يعد أحد يؤمن بالوحوش. بدأوا ينهبون الخثَّ...

لاذ سانيتش بالصمت، فخيِّل إلـيَّ أنه نائم، حتى أنه صار يشخر.

- تارة تقع هنا حوادث شيطانية، قال سانيتش، وتارة تنتشر أمراض غريبة: يمرض المرء فـي الصباح، وفـي المساء يموت. وتارة أخرى يختفي في الغابة أناس ولا يعثر لهم على أثر، أو يفقدون عقولهم. كان ثمة اعتقاد بأنَّ كلَّ ذلك يحدث بسبب غاز الخثِّ، لذلك جاء فريق من العلماء من نوفغورود للتحقق، لكنهم لم يعثروا على الغاز، ولا على التجاويف النارية، ولم يكن أمام الناس أي مفر، ولا يوجد مكان يلجؤون إليه، ولم يكن هناك أي حيوانات خطرة أيضاً... ظنوا أن مخربين يفعلون فعلهم، لكنَّ الحدود لم تكن قريبة جداً، ولم يكن الخثُّ يستخدَم بشكل خاص في الصناعة، فلا جدوى من إلحاق الضرر، لكن الناس يموتون كل يوم. لما مات الجميع، أغلق كلُّ شيء. بيد أن القرية بقيت، في الصيف يكون التفاح هنا كالعسل، إنما لا أحد يجنيه.

- لماذا؟

- آ... هزَّ سانيتش كتفيه، وشدَّ حجر القرميد على بطنه، أمور هذا التفاح سيئة... علامة سيئة. طبعاً، لا مفرَّ لدينا هنا في الغابات من الخرافات، لا أحد يتوقف هنا من دون داع...

- ماذا عن الفاشيين؟

- الفاشيون يشمون الرائحة أيضاً، ولا يقتربون. حسناً، دعنا ننم، راح سانيتش يتثاءب، سننطلق في الصباح مع بزوغ الفجر، وإذا كنا محظوظين، فسنكون في بيتنا بعد غد. ستفرح أمي، وسوف نستحم في الحمام... لقد حكيت لك عن هذه الغيلان.

تثاءب سانيتش بصوت أعلى، وصرَّ على فكيه، وراح يشخر على الفور تقريباً. أما أنا فلم أستطع النوم، أخذت أنظر عبر شقوق الموقد إلى الجمر وهو ينطفئ ويهمد. بدأ حجر القرميد يبرد، لقد شعرت به على بطني، وأحسست -أيضاً- بقطعة صغيرة منه ترتطم بجلدي وتؤلمني إلى حد ما، لكنني لم أرغب في أي حركة. بدأ البرد يحاصرنا، وصارت أي حركة تتسبب في هدر الدفء الثمين، فقررت أن أتحمَّل.

لقد خفت من الاختناق بغاز الفحم، طبعاً من الغباء أن أخاف؛ فالعلية واسعة، والموقد صغير، ويوجد كثير من التشققات، لذا لا يمكن الاختناق، لكنني شعرت بالخوف من شيء ما، إذ لا شيء يثير الخوف ليلاً أكثر من الاستماع إلى القصص الخيالية...

أخذت أراقب العاصفة الثلجية، وهي تشقُّ طريقها إلى المدخنة، وتهمس في الشقوق، وتتمتم في الآذان، وتداعب الوجه برفق، ثم تعبت وهدأت، لكنني لم أغفُ بسبب ما سمعته. لم نكن وحدنا بلا شك؛ مددت يدي إلى حزامي، لكني تذكَّرت أنني تركت سلاحي في المعسكر.

راحت الشكوك تراودني... لست أدري كنهها. عبثاً روى سانيتش تلك القصص، من أجبره على هذا الكلام، كان بإمكانه أن يحكي شيئاً مضحكاً. ها هو ذا يغطُّ في نوم عميق، وأنا أتعذَّب وأراقب العاصفة الثلجية.

ثمة خطوة.

سمعت صوت وقعها مع هبوب الريح. الثلج الطري يتساقط صاخباً، لا سيما في الليل، ولا مجال لخلط الخطوة وعدم تمييزها عن أي شيء آخر. في البداية ظننت أن الثلج طار عن السقف، وهبط على الكثيب الثلجي، إنما راحت الخطوة تتكرر، ومما زاد شكِّي أكثر، أن هذه الخطوات أخذت تقترب. انتهت العاصفة الثلجية فجأة، نعم هكذا. لقد ضجَّت فترة طويلة، فاعتدتُ على الريح، بعد ذلك توقفت ولم تعد موجودة، ساد الصمت، صمت مطبق تماماً، ولم يُسمع أي صوت.

كانت تلك الخطوات غريبة نوعاً ما، خطوات مدروسة بعناية، كأنَّ كلَّ خطوة منفصلة عن الأخرى: خطوة، فصمت، خطوة أخرى، فصمت مرة أخرى، كما لو أنَّ شخصاً يتنقَّل على ساق واحدة. ليس على طرف اصطناعي، بل على ساق واحدة: تُب، تُب.

اصطدمت الخطوات بالحائط وتسمَّرت. داعبني أمل بأنَّه آن وقت الاستيقاظ، ثمة أمور تبشِّر بحلول الصباح، إذ غالباً ما تبدو الأشياء كأنها مختلفة، حتى الأصوات، وأصوات البشر وهم يتبادلون الحديث. كان علينا أن نستيقظ، لمست أنفي وضغطت عليه جيداً، فشعرت بألم في رأسي، وفاضت الدموع من عيني، لقد استيقظت تماماً.

عمَّ الهدوء، ولم تُسمع أي حركة، حتى الفئران لم تتطفَّل، فقد هربت كلُّها منذ فترة بعيدة، عموماً لم يكن هنا أي دبيب على الإطلاق. إذاً، كنت أحلم. الظلام لا يزال مخيِّماً، ولا يمكن رؤية أي شيء،

لكن ثمة أشعة ضوء باهتة تنساب من فتحة في السقف، ورغم ذلك لا يزال الوقت باكراً حتى الصباح، بإمكاني أن أنام قليلاً...

خطوة، هسيس إلى جوار الحائط مباشرة، شعرت أنَّ طبقات جلد رأسي راحت تزحف وتنكمش. خطوة أخرى.

قرَّرت أن أوقظ سانيتش، لكنني أدركت فجأة أنه مستيقظ، إذ كان يتنفس بهدوء شديد، في حين أن النيام يتنفسون بصوت عالٍ وبتواتر، ويصدرون حشرجة مثل الأطفال. لم يكن سانيتش نائماً.

- يسير، ويتابع سيره، همس سانيتش، يسير، ويسير الوغد... بدأ مرة أخرى...

- من الذي يسير؟ سألته هامساً أيضاً.

لم يجب، استلقينا صامتَين، ورحت أصغي إلى ما يحدث في الخارج. استمرَّت الخطوات الموزونة، ثمة شخص يمشي على طول الجدار، بخطوات موزونة، ودون مبالاة.

- مرَّ زمن طويل... قال سانيتش، كأنه لم يكن مسموعاً، لكنه عاد الآن مرة أخرى.

- من هو؟ سألته مرة أخرى.

- من يدري... ثمة وقع خطى. في البداية اعتقدت أنه مخبِر يتجسس... في البداية ظننت أني جُنِنت. شعرت بالارتجاج، وراح رأسي يطنُّ، صرت أرى أي شيء مضاعفاً، لذلك قررت... حسناً، ماذا حدث نتيجة ذلك، ظلت أذناي تطنان... لم أتحدَّث إلى أي شخص شهراً كاملاً. نعم، لم يستمر وقع الخطى يومياً، بل كان متقطعاً، اعتقدت أنه سوف يمر... لكنه لم يمر.

صوت طقطقة.

تثاءب سانيتش، وأخذ يتحدث بصوتٍ عالٍ، ثم بصوت أعلى عمداً:

- اعتقدت أنني قد جننت، وهذا عموماً ليس أمراً سيئاً أيضاً: لا حرج في أن تفقد عقلك قليلاً، لا حرج في ذلك، لدينا كثيرون هنا... يسمعون أصواتاً، وقد اعتاد الناس على ذلك...

الطقطقة الآن عكسياً في اتجاهنا، تُب، تُب، مثل ساعة وحيدة العقرب.

- أدركتُ فيما بعد أن الآخرين يسمعون ذلك أيضاً: حينئذ كنا أنا وكوفالِتْس نحصي البوارج، وقد أمضينا ليلتنا في براكة تعويم الخشب، حيث سمع كوفالِتْس صوت وقع خطى، فظلَّ يتقلَّب طوال الليل، ولم يستطع النوم.

- أنت... ألم تنظر؟ حسناً، ومن كان ذلك؟ هل حاولت إيقافه؟

- لا... حسناً، طبعاً، حاولت، لكن من دون جدوى، فهو عادة يأخذ حذره... كما ترى، إذا حاولت النظر بحرص الآن، فلن ترى أي شيء، ولو نظرت حتى الصباح، فإنك لن ترى غير آثاره وحدها مع انبلاج الضياء.

- عن أي آثار تتحدث؟

عبثاً سألته، فأنا لا أريد أن أعرف أي شيء على الإطلاق عن تلك الآثار.

ثمة طقطقة قريبة جداً جداً، كأنَّ شخصاً يترنَّح، وقد ألصق جبينه بالجدار.

- بعد ذلك، بدا كأننا قد تخلَّصنا منه، لم نسمعه لمدة ستة أشهر على الأرجح... ثم عاد.

تُب. تُب. تُب.

- ابتعد! صرخ سانيتش فجأة.

نهض فجأة، فسقط حجر القرميد من عبِّه، وأصاب ساقه، صرخ وهرع في العتمة، وتعثَّر بشيء ما، راح يرتجف مرة أخرى، ويصيح:

- ابتعد عني! ابتعد عني، أيها الوغد!

صمت سانيتش فجأة، وخيَّم الهدوء على العليَّة من جديد، انتابني خوف من أنَّ سانيتش قد اختفى. انتظرت، غير أنَّ الصمت طال، وكل ثانية مرَّت على رأسي كانت كتساقط حبة بازلاء من رصاص، شعرت أنَّ قدمي مخدرتان، وبدأت أصابعي تتجمد.

- ليون، ناديته، هل أنت هنا؟

لم يجبني سانيتش، لمست حجر القرميد.

طقطقة.

طقطقة.

- كن حذراً، صاح سانيتش، لا تشقَّ رأسي، لقد نسيت خوذتي في البيت.

- هذا أنت؟

- نعم.

أشعل سانيتش القداحة، فكشف الضوء وجهَهَ الأصفرَ في الظلام.

- لن يدعنا ننام هذا الدابة.

انطفأ النور، واتجه سانيتش إلى مضجعه.

- ثلاث ساعات تفصلنا عن الفجر، كان بإمكاننا أن ننام جيداً، لكن لم يدَعونا...

فرك سانيتش أنفه، وقال على الفور:

- لقد أُصبتُ بنزلة برد على كل حال... لا بأس، اقترب الصباح، وسينتهي كل هذا، كما هو الحال دائماً... سنصل إلى بيتنا قريباً. تعلم أمي دائماً بقدومي: ستسلق البطاطا مع الفطر، وسنرتاح جيداً، تنتظرنا أشياء أخرى... سنطهو البيض باللحم المقدَّد اللذيذ. وأنت لم تكن ترغب في المجيء. هل تعرف كم سيكون رائعاً؟!

أدركت فجأة لماذا أصرَّ سانيتش على اصطحابي معه؛ من أجل قضاء هذه الليلة هنا، كي لا يقضي الليل وحده في هذه العلية الباردة في هذه القرية التي كان سكانها يعبدون شيطاناً، يشبه تمساحاً ضخماً، لكنه ذو رأس حصان.

كل شيء واضح ببساطة.

- أمي تعرف متى آتي...

في الصباح، أشعل سانيتش الموقد، وسخَّن الماء في قدر، لقد بدا نشيطاً.

ارتدى سترته لسبب ما بالمقلوب، وقبعته أيضاً.

الفصل الثامن

فـي الصباح الباكر شربنا الشاي الساخن الحلو مع القطائف التـي يشبه بعضها القواقع، وبعضها القلوب، وبعضها الآخر قطائف عادية، الخشخاش على سطحها وفي داخلها. راحت أم سانيتش تضجُّ بالمغرفة منذ الصباح، حين استيقظنا كانت رائحة الفطائر تعمُّ المنزل فعلاً، إنَّها رائحة حقيقية تماماً، ووددت لو أنقع ملابسي وشعري بها، وأن آخذ أكبر كمية منها في طريق العودة، أوزِّع نصفها في المعسكر، وآكل النصف الآخر في الطريق. سوف نتسكَّع في الغابات ونحن نأكل الكعك، وفطائر الملفوف مع الفطر، والقشطة مع البطاطا؛ الفطائر والخبز الأسمر اللذيذ وقد التصقت أوراق الملفوف بأسفله. وعدتنا أمه بأن تقدِّم زلابية رقيقة في المساء.

أوقد سانيتش النار تحت السماوار بطريقته الخاصة، مستخدماً نثرات خشب وأكوازاً وحذاء، ثم هرول إلى النبع لجلب الماء، بعد ذلك غلاه، وألقى في السماوار روبلاً فضياً من أيام القيصر. أما أمه فقد فرشت المائدة وغطَّتها بمفرش متعدد الألوان يشبه منديلاً غجرياً؛ ما إن ظهر مفرش المائدة ذاك، حتى عمَّ المنزلَ جوٌّ احتفالي على الفور.

صفَّت الأم الأطباق المليئة بالفطائر، ووضعت زبدية صغيرة معبأة بمربى التوت البري، وإناء من لحاء البتولا مليئاً بالسُكَّر، والسُكَّر الذي جلبناه، يحتوي على قطع رمادية تشبه الصخور المتفجِّرة، وقطع أخرى مصفرة قليلاً، ومكعَّبة تقريباً، أتذكَّرها منذ زمن بعيد؛ بالإضافة إلى نوع آخر بنيٍّ ذهبي اللون، عموماً كان عددها خمس قطع، لست أدري من أين أتت. شاهدت في عدد من الأوعية أقراصاً مغطَّسة بالعسل، وكرات ملوَّنة مستديرة، أتذكَّر كرات شبيهة بها، كانت دائماً تسبب لي ألماً في أسناني.

أطلَّت الفتاتان الصغيرتان، ليدا وفاليا، من الغرفة المجاورة، هدَّدتهما الأم بقبضتها، فأخذتا تضحكان وتكركران بطنيهما. في حين صفَّر سانيتش لهما، لكنهما استمرتا بالضحك بصوت عالٍ، وأخذتا تفتِّشان عن السُكَّر. ركضتا إلى المائدة، والتقطتا قطعاً صغيرة منه، أخذتاها وهما تزقزقان. جلسنا إلى المائدة، مرَّت فترة من الصمت، ثم أخذنا نشرب الشاي. وكي لا أضيع الوقت، بدأت بتناول الفطائر: لقد بدأت بالأكبر حجماً، أكبر من كفين، المحشوة بالسمك والبصل، كانت لذيذة إلى درجة لا تُصدَّق، أكلت ثلاث قطع. كان بودِّي أن آكل أكثر، إنما أصبح من غير اللائق تناول كل هذا الكم، بعد ذلك التفتُّ إلى فطائر أخرى محشوة بالفطر، وأخرى محشوة بالملفوف، وثالثة محشوة بالجذور، تناولتها مع الشاي الحلو الساخن. لم يتخلَّف سانيتش عن الطعام، إنما تصرَّف بشكل مختلف نوعاً ما، لقد تناول ثلاث فطائر بحشوات مختلفة معاً، وشرب الشاي، ثم عاد إلى تناول الطعام مرة أخرى، ودعمه بالمربى، ولم يشعر بأي تعب. أما أم سانيتش، فعلى العكس من

ذلك، تناولت القليل، وهي تنفخ في الشاي الساخن وتنظر إلينا، ليس بحزن، بل بمتعة إلى حد ما، لقد أثار ذلك إعجابي حقاً.

بعد التهام نصف هذه الفطائر المترفة، هدأت أرواحنا قليلاً. خلق السماوار جواً دافئاً شفافاً حوله. إنَّه سماوار من نوع آخر، ليس من النحاس. لقد استرحت وتراخيت للغاية، وأصبحت لطيفاً، ورحت أبتسم. لـمَّـا قفزت ليدا وفاليا إلى الغرفة، تظاهرت بالرغبة في احتضانهما.

لم تسأل الأم أي سؤال؛ أدهشني ذلك أيضاً. اعتقدت أنها ستعذبنا بأسئلتها عن حياتنا، وعن آخر الأخبار، وعن الحرب، إنما لسبب ما لم تكن مهتمة، ولم تحدثنا بأخبارها. في البداية لم أفهم، ثم خمنت: لقد قدم ابنها من الحرب لفترة وجيزة، ليوم واحد، أو ربما اثنان، ولم يلتقيا منذ فترة طويلة، فلماذا تملأ الوقت بالحرب؟ لقد قررت خلق واحة سلام، ونجحت: الشاي، السماوار، الفطائر، البيت. وحتى ملابسنا اختفت في مكان ما.

انحنى سانيتش على كرسيه وبدأ يستعرض كيفية شرب الشاي، تناول قطعة متوسطة الحجم من السُكَّر، ووضعها في منتصف صحن كأس الشاي، ثم صبَّ الشاي فوقها وراح يشربه، ويتذوَّق العسل. حاولت أن أفعل الشيء نفسه، فتبيَّـن أنه أمر رائع، ثم نفخنا خدودنا، كالتجار المنتفخين في صورة شاهدتها في كتاب قديم.

بعد الفطائر وأربعة أكواب من الشاي، تملَّكتني رغبة في النوم. جلست أمام السماوار، وشاهدت صورتي علـى جانبه الأصفر المصقول: خداي نحيفان، وأنفي، على العكس، كبير، لم أستطع رؤية عيني بسببه. راح خيالي علـى السماوار يتأرجح، بل يرفرف، كأنه من دخان، لسبب ما كان رأسي معلَّقاً في جانب السماوار، وقد زاد ذلك رغبتي فـي النوم، وبذلت أقصى جهدي كي لا أنقر النحاس الساخن.

ذهـب سانيتش إلـى مكـان ما، كما مضـت والدته أيضاً. في حين قفـزت الشقيقتان، ليدكا وفالكا، من الغرفة المجاورة، ووثبتا على الكراسي، وأغارتا على الفطائر والسُكَّر والمربى، بكلمة واحدة: على كل شيء. عاد سانيتش، هذه المرة غير أنه لم يصفِّر لأختيه، بل أظهر لهما لسانه، في حين لم تتمكنا هما من إظهار لسانيهما، بل أخذتا تتمتمان فقط رداً على ذلك، فانتفخت عيونهما.

- لا تنم! ، هذا ما قاله سانيتش لي مباشرة، أمامنا رحلة صيد!

لم تكن لدي رغبة بالتفكير في أي رحلة صيد، أردت أن آخذ غفوة، ثم آكل من جديد. إنما سانيتش عنيد.

- لم أذهب إلى صيد السمك منذ مائة عام. هزَّ رأسه.

- في الصيف ذهبت...

- صيد السمك في الصيف لا يعد صيداً، اعترض سانيتش، أي أحمق يستطيع فعل ذلك، الماء، الشاطئ... ليس ذاك. صيد السمك في فصل الشتاء فقط هو الصيد الحقيقي؛ هذه مسألة مختلفة تماماً! حسناً، سوف تتأكَّد بنفسك. لن نأخذ الطعام معنا حتى تزداد شهيتنا.

أردت أن أقول له إن شهيتي ستنفتح خلال نصف ساعة، ولاسيما في الهواء الصقيعي...

- من الأفضل عدم أخذ الطعام في رحلة صيد السمك، قال سانيتش بحزم، ستدرك أنَّه تقليد صحيح، فضلاً عن أنَّه إذا كان الصيد وفيراً، لا حاجة إلى أي طعام. هيا، استعد.

بدأنا نجهز أنفسنا، وقد ظهر معطفان قصيران من الفرو من مكان ما، أحدهما كبير، يبدو أنَّه كان لوالده، ارتداه سانيتش، وارتديت أنا المعطف الثاني الأكثر أناقة، معطف والدته. انبعثت رائحة النفتالين من قبعتي أرانب متشابهتين، آذانهما طويلة، كما ظهر -أيضاً- حذاءان طويلا الساق مصنوعان من الكاوتشوك المقوى، فضلاً عن خفين لحماية الحذاءين، وقفازات من الفراء قياسها غير معروف، وصناديق خشبية؛ لقد أُحضر كل هذا من أماكن إخفائها في الجدران، وتحت الأرضية، وتحت الجناح الملحق. راحت الشقيقتان تنظران إلى سانيتش من جوار الموقد، وتشاكسانه وتلوحان بأصابعهما، في حين أخذت الأم تبتسم.

أما سانيتش، على العكس من ذلك، فقد كان جاداً. يبدو أنَّ علاقته بالصيد مبدئية، مثل علاقته بالحرب تماماً.

- ماذا عن أدوات التزلُّج؟ سأل سانيتش والدته، هل لا تزال موجودة؟

هزَّت الأم رأسها.

- إنه أمر مؤسف، لو ذهبنا على الزلاجات لكان الأمر أكثر متعة. حسناً، هكذا سنصل أيضاً.

ناولني سانيتش مخلاً قصيراً مع حبل مربوط بمنتصفه. ما الحاجة إلى المخلِّ في صيد السمك؟

- مثقاب، أوضح لي، نحتاجه في فتح الثقوب؛ إنَّه أهم أداة في الصيد. حسناً، أصبحنا جاهزين. ربما الأفضل أن نذهب عبر الحواكير؟

هزَّت الأم رأسها.

تبين أنَّ النهر قريب جداً، مائة متر عبر الحواكير. نزلنا من الضفة إلى قوارب، اسود خشبها بفعل الطقس. طرق سانيتش على واحد منها.

- قاربنا، قال لي، صنعه والدي بنفسه منذ زمن بعيد. النوم تحت القارب ممتع في أثناء هطول المطر، تغفو بسرعة.

- هل سنصطاد هنا؟ أومأت إلى النهر.

- لا، في نهر لوفات لا يوجد ما نفعله، المياه عميقة للغاية، ينبغي لنا أن نبتعد قليلاً. لدينا مكان قريب، تقفز فيه الأسماك تحت الجليد مباشرة. في المساء، سنطهو حساء السمك، سوف أطهوه بنفسي. هل تعرف كيف تطهو حساء السمك الحقيقي؟ أنت لا تعرف؛ كيف ستعرف، وقد عشت في المدينة. لتحضير حساء السمك الحقيقي ينبغي أن تأخذ كل مادة من المواد بالتساوي: الماء والسمك والبصل، اغلِها بسرعة، وانتظر حتى يغلي الماء، ثم ضعها في وعاء معدني، ودعها تنضج على نار هادئة، مدة ساعتين، أو ثلاث...

مضينا على طول النهر، فبدا لي نهر لوفات عريضاً جداً، بعرض نهر الفولغا الحقيقي، إذ لم تكن ضفافه مرئية، كما كان الثلج يتساقط، فكسا الأشجار باللون الأبيض، لم يكن هناك أي شيء سوى اللون الأبيض، الشمس والثلج. تذكرت أنني كنت أسافر عبر الأنهر. في فصل الشتاء، تغطِّي الثلوج الطرقات بأكملها، ويسافر الناس على الزلاجات على طول الأنهر، يتسابقون، فيتعالى الصفير، وأصوات وقع السياط على رؤوس الخيول، هكذا من توبولسك إلى سخالين. كان كل شيء جميلاً جداً هنا، أول مرة لا أتوق في فصل الشتاء إلى الطقس الحار. اختفت قرية لوكينو خلف المنعطفات، وبعد فترة أمعنت النظر، فرأيت دخاناً أبيض، إنما بعد وهلة اختفى، لقد ولجنا عالماً آخر.

ثمة شجرة بتولا محنية فوق ضفة شديدة الانحدار، يبدو أنها كُسرت منذ فترة طويلة، لكنها لم تسقط تماماً، بل علقت وصارت موازية لسطح الماء، وحافظت على متانتها، وواصلت النمو على هذا النحو. لقد شاهدت لوحاً مثبتاً بين غصونها.

- هنا يصبُّ نهر البولكا في نهر لوفات، أوضح سانيتش، الآن لا شيء مرئي طبعاً، ولكن في الصيف تكثر الكراكي هنا. أسماك القرش بطول الإنسان. تتسلق شجرةَ بتولا، وترمي ثلاثة خطاطيف مع طعم حي، فتعلق أزواجاً دائماً. كنت أحبُّ أن آتي إلى هنا وحدي، كان لدي كوخي الخاص. في الصباح تلقي الخطاطيف، ثم تذهب لقص العشب، وتعود مع حلول الظلام، فتجد كركياً عالقاً بالتأكيد، تنظفه وتشويه ثم تأكله، وبعد ذلك تستلقي وتحدق في السماء. يبقى لديك ما يكفي للصباح أيضاً، في الليل يمكنك شرب شاي التوت...

أنا أيضاً اشتهيت شاي التوت، والكركي المشوي.

- في الشتاء، أكمن هنا. ثمة كثير من الحفر، ومجرى النهر يقع بين منعطفين، كل الأسماك تندفع إلى هنا، الآن سترى.

اقتربنا من شجرة بتولا، فتناول سانيتش قضيباً مدبباً، وراح يثقب به الجليد بمهارة، صانعاً ثقباً صغيراً منتظماً أوسع قليلاً من تفاحة صغيرة. ظننت أن سانيتش سوف يقطع خشبة شيح مربَّعة واسعة، وأننا سنجلس على حافة الصناديق، ونؤرجح أرجلنا، ونلقي الصنارات...

إنما تبين أنَّ الأمر لم يكن كذلك قط.

ثقب سانيتش ببراعة أربعة ثقوب، وبصق في كل واحد منها تيمناً بالحظ السعيد.

- كنت سابقاً أطعمها المتيل (دودة الدم)، قال لي، كنا، أنا وأبي، نجمدها بشكل خاص في هذه الصناديق الطويلة الضيقة، ثم نفركها على مبشرة خاصة فوق الثقوب. إنما لا بأس، هكذا جيد أيضاً، خلال الحرب، تراكمت الأسماك هنا، ولم تصطد منذ عشرين عاماً. ما رأيك لو نبدأ، هيا نبدأ...

تناول سانيتش من صندوقه عصاً قصيرة، دُقَّ فيها مسماران صغيران من مسامير النوافذ، وربط بها قمع. وبعد ذلك لفَّ مقبض العصا بحبل سميك ليسهل مسكه بارتياح، ثم علَّق الصنارة بهذا الحبل. بدا لي أنها مقصوصة من ماسورة بندقية نحاسية، تشبه ورقة صفصاف صغيرة، مع نقطة لحام من القصدير. تدلى الخطاف من نقطة القصدير؛ إنها أدوات بسيطة. أعتقد أن السمك جائع في فصل الشتاء، لذلك تكفي قطعة حديد معقوفة.

ناولني سانيتش قصبة صيد مشابهة تماماً.

- العمق هنا نحو أربعة أمتار، قال لي سانيتش، ليس عميقاً جداً، لكنها تختبئ هناك، إنَّها تنتظرنا. انظر!

أنزل سانيتش الصنارة في الثقب، فسحبت الخيط خلفها، وبدأ على الفور يجذب نهاية قصبة الصيد نحو الأعلى، وأحياناً يحركها بتواتر أوسع. لم يدم ذلك طويلاً. دُهش سانيتش وشدَّ قصبة الصيد إلى الأعلى، فراح خيط الصيد يئز، ويرقص في الثقب، رمى سانيتش قصبة الصيد جانباً، وشرع يشد بسرعة خيط الصيد بكلتا يديه، بعد بضع ثوان، لاح وجه بشع من الثقب، فألقى سانيتش سمكة القاروص على الجليد.

- هذا هو بالضبط! قال سانيتش بسرور، من الصنف الشتوي، حراشفه زرقاء، انظر كم هو مدهن!

تتميز سمكة القاروص بحجمها الكبير، الذي يقارب راحتي كفين، وزعانفها قرمزية اللون يشوبها الخَضار، يتحوَّل إلى الزرقة، وعرفها عريض، تزينها خطوط سوداء واضحة على عرض جسمها.

- تصرَّف على هذا النحو، قال سانيتش، حرِّر الصنارة من فم سمكة القاروص، ثم أعدها على الفور، كل شيء بسيط.

بدأت أتصرف كما أشار؛ جلست على الصندوق، وتكوَّرتُ على نفسي بإحكام طلباً للدفء، كما ارتديت القفاز، وأمسكت قصبة الصيد، ثم ألقيت الصنارة في الماء.

ذهبت في رحلات صيد مرات عدة في الصيف، بصراحة لم أشعر بأي حماس خاص؛ في فصل الشتاء... في الواقع، الأحاسيس مختلفة حقاً. غاصت الصنارة الثقيلة، ووصلت حتى القاع. رحت أحرّك قصبة الصيد بتواتر مرات عدة مقتدياً بسانيتش، ثم سحبت خيط الصيد قليلاً، وشددته إلى الأعلى...

في البداية لم أفهم ما حدث، ثمة شيء يشبه... الكلب. كان يعيش في الشقة المجاورة لشقتنا كلب بولدوغ فرنسي، اسمه كوتيا، وهو كلب كسول لطيف، في أحد خفَّيه الخلفيين عاهة، غالباً ما كانت جارتنا تعرض عليَّ أن آخذه في نزهة، فتسلمني مقوده وحفنة من البسكويت، كان يمكنني أن آكل نصفها بنفسي، وإطعام كوتيا النصف الآخر. كنت أربط مقود كوتيا بحزامي، ونخرج إلى الباحة، حيث يتحول كوتيا الهادئ إلى شيطان، يندفع إلى أسفل الدرج بقوة إلى درجة أنني لا أستطيع كبحه فأتبعه، وأحياناً كان يجرني. هنا، على جليد نهر غير مسمَّى، انتابني الشعور نفسه مع البولدوغ ومقوده.

- اسحبْه، لا تدعه يهرب، وإلا فلت. نصحني سانيتش.

سحبته، ثم ألقيت قصبة الصيد، وأمسكت بالخيط، ورحت أحركه بيدي. لم يستسلم البولدوغ، راح يبتعد في مختلف الاتجاهات، ويرسم دوائر تحت الماء، حاول أن يغطس في الأعماق، لكنَّه خرج فجأة، إنما طبعاً، فزت بعد لحظة من النضال، وسحبت سمكة القاروص إلى السطح، وألقيتها على الجليد.

تبين أن فرخي أصغر قليلاً.

بينما كنت أصارع، أخرج سانيتش فرخاً آخر.

تدفَّقت الأسماك، لقد كانت جائعة حقاً؛ لم تكن ثمة حاجة لهزِّ قصبة الصيد أو اللعب بالصنارة، كنا ببساطة نلقي الصنارة في الماء، ونتركها تصل إلى القاع، حيث تحدث صدمة، بعدئذ يكفي تثبيت السمكة وسحبها إلى الأعلى.

تبين، عملياً، أنَّ ذلك ممتع حقاً، وغير ممل إطلاقاً كما هو في الصيف. تراكمت أفراخ السمك تدريجياً عند أقدامنا، عدد منها قفز بعيداً، شعرت بالإثارة، وفجأة تملَّكتني رغبة في أن أصطاد أكثر من سانيتش. المبتدئون محظوظون.

صار الجو أكثر برودة، لكنني لم أشعر به على الإطلاق: الصيد وفير، أرفع السمكة، وأمسك بها، ثم أزيلها من الخطاف، لم أستطع التوقف. أخذنا استراحة نحو ساعة، ووضعنا السمك في الصندوقين، فملأهما تقريباً.

- سمكة القاروص أفضل أنواع السمك! وزن سانيتش بسرور آخر فرخ أحدب بيده، تحبُّ المياه النظيفة، وهي لا تتغلغل في الطين، كما أنَّها قليلة الحسك ولا تحتاج إلى إزالة حراشفها، ويمكنك

تجفيفها ببساطة، فضلاً عن أنها تقاوم التعفّن فترة طويلة، حتى لو كان الجو حاراً. كنا أنا وأبي نجفف برميلين، يكفياننا حتى منتصف الصيف، نأكل منها باستمرار...

مؤسف أنه لا يوجد في معسكرنا سوى المستنقعات الخالية من أي نوع من السمك، باستثناء النيوط. كم هو رائع أن تخرج في الصباح، وتصطاد في ساعتين ما يطعم المعسكر بأكمله، جال في خاطري.

- مؤسف أنه لا يوجد لدينا الوقت الكافي، قال سانيتش بحزن، ثمة مكان أعلى قليلاً، يوجد فيه سمك البربوط، أكباده في هذه الفترة بهذا الحجم، أظهر سانيتش قبضته، يمكن طهي فطيرة منه...

أغمض سانيتش عينيه، ولزم الصمت فترة من الوقت، وراح يصغي. أخذت أصغي أنا أيضاً. ثمة رنين حولنا، ليس رنين جرس، وليس رنين شيء آخر، مجرد رنين، ناعم، كأن صفيحة رقيقة من الصلب مثبتة، مُرِّر عليها مسمار بدقة، أو منشاراً مقوساً مستمراً في الرنين، لكن في مكان بعيد جداً. إنها النظافة والصفاء؛ يحيط بنا كثير من الأشياء التي ترن: الثلج، الجليد، والهواء، والسماء، والصقيع، هكذا يجب أن يكون. إنَّ حديث سانيتش حول عدم وجود عناصر شرطة متواطئين في قريته حديث صحيح. أصبح الأمر واضحاً الآن: لو كان ثمة عنصر واحد على الأقل لما وَجِدَ هذا الرنين.

مع ذلك، ربما هذا ناجم عن الشراهة. لقد أكلنا جيداً، فانتعش الدم في عروقنا، وأخذ يعزف في رأسينا، هذا كل ما حدث.

صحَّح سانيتش وضع الصنارة، وألقى بها في الثقب، وأنا أيضاً ألقيتُ صنارتي. طارت الصنارة على شكل سمكة معدنية إلى حفرة في الأعماق المظلمة، حيث تنتظرها سمكة قاروص شريرة من فصل الشتاء؛ رحت أحدِّق بالماء، متابعاً بريقها البرونزي.

واصلنا الصيد، كان السمك يلتقط الطعم مباشرة: ما إن تشدَّ الصنارة خيط الصيد، وأقوم بالحركة الأولى، حتى تتبعها نقرة، فأثبت القاروص وأسحبه إلى الضوء، فيقاوم محاولاً الابتعاد في مختلف الاتجاهات، لكنني صرت أعرف كيف أتصرَّف معه، لا أسمح له بالنزول، وبعد دقيقة من لدغة الطعم، يظهر رأس مسنَّن غليظ من الثقب.

أمر غريب، لم تختف رغبتي بالاستمرار في الصيد على الإطلاق، بل على العكس من ذلك: كلما زاد عدد الحيوانات المفترسة الخضراء والحمراء التي أصطادها من تحت الجليد، أشعر ببهجة أكبر. في البداية اعتقدت أن مردَّ ذلك هو الجشع، فقد كنا نصطاد السمك ليس فقط من أجل المتعة، بل من أجل زيادة المخزون، إذ من المفترض أن تساعد الأسماك عائلة سانيتش حتى قدوم فصل الصيف؛ إنما أدركت على الفور تقريباً، أن الأمر لم يكن فقط زيادة المخزون، هذا الأمر، طبعاً، مهم للغاية، لكن ليس السبب الرئيس، وليست المتعة وحدها أيضاً، فلقد تملَّكتني رغبة في أن أتفوق على سانيتش بعدد الأسماك التي أصطادها... هكذا ببساطة...

لم أستطع أن أفهم، إنه عمل غبي، إنما ثمة سرٌّ ما فيه... شيء بدائي. لا توجد أي أفكار على الإطلاق في رأسي. كأنَّ الرنين المناسب من فصل الشتاء يتوحَّد بطريقة ما مع الرنين في رأسي، ويتحوَّل إلى رمال صقيعية.

تراكمت الأسماك حول صندوقينا، فبدا سانيتش مسروراً. لقد اصطدنا خمسة كيلوغرامات، بل أكثر من ذلك، إنما من الواضح أن سانيتش لا ينوي أن يتوقف: يلقي الصنارة، ينتشلها بسرعة، ويصطاد دون ملل، وفي كل مرة يتنحنح ويبصق جانباً.

أنا، أيضاً، ازددت ولعاً بالصيد، ونسيت نفسي، فرحت ألقي الصنارة وأنتشلها بسرعة، وأصطاد. تفاجأت حين لم تعد تعلق بالخطاف أي سمكة، حرَّكت قصبة الصيد مرات عدة إلى الأعلى والأسفل، لكن لم يتبع ذلك أي نقرة. حدَّقت بسانيتش: كان مستمراً في عمله بنشاط مع قصبة الصيد، لكنَّه لا يصطاد أي شيء.

اختفى السمك.

- هل يعني ذلك أننا اصطدنا كلَّ شيء؟ سألته.

- لا، ماذا تقول؛ لا يمكن اصطياد السمك كلَّه.

يبدو... أحنى سانيتش رأسه باتجاه الجليد، وأخرج أذنه الحمراء من تحت قبعته وأصغى وأصغيت أنا أيضاً، لكن سانيتش أشار لي بيده كي أحرِّك قصبة الصيد بهدوء.

- لقد هربت أسماك القاروص، همس سانيتش، هل تفهم؟

هززت رأسي.

- سمكة أكبر تسبح إلى هنا!

- الـ كراكي؟

هزَّ سانيتش كتفيه. حبست أنفاسي، وأحسست بسمكة ترتفع من عمق غير معروف، تشبه سمك القرش بالتأكيد، ذات وجه طويل مدبَّب، وأسنان، وحراشف ذهبية، سمكة طويلة مثل الرمح، عيناها سوداوان براقتان، وذيلها عريض، تندفع عبر طبقات الماء بحركات شفافة من زعانفها الصدرية. يا لها من سمكة. يبدو أن سمكة الكراكي تنمو وتكبر، وتصبح أحجامها ضخمة. كانت إحدى النساء تغسل أواني في النهر، فعضت الكراكي كوعها. حدثني سانيتش بذلك، ربما كان يكذب، إنما برغم ذلك، اكتسبت عملية صيد الأسماك مزية نوعية جديدة: اعتقدت فجأة أننا الآن لسنا نحن الصيادين، بل يوجد من يصطادنا، وأنَّه من المحتمل أن ينكسر الجليد، ويظهر في الهواء فم سمكة الكراكي ورأسها الرمادي، فتمسك بساقي وتسحبني إلى الماء.

- امسك قصبة الصيد بقوة أكبر، نصحني سانيتش، إنما لا تلفها حول يدك، إذا أمسكتها، فستمزق جلدك.

عموماً صيد سمكة كراكي كبيرة أمر جيد للغاية، سنأكلها بلذة...

لكن سمكة الكراكي لم تستسلم. لذا غيَّر سانيتش اللعبة، وأنزل الصنارة إلى القاع، ثم رفعها إلى السطح، وراح يلعب كالساحر بقصبة الصيد؛ مثل قائد فرقة موسيقية في النادي، لكن السمكة لم تستجب.

رحت أحاكيه، لكنني لم أحقق أي نجاح، فقد صارت الصنارة تتأرجح بلا فائدة، وانقلبت تحت الماء رخوة واهنة، فضلاً عن أنني أصبت بسبب ضعف الخبرة برضٍّ في معصم يدي اليمنى، فشعرت بفظاعة، إذ امتدَّ الألم إلى أصابعي، وإلى أعلى مرفقي، لذلك ألقيت قصبة الصيد على الجليد، وشرعت أدلِّك عظام أصابعي: أضمُّ قبضتي وأفتحها.

انتشرت شرارة عبر جلد يدي، فغرزت راحتي في الثلج ونفضتها، ثم تناولت قصبة الصيد، وألقيت الصنارة، وأخذت أسحبها بحذر. شُدَّ الخيط.

- علقت، قلت، ثمة جذمور خشب غارق على الأرجح.

- بهدوء... قال سانيتش بصوت خافت لا يكاد يُسمع، بهدوء! إنَّها هي...

اقترب سانيتش من الثقب الذي أصيد منه بحذر، وأخذ قصبة الصيد مني، وراح يسحب الخيط.

- لا، لم يعلق الخطاف، ابتسم سانيتش، أنا أستطيع على الفور تحديد إن كان الخطاف قد علق أم لا، إنه ثابت، هذه سمكة أمسكت بالطعم، وهي في القاع، سنجعلها تغضب حالاً...

بدأ سانيتش يرفع قصبة الصيد بتؤدة، أما أنا فالتقطت جلموداً من الجليد تحسباً لأي طارئ: إذا ظهر الكراكي، فسأصدم رأسه جيداً، لكن السمكة لم تتحرك.

- تلك السمكة السامّة تختبئ في القاع، ولا تتحرك، خبط سانيتش الجليد بقدمه، من الذي بدأ، إذاً أنت قررت ذلك... حسناً، أنت، أيتها الحمقاء، أتيت بنفسك؛ على نفسها جنت براقش.

أمسك سانيتش قصبة الصيد بثبات وصرامة، وراح يقفز على الجليد حول فوهة الصيد.

لا بأس.

قفز، قفز، ثم توقف، ورفع العصا.

- أمر مضحك...

جلس سانيتش على الجليد.

- حبَّذا لو معنا قنبلة يدوية... قلت له.

- لا مجال هنا لاستخدام القنابل اليدوية، تمتم سانيتش، سيتكسر الجليد... حسناً، حسناً...

استنشق سانيتش الهواء، وانحنى على الفوهة، وصاح في الماء. لقد أعطى ذلك ثماره فجأة، إذ توتَّر خيط الصيد، فقفز سانيتش على قدميه وجلس ثانية: لقد تغلغلت يده بسرعة في الحفرة حتى كتفه.

احمر وجهه، وانطبعت على وجهه تعابير المرح والدهشة، من الواضح أنه لم يتوقع حدوث ذلك، لسبب ما أمسكت بساقه؛ شعرت بالخوف من أن يتصدَّع الجليد ويسحبه حالاً. أثار ذلك ضحكي؛ سيكتبون في الكتب المدرسية لاحقاً: سحبت سمكة كراكي فدائياً بطلاً وجرَّته إلى القاع.

- ستقطع يدي، قال سانيتش بسرور، لا يقل وزنها عن عشرين كيلوغراماً! ينبغي أن أتركها، آ؟

- اتركها.

- سأتركها!

لكن سانيتش لم يتركها: استلقى على الجليد أكثر من خمس دقائق أخرى، وراح يرغي ويزبد، ويصفع الجليد بقبضته، ويكزُّ على أسنانه.

على الرغم من ذلك تركها، وسحب يده من تحت الجليد، ولوَّح بها للتخلص من الماء. انتفخ ثلم أحمر حول إصبعه ناتج عن خيط الصيد.

- ربما هذا قرموط. على أي حال، قال سانيتش، هذه عاداته. مع ذلك، لم نكن لنخرجه. حسناً، دعه يكبر، في المرة القادمة سنصطاده.

تنهَّد سانيتش بسعادة، وراح ينظر إلى الماء.

- صيد جيد... ابتسم والماء يقطر من كميه، اصطدنا فرخ القاروص في النهاية. الآن يمكن العودة إلى البيت. مساء، سنشوي سمكة القاروص في الفرن. عظيم!

أخذت أجمع السمك المتناثر: بعض أسماك القاروص كانت لا تزال تنبض بالحياة، التقطتها وألقيتها في الصندوق، فنشرت ريشها، لم ترد الصعود إلى الصندوق، وراحت تخدش بأشواكها. لم يجمع سانيتش الأسماك، وقف فوق الصندوق المفتوح، ولسبب ما راح ينظر إلى الضفة المقابلة: ضفة مهجورة وعالية، بضع شجيرات، هذا كل شيء. رحت أنظر أيضاً، لكنني لم أر شيئاً مثيراً للاهتمام، ضفة كأي ضفة.

أما سانيتش فقد ترك فجأة الصندوق، وصعد المنحدر إلى الأعلى. لقد استغرق فترة طويلة في الصعود، وسقط في الثلج العميق، ثم عاد إلى الوراء إلى الجلاميد، لكنه عائد فوصل إلى الحافة، ولوَّح لي بيده، ثم اختفى وراء الأفق. كان الثلج يتساقط من السماء البيضاء، وبدا المنحدر مصقولاً، لذلك كان من الصعب تمييز الخط الفاصل بينهما. راحت أسماك القاروص، التي لم تهدأ بعد، ترتعش في الصندوق. لم يعد سانيتش مرئياً، لم يعد مرئياً.

الفصل التاسع

طبعاً، أنا لم أغفُ، أما سانيتش فقد راح يشخر بصوت عال وبسعادة، إنما صوت ساعته تفوّق عليه في التكتكة. كانت الساعة معلقة على عصا مثبتة بالحائط، يتوهَّج ضوؤها الفوسفوري الأخضر، وقد أخذت تتأرجح قليلاً حين بدأ سانيتش يتقلَّب.

رحت أفكر: هذا أول قطار يأخذونني للإغارة عليه، قبل ذلك كنت أشارك في عمليات الاستطلاع، بالإضافة إلى عمليتين صغيرتين أيضاً، أما الآن فقطار بكامله! ثمة ما يستحقُّ التفكير به...

نعم، لقد مرَّ هذا اليوم صاخباً، كما اليوم الذي يسبق العيد.

البارحة، في الصباح زارنا جيراننا من الشرق، وأحضروا معهم بطاريات في عبوات عسكرية ضخمة، عبوات تلقى بالمظلات. جلسنا طوال اليوم في مكتب غليبوف نفكِّر، ونقلِّب موجات الراديو. لاذ سانيتش بالصمت، وراح يمشي بهيئة جدية، وتفحَّص الأسلحة مرتين.

الجميع كانوا ينتظرون أمراً ما، يبدو أنَّ زمناً هاماً قد أزف: الهجوم؛ الجيش يستعدُّ للتقدُّم نحو الغرب، ونحن نستعدُّ لدعمه. مضى سانيتش إلى مقر القيادة لحضور اجتماع، ثم أعاد تنظيف السلاح مرة أخرى، أصبح حانقاً فعلاً، تفحَّص سلاحه وسلاحي.

أطلَّ كوفالِتْس مرتدياً لباساً خفيفاً، وقد علّق حافظة على حزامه، وحلق حلاقة ناعمة، فبدا خدَّاه متوردين، يشبه فتاة تماماً. ابتسم، فبانت أسنانه البيضاء الناصعة. يقال إنه لـمَّـا التحق بالفدائيين، أخذ معه معجون أسنان يكفيه ثلاث سنوات، وإنَّه يصنع فُرَش الأسنان يدوياً من شعر ذكر الخنزير البري.

- مرحباً، أيها الصعاليك! تثاءب كوفالِتْس، يبدو أنهم سيأخذونكما غداً معنا، أيضاً... انتبها، وكونا حذرين هناك، انتبها إلى سراويلكما حين نصادف المياه الغالية.

- هذا أكيد، أومأ سانيتش، أنت، يا كوفالِتْس، لا تنطق إلا الدرر، من الصعب العثور على الماء الساخن. لا بدَّ من غسلك بالماء البارد.

ابتسم كوفالِتْس.

- مع أنَّه لن يكون ضرورياً على الإطلاق، تابع سانيتش، فأنت ذاهب مع الوقحة؟ أمر خطير: نفخة وتقع في ماء يغلي.

راح سانيتش ينكش أنفه بازدراء.

- هل كتبتَ رسالة إلى والدتك؟ سأله سانيتش، أعطني إياها سوف أسلِّمها لها. لا تقلق، سأخبرها بكل شيء كما ينبغي: سقط سقوط الشجعان، وسيظلُّ إلى الأبد في قلوب رفاقه مثال الشجاعة والجمال.

أومأ كوفالِتْس برأسه، وهو يحدِّق بغضب.

- نعم، نعم، قال لـمَّـا أنهى سانيتش كلامه، سيكون كذلك تماماً. لكنك، طبعاً، ستشعر بالضيم، إذ سيصدر المرسوم، كي تعلِّق نجمة البطولة وساماً على صدرك... لكنك لن تعيش إلى تلك اللحظة! آي، آي- آي! إنما لا بأس، لا تقلق، سيرسلون كلَّ شيء إلى أقاربك في علبة صغيرة: المرسوم ووسام لينين. إنما عموماً... عموماً، يا قشر الخشب، كان بودي، طبعاً، أن أعلِّق على صدرك ذلك الوسام، لقاء حكايتك المضحكة عن البواسير، ولكني لن أفعل، من الأفضل أن أخرج وأستنشق بعض الهواء، إنه منعشٌ اليوم.

ركل الباب مثل كلب غاضب.

قفز سانيتش وراءه، وكذلك فعلت أنا تحسباً لأي طارئ.

كان كوفالِتْس يتمشَّى قريباً، في دائرة محددة، كأنَّه غارق في أفكاره.

- زريبة تيوس... أومأ سانيتش بأنفه في اتجاه مخبأ خصمه، حسناً، سنرى.

بدلاً من كوفالِتْس ظهر شوري واقترب، لقد اقترب بثبات، ولم يركض، كان مقطّباً بجدية، ونظر إلينا نظرة استعلاء، ولم يسلِّم.

- حسناً، يا شوري، سنحضر لك مسدس والتر هذه المرة بالتأكيد، وعده سانيتش وهو يمشي، أو اثنين.

- لم أعد في حاجة إلى ذلك. تثاءب شوري.

- لماذا لم تعد في حاجة إليه؟ تنبَّـه سانيتش، هل أحضر كوفالِتْس مسدس تخويف؟

هزَّ شوري رأسه.

- احتفظ بوالترك لنفسك، أجابه، سوف يكون لدي قريباً مسدس ت. ت عليه نجوم.

- من أين؟

- نعم، هكذا. أرسل ستالين برقية إلـيَّ.

غصَّ سانيتش. لا، لم يكن يمضغ أي شيء، لكنه كاد يختنق، وأنا كدت أختنق أيضاً.

- أرسل ستالين برقية، كرَّر شوري، لقد أرسلت النقود، وكتبت الرسائل مرات عدَّة، لم يكن لديه الوقت للرد، لأنَّه مشغول بالحرب. لما أصبحت لديه دقيقة فراغ أرسل، على الفور، برقية لي شخصياً؛ برقية شكر.

- أنت تكذب... قال سانيتش بغضب.

حدَّق شوري به بازدراء.

- أرني!

هزَّ شوري كتفيه.

- واضح، تثاءب سانيتش، كل شـيء واضـح. لقـد كذب حتى آخـر فاصلة.

أخرج شوري صحيفة من عبه، وأخذ يقلِّبها. كانت في الصحيفة رواية غوغول «تاراس بولبا» ذات غلاف أزرق، فتحها شوري من منتصفها.

كانت ورقة برقية عادية، أُلصِقَ عليها شريط البرقيات، وعنوان فريق العمل الفدائي، المعسكر السابع والستين، إلى ألكسندر جيلكين، ثم...

- دعني أرى! طلب سانيتش منه.

- احذر! أبعد شوري البرقية، لا تـمسَّها بيديك، انظر إليها من بعيد!

أبعد سانيتش يديه مطيعاً، وأخفاهما خلف ظهره. انحنى لأن شوركا أبقى البرقية منخفضة عمداً.

أنا أيضاً انحنيت، لا بأس، لن أنكسر.

- اقرأا. قال شوري بهيبة.

بدأ سانيتش في القراءة: «عزيزي ساشا! لقد استلمنا ما أرسلت لنا من نقود لمشروع بناء القاذفة بعيدة المدى «بيونير»...»

- قاذفة بعيدة المدى! توقف شوركا، آ؟ سوف تقصف الألمان! آ؟ سيكون اسمي مكتوباً على كلِّ قنبلة! مثل شيتّيكوف!

تابع سانيتش: «... القاذفة «بيونير». شكراً لمساهمتكم في قضية النصر المشتركة. سنهزم العدو!».

- اقرأ التوقيع!

قرأ سانيتش: «القائد الأعلى للقوات المسلحة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ي. ف. ستالين».

- ستالين! طوى شـوركا الورقة أربـع طيات، ثم أخفـاها في عبِّـه، هكذا إذاً! ستالين شخصياً أجابني! أصبح لزاماً عليهم أن يخصصوا مسدساً ت. ت. لي! سيعطيني غليبوف إياه، لقد راجعته فعلاً، ووعدني. مفهوم؟

أومأ سانيتش برأسه.

استدار شوري ومضى فخوراً، هنا ظهرت أَلِفْتينا، قال لها شوركا شيئاً ما، وأشار بإصبعه في اتجاهنا، فاتجهت إلينا مباشرة، بنوايا مبيتة كما يبدو، فابتعدتُ تحسُّباً لأي طارئ.

- لقد أصبح كلُّ ذلك يزعجني، قالت أَلِفْتينا، وهـي تنظر بغضب إلى سانيتش، في البداية كنت تضايقه بالمسدسات، فلا ينام، ولا يأكل، بالمناسبة، إنَّه مصاب بالسل، والآن تحدِّثه عن معهد ما للطيران...

- لم أحدِّثه عن أي معهد، حاول سانيتش تبرئة نفسه، أنا عموماً لا أعلم عن ذلك...

- انظر! لـوَّحت أَلِفْتينا بإصبعها مهدِّدة، أنت صفَّار، ازداد صفيرك، أنا لست غليبوف، لن أطاردك، سألوي عنقك مباشرة! هل تفهمني؟

- نعم، أنا أفهم، تمتم سانيتش في حيرة، أنا دائماً...

- لا ذكر لأي مسدس! أمسكت أَلِفْتينا سانيتش من كمه، فهمت؟ ولا أي معاهد! فـي البداية، يحتاج إلى تعلُّم المشي بشكل طبيعي! مفهوم؟ إذا اكتشفتُ أنك حدثته عن أي قصص خيالية مرة أخرى، فسأقطع رأسك!

- نعم، أنا... أخذ سانيتش يبرِّر، أردت أن أهديه مسدساً عاطلاً، لا يطلق النار.

- جرِّبْ فقط، صرخت أَلِفْتينا، سأمزِّق أذنيك وأسمِّرهما علـى شجر البتولا، ليتفرج الجميع عليهما! ستصبح مشوهاً، وهذا يهمك أيضاً!

التفتت أَلِفْتينا إلـيَّ بشكل غير متوقع، فشعرت بالارتباك، وقلت بعفوية:

- ما ذنبنا نحن؟ غليبوف نفسه سوف يعطيه «مسدس ت. ت».

داس سانيتش على قدمي.

- ماذا؟

- إنه يمزح، دفعني سانيتش جانباً، شوركا ببساطة...

- لقد حذَّرتك، قالت أَلِفْتينا بصوت جليدي، يا لكما من متسكِّعين.

لاذ سانيتش بالصمت، مع أنني ظننت أنَّه سيقول شيئاً ما؛ مثل «اخرسي، احترمي نفسك»، فمن هي على أي حال؟ عموماً، أنا شخص صبور...

أما كوفالِتْس فقد كان يراقب ما يجري بكل سرور، وطوى، الأفعى، يديه على صدره.

- كوفالِتْس! صاحت أَلِفْتينا، تعال من فضلك!

استجاب كوفالِتْس بسهولة. يا له من رجل مستجيب: تجده دائماً في المكان المناسب، يكفي أن تدير رأسك حتى يظهر، صاحب مهارة رائعة. هزَّ غرته، وانحنى بكلِّ جسده إلى الخلف، لو كانت لديه عصا لاتَّكأ عليها بالتأكيد.

- ها هي ذي تثرثر مع هذا الأحمق مرة أخرى، أخذ سانيتش يحكُّ ذقنه، ربما أهديها منديلاً أيضاً، آ؟

- أنا لا أعرف... أنت أدرى.

- نعم حقاً...

بصق سانيتش، ثم مسح حذاءه. نظرت حولي، فرأيت ألِفْتينا تصحِّح ياقة قميص كوفالِتْس.

- حسناً، ما بالك تحملق؟ خاطبني معاتباً، هيا نفحص الرشاشات.

- فحصناها...

- نفحصها مرة أخرى.

عدنا لفحص الرشاشات، وأعاد شدَّ الأحزمة، كما تفحَّص مشدَّات الأقدام، وفتَّش الجيوب عاشر مرة، هل ثمة أي شيء زائد عن الحاجة، برغم أن كل القمامة الزائدة في هذه الجيوب أفرغناها مساء.

لـمَّا لم يتبق شـيء نفحصه ونتحقَّق منه، جلسنا علـى سريرينا ورحنا ننتظر. حلَّ المساء، ولم يُسمع أي صوت في الخارج، وقد انبعث الدخان من حين لآخر، شعرت بألم طفيف في ساقي وظلَّ سانيتش صامتاً. حاولت أن أستمع إلى مشاعري، لكنني لم أقبض على أي شيء سوى الخوف الباهت.

طرقوا الباب.

في الثالثة صباحاً مع بزوغ القمر تماماً.

أخذ كلُّ فرد بالإضافة إلـى أسلحته والذخيرة حقيبـة ظهر مليئة بالمتفجرات. كانت حقيبتي وحقيبة سانيتش صغيرتين ومستديرتين، ليستا مضلَّعتين مثل حقائب الآخرين، تزن الواحدة خمسة كيلوغرامات، عادية، يمكن حملها أثناء المسير. في الحقيقة طلب سانيتش مني أن نأخذ رشاشين PPSh وMP لكلِّ واحد؛ لذلك كان الوزن زائداً. طمأنني سانيتش قائلاً: على كل حال، سنحمل هذا الوزن في اتجاه واحد فقط.

بلغ عدد مجموعتنا عشرة أشخاص، إذا أغفلنا أنا وسانيتش من الحساب. جميعنا شبان، باستثناء شيتِّيكوف، الذي تجاوز الأربعين منذ زمن، إنما الأمر من دونه مستحيل تماماً، لأنه خبير بالمتفجرات وفي كل شيء عملياً. الجميع يحملون حقائب الظهر، بمن فيهم غليبوف، اثنان فقط كانا خفيفين: كولاكوف الذي يحمل بندقية قنص، وكوفالِتْس، عدم تحميلهم كولاكوف حقيبة مفهوم، لكي تبقى يداه حرتين قبل إطلاق النار، ولكن لماذا سار كوفالِتْس خالي الوفاض... ربما ثمة سبب أيضاً.

لا أستطيع قول أي شيء عن الطريق، فقد تحرَّكنا بسرعة كبيرة، ولم يكن لدي وقت سوى للتنفس. مشينا في الليل وفي الصباح الباكر، أما في النهار فقد كمنَّا في الغابة، وسرنا مرة أخرى في المساء، وفي الصباح وصلنا إلى الهدف.

- سنقطع المسافة المتبقية بصمت، قال سانيتش، لا تثرثر، ولا تسألني أي سؤال. إذا طرأ أي شيء، فسأخبرك بنفسي. انظر إلـيَّ باستمرار، مفهوم؟

- مفهوم.

الكيلومتران التاليان لم يكونا سهلين؛ لم تقترب مجموعة الاستطلاع من السكة الحديدية، فالطريق غير واضحة، والثلج سميك جداً، يصل في بعض الأماكن حتى الخصر تقريباً. كنا نسير وراء الجميع، لذلك كان الأمر أسهل بالنسبة إلينا. مع ذلك، أمسك سانيتش بحزامي وراح يسحبني وراءه، وحين اقتربنا من النهاية تناول حقيبتي، لأنني لم أعد أستطيع الزحف مع حقيبة الظهر.

توقفنا على بعد ثلاثين متراً على هضبة بين الأشجار، كانت سكة الحديد تلمع في الأسفل، وقد خيِّل إلـيَّ أنها تدخن تحت الشمس.

أومأ غليبوف برأسه، فبدأت المجموعة تباعد بين صفوفها في صمت، ومن دون كلام، كلُّ واحد يعرف مهمته. التفتُّ إلى سانيتش، وإذا به يخلع حقيبته، فخلعتها أنا أيضاً.

وضع سانيتش إصبعه على شفتيه، وأومأ برأسه إلى اليسار، تحرَّكَ أولاً، وأنا تبعته. لقد شقَّ طريقه بشكل غريب محاولاً عدم الاقتراب من أشجار الصنوبر، وبدا حذراً، كأنَّه في حقل ألغام. تابعته خطوة خطوة، من دون أن أعلم إن كانت هذه الدقة مطلوبة حقاً. لا، ربما من الأفضل السيطرة على الذات، فالانضباط نصف النجاح. صرت أفكِّر مثل غليبوف.

بقينا وحدنا. اختار سانيتش مكاناً مناسباً بين شجيرات ملتفَّة، وراح ينظر حوله، ثم بدأ يحفر خندقاً في الثلج، وكذلك أنا. أخذنا نحفر ببطء حتى لا يسقط الثلج عن الأغصان، حبسنا التنفس تقريباً، لم نستخدم الرفوش، ولم نقم بأي حركة تحدث ضجة.

طبعاً، أنجز سانيتش عمله قبلي، كان خندقه أكثر راحة، وشرع ينظر بالمنظار. قضيت في العمل فترة أطول. كان الثلج كثيفاً ومرصوصاً، من الصعب خرقه، بدأت ركبتاي تؤلمانني.

- انظر الآن إلى الأمام مباشرة، ناولني سانيتش المنظار الثاني، أربع عيون أفضل من عينين.

أخذت انظر: سكة حديد، وساتر ترابي، وثلج قذر كثيف، وأحراج أسفل الساتر مقصوصة. بذل الألمان جهدهم في فصل الصيف. كل شيء كما هو مطلوب: المسافة إلى الجسر ليست بعيدة، ولا توجد أحراج إلى جواره، سيختبئ الفدائيون الأنصار في الأحراش... لم يقتلعوها من جذورها، بل قصُّوها بارتفاع نصف متر، وبقيت جذوع الأشجار القصيرة تحت الثلج، للحماية أيضاً.

- تنفَّسْ بهدوء أكثر، نصحني سانيتش، لا تدع البخار يخرج، الألمان ليسوا حمقى.

بذلت جهدي ألا أتنفس، أي ألا أطلق الزفير مباشرة، بل أتنفس وأطلق الهواء على دفعات صغيرة تدريجياً، كي يتاح لها وقت كاف للذوبان.

- تحرَّكْ أقل، واصل سانيتش، حرِّك عضلاتك، إنما لا تحرِّك يديك، يمكن أن تضغط قبضتك، وتذكَّر الأغاني جيداً.

لقد أسدى لي كثيراً من النصائح. جرَّبت الغناء، وبدأت أغني بيني وبين نفسي، إنما اتضح أنني لا أتذكَّر أي أغنية؛ كنت أعرف بعض أغاني الطلائع، لكنني نسيتها تماماً في الآونة الأخيرة، أتذكَّر فقط النشيد الوطني، ومن تحية العلم أتذكَّر شيئاً ما. بدأت أؤلف بنفسي أغاني عن العلم والرياح والهجوم، وقد ساعدني ذلك؛ شغلت نفسي، وانهمكت بها، فلم أعد أسمع شيئاً. ركلني سانيتش وتمتم بشيء ما. ثمة طائر شتوي خائف يئنُّ في الغابة، ربما طير القرزبيل، أو شحرور أسود، أو ربما شخص من جماعتنا يمزح معنا في الشتاء...

- هكذا. قال سانيتش.

- إنه قادم. تناولت الرشاش.

- إنَّه ليس من قطاراتنا، هزَّ سانيتش رأسه، لا تتنفسْ، كما قلت لك، ابق هادئاً.

- كيف عرفت أنه ليس من قطاراتنا؟

- دعنا ننتظر قليلاً. أوضح سانيتش.

عملياً انتظرنا فترة ليست طويلة، أقلَّ من ساعة، أخبرني سانيتش أنه يمكنك أن تُمضي عشر ساعات في انتظار قطارك، هنا الصبر مهم كما في صيد السمك.

تدانى صوت القطار الذي راح ينفخ، ويضجَّ على السكة الحديدية، وينفث كتلاً من الدخان الأسود فوق أشجار التنوب. مددت يدي إلى القنابل اليدوية، لكن سانيتش زمجر، فوضعت يدي في الثلج،

لكنني لم أشعر به على الإطلاق؛ كان الثلج دافئاً.

- اصمت، أقول لك! تمتم سانيتش، اصمت!

ظهر القطار، وهو قاطرة قديمة، تدفع أمامها عربتين مفتوحتين مملوءتين بقطع من السكك، والصناديق المعدنية، والأسطوانات الحديدية والعجلات، التي تحدث قعقعة.

- دائماً يرسلون قبل القطار الرئيس قطاراً فارغاً، أوضح سانيتش، لاستطلاع الخطِّ تحسُّباً لأي أمر مجهول، ربما ثمة قنبلة مزروعة؟ وهذه العربات لا تحمل شيئاً مهماً: عِدد الإصلاح، والجرحى، والبريد. ينبغي السماح لها بالمرور. لا ترفع رأسك!

لكنني لم أرفع رأسي، أخذت أضغط على الثلج، وأنظر بعين واحدة. استغرق مرور القطار مدَّة طويلة. لم يكن طويلاً جداً: عربتا ركاب مهلهلتان يستقلُّهما الضباط، وثلاث عربات للجنود، وأربع عربات شحن. كان القطار يسير على السكة بتؤدة، ولم يكن السائق على عجلة من أمره، كلما أبطأت في السير، طال عمرك، ما أروع الرجوع إلى البيت عموماً. تهادى القطار صاخباً أمامنا، وظلَّت رائحة دخان القاطرة عالقة في الهواء فترة طويلة، وتعالت قرقعة الحديد فوق الغابة.

- ثمة أشخاص سيحالفهم الحظ اليوم، قال سانيتش، وآخرون لن يحالفهم. الآن دباباتنا في الطريق، اليوم ينبغي أن يصل ما لا يقل عن عشر دبابات.

أظهر سانيتش قبضتيه المضغوطتين.

- أمر رائع أن تحضر الدبابات، صدم قبضة بقبضة، أين يمكنك رؤية الدبابات؟ نادراً ما توجد دبابات في معسكرات الفدائيين، وأنا تنقصني دبابة واحدة...

لزم سانيتش الصمت، وحدَّق بوجهي.

- اسمع، يا ديما، من المثير للاهتمام كيف تدخل في الحساب؟ أقصد الدبابات؛ إذا أحرقنا الدبابات هنا الآن، وهي ليست في وضعية قتالية، فهل يحسبونها لنا، أم ماذا؟ ما رأيك؟

- لست أدري.

- كان من الضروري توضيح ذلك، مرة أخرى يبدو أن إعدادنا سيِّئ. هكذا إذاً، أنا لا أعرف الكثير عن الدبابات...

أخذ سانيتش يتحدث عن الدبابات وحساباتها، وعن حقيقة أنه يرغب في إسقاط طائرة «فوكر» على سبيل المثال، فهي تطير على ارتفاع منخفض، لكنه لا يستطيع الحصول على السلاح

المناسب، إذ تحتاج إلى مدفع رشاش ثقيل، إنما من أين تحصل عليه؟ لا، لديه سلاح مضاد للدبابات، لكنه يزن نصف طن، ولا يمكن تحريكه...

- أنت لست في حاجة إلى إغراق غواصة؟ لم أستطع ضبط نفسي.

لاذ سانيتش بالصمت. يبدو أنَّه لم يفكِّر على هذا المستوى من قبل، لكنه أحبَّ الفكرة كما هو واضح.

- لن نحصل على غواصة، تنهَّد سانيتش بعد لحظة من التفكير، أين ستجدها هنا؟ هل يمكنها دخول نهر فولخوف؟ أو دْفينا؟

- ربما تستطيع دخول دْفينا، لكن من غير المرجح أن تدخل فولخوف... على الرغم من أنَّه يمكن نقلها عن طريق السكك الحديدية.

بصق سانيتش بغضب.

- المنطقة بعيدة على أي حال، هنا يمكننا إغراق قطار ما، ينبغي التفكير في هذا الأمر في فصل الصيف... راقب الطريق، وسأرتاح قليلاً.

انقلب سانيتش على ظهره، وراح يحدِّق في السماء، كسر غصناً صغيراً، ثم وضعه بين أسنانه، وشرع يمضغه.

- في مصنعنا، كانوا يمنحون جائزة لكل من يفوق إنتاجه الخطَّة المقرَّرة، قال لي، بإمكانك أن تشتري بها حلويات كُزيناكوف. ينبغي تقديم اقتراح إلى القيادة كي يُقدَّم الكَراميل لقاء كل فاشي، أو علبة من معلبات اللحم، على سبيل المثال، ومن يقتل ضابطاً، يبقى أسبوعاً كاملاً في المطبخ، على أن يُسمح له بأن يغترف من أسفل القدور، وتُخصَّص له رزمتا خبز بالثوم. حسناً، أما من يقتل رائداً، أو جنرالاً...

هنا لزم سانيتش الصمت؛ يبدو أنَّه لم يفكِّر سابقاً في ما ينبغي أن يُقدَّم إلى الفدائي الباسل الذي يقتل جنرالاً.

- ينبغي أن تخصَّص حصَّة إعاشة مميزة لكلِّ من يقتل جنرالاً، قال سانيتش، ليست مضاعفة فحسب، بل فوق المضاعفة. يجب أن يدخل فيها... هنا تلعثم سانيتش مرة أخرى، يجب أن يدخل فيها علبة لحم، وبعض السُكَّر، ومسحوق البيض، والحليب المكثَّف. هل جرَّبت الحليب المكثَّف؟

- لا.

- أنا جرَّبته، حاولت، لقد أرسلوا لنا خمس علب في مجموعة الاستطلاع، إنَّه مُخصَّص فقط لقباطنة الطيران القطبي، وبحَّارة الغوَّاصات، هذا الحليب مُكثَّف مثل العسل، وهو مُحلَّى بالسُكَّر،

تناولت نصف علبة، هل يمكنك أن تتخيل؟! إنَّه لذيذ جداً. ستوزع ثلاث علب في كلِّ حصة مضاعفة، هذا فضلاً عن الآيس كريم الجاف، يمكن مزجه بالحليب...

بدأت أسناني تتكتك من الجوع، ومن البرد، ومن الاثنين معاً، الحليب المكثَّف، وما أدراك ما الحليب المكثَّف.

- حسناً، قال سانيتش، لم يبق إلا القليل، قريباً سنتدفأ.

أخذ يطقطق أصابعه.

- القطارات اليوم قليلة... عادة تمرُّ بكثافة، كما هو مخطَّط لها. هل تسمع؟ إنه قادم، هل تسمع.

لا، لا أسمع.

- افرُكْ أذنيك.

- لماذا؟

- سوف تسمع أفضل، هذا أمر مفيد قبل المعركة...

- برغم ذلك فركتُهما، وفعلاً أخذت أسمع: تسيك، تسيك، تسيك متواترة على نحوٍ عشوائي، لا أظنُّ أنَّ صوت الدبابات على هذا النحو.

- عربة مقطورة، أوضح سانيتش، هذا يدلُّ على أن قافلة قطارنا مهمة، اجلس بهدوء، لا تطقطق بأسنانك.

أدخلت قفازي بين أسناني كيلا تتكتك.

علا ضجيج اصطكاك العربات بالسكَّة، وبعد دقيقة ظهرت عربة مقطورة.

- إنهم يتحقَّقون مرة أخرى، أوضح سانيتش، يرسلون عربة مقطورة خاصة أمام كل قطار مهم، وإذا رأوا أي أثر على طول الطريق، فإنَّهم ينزلون ويفتشون الغابة، ثمة شخص مختص باستخدام قاذفة الصواريخ: وبمجرد أن يحدث أي شيء، يطلق طلقات خطاطة على الفور في السماء، إنهم يراقبون القطار الرئيس هكذا. عموماً، أحرقوا الغابات، في ضواحي نوفغورود، على طول الطريق، كي لا يقترب منه أحد...

أخذت العربة المقطورة تهتزّ أمامنا، فيها ثلاثة ألمان يشبهون الفئران. أحد الفئران يقودها، والآخران يراقبان في جميع الاتجاهات. كانوا يسيرون ببطء وحذر، مسحوا منطقتنا بالمنظار نحو دقيقتين.

- حسناً، هذا كل شيء، قال سانيتش، ستبدأ العملية حالاً، راقب هؤلاء كي لا يعودوا إلى الوراء، إذا قرروا العودة، ينبغي القضاء عليهم.

لكنَّ العربة المقطورة لم تعد، وتناءى صوت التكتكة على طول السكَّة، في هذه اللحظة ظهر شيتِّيكوف مع فريقه من تحت أشجار عيد الميلاد، كان فتيل بيكفورد الصاعق يتدلَّى على كتفه، فضلاً عن أنه كان يحمل بيده صندوقاً خشبياً ولغماً، في حين كان الباقون يحملون الألغام والمخلات ومجارف سبر قصيرة، قام الجميع بعملهم بسرعة ورشاقة. زرعوا الألغام على طول الساتر الترابي، وسووه بسرعة خلال زمن يقلُّ عن نصف دقيقة كما خيُّل إلـيَّ. وبينما تراجعوا الواحد إثر الآخر، أغلق شيتِّيكوف الدارة، وسوى الآثار بحذر بالمجرفة، وموَّه فتيل بيكفورد، لقد قام بكل ذلك ببراعة ودقة معلم خبير بإصلاح الساعات. شعرت بالحسد: شيتِّيكوف ماهر على أي حال، يعمل بشكل جيد، ويصلح الساعات ببراعة أيضاً على الأرجح.

هذا كل شيء.

اختفى شيتِّيكوف، علينا الانتظار.

الانتظار.

فجأة شعرت بطعم حامض حاد في فمي، كما في حالة ما قبل القيء، لم أستطع المقاومة، أخرجت إبر الصنوبر من فمي، كانت غصناً كاملاً، عضضت كثيراً منه، ورحت أمضغ، تبين أنَّ الغصن مرٌّ، بلا عصير على الإطلاق. يبدو أن عصير أوراق الصنوبر يعود في فصل الشتاء إلى الجذور، يكمن فيها بانتظار الدفء.

- حسناً، أنت مميز... ابتسم سانيتش ابتسامة عريضة، سوف أخبر ليكوف كي يتوقف عن إطعامك، يمكنك ببساطة أكل الحطب بشكل جيد. بالمناسبة، هل تعلم أنَّ كوفالِتْس عاد مرة إلى المخيم عارياً؟ لا؟ قصة رائعة، الآن سأخبرك إياها...

غرز سانيتش وجهه بالثلج، وغمره بالبياض، ثم ألقى نظرة إلى أعلى وهزَّ الثلج عن أنفه، وبدأ حديثه:

- قصة مذهلة. ذات مرة ذهب كوفالِتْس في مهمة استطلاعية، كان ذلك في الصيف الماضي، حسناً، أنت تتذكر كم كان الجو حاراً في فصل الصيف، كان شعره ملتصقاً برأسه... مثل أيل كبير، لا يستطيع المشي بشكل طبيعي، ظلَّ طوال فترة الصباح يركض في الغابة، بحثاً عن الفاشيين. لم يصدف أي واحد منهم قط. حان المساء، فهرع إلى البحيرة، كانت رائحة العرق تفوح منه، مثل

عشرين حصادة، وقرر السباحة: خلع ملابسه، وأخفاها تحت جذع شجرة، ثم نزل إلى الماء بعد أن أخاف الضفادع. غطس مرة، حسناً، غطس مرة ثانية، حسناً، في المرة الثالثة، جاء الألمان. جاؤوا يستحمون أيضاً، مستقلين شاحنة، ويغنون الأغاني. إذاً هم ينوون السباحة، اختبأ كوفالِتْس في البحيرة تحت الجذامير، ولطَّخ نفسه بالطين، وحافظ على تنفسه، أحسَّ فعلاً بأنَّ الماء ليس دافئاً جداً، بل يتجمد تدريجياً. تجمَّع ذباب القُراد[25] سعيداً، كانت البحيرة المكان المناسب الذي اعتاد القُراد أن يتغذَّى فيه على الأبقار عند الظهيرة، لكنهم لم يسوقوا أي بقرة. جمد كوفالِتْس من الخوف، وانقضَّت عليه العلقات، وراحت تعضُّه في وجهه. يعدُّ وجه كوفالِتْس أهم مكان بالنسبة إليه، وها هي ذي العلقات تلسعه بلا توقُّف...

كان ذلك في فصل الصيف، الطقس حارٌ، وكوفالِتْس غارق في البركة، وقد تجمَّع العلق الجائع من كل حدب وصوب، ليتناول وجبة خفيفة صغيرة، فضلاً عن القُراد.

نحن في الشتاء والزمهرير قارس، نحن عالقون في الثلج، ننتظر القطار.

- ها هو ذا جالس، يتحمَّل المعاناة ببطولة، أما الألمان فلا يفكِّرون في المغادرة، وبات وضعه صعباً جداً، فوقه قُرادٌ يلسع رأسه، ومن الأسفل العلق يضنيه، تمنى لو يغرق. يستحيل عليه الوصول إلى الشاطئ حيث الألمان، لذلك قرر كوفالِتْس القيام بمهمة أخرى، ولكن ملابسه وسلاحه تحت الجذع في الجانب الألماني. قصد الأدغال، وركض ما يقارب مائتي متر، وراح يسحق العلق، ويبعد القُراد عنه، وهو عار تماماً، ينبغي له أن يتم المهمة، أين المفر؟ اغتاظ كوفالِتْس قليلاً، وأخذ يحكُّ جلده، ومضى. غاص في الوحل، وغطَّى نفسه بأوراق الأشجار، ثم تابع مسيره إلى الأمام مستطلعاً...

لاذ سانيتش بالصمت، ورحت أنتظر كي أعرف المزيد منه، لكنه لم يكن على عجلة من أمره، ظلَّ صامتاً، يحدِّق بأصابعه.

- ثم ماذا؟ سألته.

- ماذا؟

- ماذا جرى لكوفالِتْس؟

- أحوال كوفالِتْس على ما يرام، كما تعلم. أما هذه فقصة... بسيطة. كمن كوفالِتْس إلى جوار الطريق، وعدَّ كلَّ السيارات، وراح يراقب، مضى كلُّ شيء كما ينبغي، وحلَّ وقت عودته إلى المعسكر، إنما من المخجل أن يعود عارياً، سيثير منظره الضحك. حسناً، قرر العودة إلى البحيرة، فاحتمال أن الفاشيين لا يزالون جالسين هناك ضعيف. عاد، فوجدهم جالسين. هكذا إذاً، لم يعد يطيق صبراً؛ ما إن قفز من بين الشجيرات الكثيفة، حتى صرخ! ومع حلول المساء كان الألمان في

حالة سكر تام فعلاً، ولـمَّـا رأوا هذا المشهد المدهش، اندفعوا إلى الماء من الخوف، فأمسك كوفالِتْس سلاحه، والقنابل اليدوية، ثم هرع يبحث عن الجذع الذي وضع ملابسه تحته، لكنَّه لم يعثر عليها! إما أن البحيرة ليست هي نفسها، وإما أن ثمة شيئاً آخر خطأ... باختصار لم تكن ملابسه موجودة، توجد ملابس فاشية فقط. طبعاً، رفض كوفالِتْس ارتداء الملابس الفاشية، حتى لا تطلق جماعته النار عليه، لم يأخذ منها غير الحذاء.

انتعل الحذاء، وعلَّق سلاحه على كتفه، واتجه صوب معسكرنا، حيث وجد غليبوف في استقباله مصادفة. لست أدري لماذا قصد ذلك المكان، ربما بحثاً عن الفطر. غليبوف، كما تعلم، مولع بالفطر. ما إن يحلَّ الربيع، حتى يذهب مباشرة لجمع الفطر، يطبخه في الدهون، ويطعم الجميع منه حتى التجشؤ. جميع أبناء المدينة يحبُّون أكل الفطر. هل تحبُّـه؟

- أحبُّه، أجبته، أنا حقاً أحبُّ الفطر، لا سيما فطر عش الغراب المملَّح مع القشدة.

- بينما كان غليبوف يجمع الفطر، ويستنشق الهواء النقي، ويستريح من الهموم العسكرية، ظهر له كوفالِتْس فجأة من بين أشجار الصفصاف. أدَّى له التحية، وخبط كعبيه، وراح يقدم تقريره: كذا، وكذا، وكيف قضى على مفرزة من قوات الدفاع الألمانية الخاصة (فيرماخت) مكونة من ثمانية عشر فرداً مسلَّحين حتى أسنانهم، امنحني «وسام الشجاعة»، لقد أخفت بعريي العدوَّ حتى الموت، ألقى البلطجية المختارون أنفسهم في الماء خوفاً، وماتوا بالسكتة القلبية، فأجابه غليبوف: «سأكون سعيداً بمنحك ميدالية، لكن ماذا سأكتب في سبب المنح؟ هل أكتب منح ميدالية لقاء تدمير قوات العدو عن طريق... عن طريق ماذا؟ قد تسيئ الإدارة السياسية الفهم. من الأفضل أن تدمرِّ قوى العدو الحية بالطريقة المعتادة، مثل أي شخص آخر، عندئذ سنقلِّدك ميدالية ووساماً». لقد شعر كوفالِتْس بالإحراج الشديد، ولم يحلق ذقنه يومين كاملين، ونتيجة الحزن قرَّر أن يرسم وشماً على جلده... على الرغم من أنَّ هذه قصَّة أخرى. بالمناسبة، أنا أعرف كثيراً من قصص كوفالِتْس، بما فيها قصص السباحة. استمع كيف عضَّه ثعلب مسعور ذات مرة...

رحت أصغي، وأنا أمضغ غصناً من شجرة عيد الميلاد، إذ سرعان ما اعتدت أكل الحطب. من الممتع، على الأرجح، رواية القصص المضحكة، في أثناء الإبحار: العوامة تطفو على طول النهر ليلاً، وأنت تجلس إلى جوار الموقد، تحيط بك الضفاف السوداء وحدها، وليس ثمة إلا الماء والحركة. تستلقي على ظهرك، وتراقب كيف تفتل النجوم في كل منعطف، ولـمَّـا يحين وقت الضحك، تضحك ضحكاً يوقظ الكلاب الغاضبة في القرى المتناثرة على ضفة النهر...

- هل تستمع إلي؟ تمتم سانيتش بصوت عال في أذني، نائم؟!

- لا، أنا أفكر...

- لا وقت للتفكير، قال لي، لقد حان وقت العمل.

- كيف؟

- هكذا انظر إلـيَّ، أطلقْ النار في رشقات متقطعة، متقطعة فقط، هذا مخيف أكثر. لا تخف؛ الألمان هم من سيصابون بالخوف، مع الخوف لا يمكنك إطلاق النار بدقة، ولن تصيبهم، هذا يحدث دائماً، فهمت؟

- نعم.

- أطلقِ النار على قاذفي المدافع الرشاشة، إذا أتوا بحركة طبعاً... وعلى الضباط، وإذا لم تعثر على هذا ولا ذاك، فعليك إطلاق النار على أقرب واحد.

- ماذا لو هجموا علينا؟ سألته.

- لن يهجموا.

المنطقة وراء المنعطف وعرة للغاية، والثلج المتراكم بكثافة أمامنا يقطع الطريق، فضلاً عن شجر التنوب.

- ها هو ذا قادم. قال سانيتش.

- المدلَّل قادم. ستبدأ الآن...

خلع سترته المبطنة، وفرشها في الخندق الثلجي، واستلقى عليها، ففعلت أنا مثله.

أخذ قلبي ينبض فعلاً في صدغي، وفي عيني، وحتى في أسناني، شعرت بالنبض في أسناني، لقد حاول الخروج من اللثة، لم يحدث ذلك لي قط. تملكتني رغبة في أن أجري، وأهجم إلى الأمام على قضبان سكة الحديد. أصبح البقاء في الخندق أمراً لا يطاق، رحت أرتعش، لكن سانيتش ضربني فوراً على رقبتي مرة وأخرى، وأخرى، لكنني لم أشعر بأي شيء.

- لا تقفز! قال سانيتش، لا يزال الوقت باكراً، انتظر لحظة... لحظة.

أخرج سانيتش ساعته وعلَّقها أمامه. لديه ساعة جيدة، عيبها الوحيد أنَّها تتكتك بصوت عال، بوم، بوم، بوم، أعلى من صوت القطار.

لاح القطار الرئيس، لم يكن مثلما تخيلته. فقد كنت أنتظر على الأقل قطاراً مدرَّعاً بدروع سوداء، معززاً بالصلبان المعدنية، ومدجَّجاً بالأسلحة النارية والمدافع الرشاشة، ولكن ظهرت عربات شحن عادية، تضجُّ في المقدمة، حتماً إنَّها قاطرة مصفَّحة محمَّلة بخردة معدنية، تليها العربات مباشرة، ثم منصات مغطاة بالقماش المشمَّع. خمنا أن العربات الأولى محمَّلة بصناديق ذخيرة تحت القماش

المشمع، تليها الدبابات. لم تبعث أي علائم رعب، فقد كانت أشبه بفيَلة يغطيها قماش واقٍ من المطر، برغم أنَّ فوهاتها متجهة إلى السماء.

تهادى صهريجا وقود في آخر القطار، مطليان باللون الأبيض للتمويه، صهريجا وقود: كيروسين، أو بنزين، أو أي مادة يستخدمونها وقوداً، مغطيان بقماش برتقالي. شعرت بالأسف على ضياع هذه الخيرات من دون جدوى تماماً، صهريج واحد منهما يكفي قرية بأكملها، ليس عاماً فحسب، إنما... لست أدري كم من الوقت، ربما لا يقلُّ عن خمسين عاماً، لتنعم بالإنارة يومياً، لكننا الآن سنجعل كل هذا هباء.

إنَّ هذا العبث أمر غير مفهوم وغير مريح. لنأخذ هذا القطار البخاري، يحتاج تصنيعه إلى مصنع كامل، في الحقيقة ليس إلى مصنع واحد، بل إلى أكثر من مصنع، وإلى مئات الأشخاص، بل آلاف عليهم جميعاً أن يفكِّروا، ويعملوا طوال أيام كثيرة، ثم بضربة، وفي ثوان يتحوَّل كلُّ هذا العمل إلى حطام عديم الفائدة، وقمامة تافهة.

كان القطار، خلافاً للقطارات التي سبقته تماماً، يسير بسرعة زائدة إلى الجبهة عن عمد. يجلس في كل عربة حراسٌ متجمِّدون، يحلمون بتناول شراب ساخن، والوصول قريباً إلى المحطة، حيث يمكن تحضير الشراب الساخن، وطهي العصيدة، والاستلقاء...

وبينما اقترب القطار، اهتزَّت العربات، ولمع طلاء القاطرة المُلطَّخ بالزيت؛ شاهدت وجه السائق عالي التركيز، وهو يصرخ بأمر ما إلى الميكانيكي، ولمَّا تساءلت في سرَّي: هل هو روسي أم ألماني، بدأ كل شيء.

قفز كوفالِتْس من مكان ما، ربما من تحت الثلج تماماً، بل من تحت الثلج تماماً. لم يكن يشبه نفسه: اختفى كلُّ جماله ونعومته، كان وجهه يقطر غضباً، يحمل بيديه لوحاً طوله يقارب متراً ونصف المتر، ثُبِّتت عليه المتفجرات. لم يكن يرتدي معطف الفرو القصير ولا قبعته، بل سترة رقيقة. انقض كوفالِتْس على القطار عبر الثلج، وهو يخلِّص رجليه منه بصعوبة، مثل طير يرقص رقصة غبية، فلاحظه حراس العربة على الفور، وما إن سحب حارس العربة الرشاش حتى أرخى يديه مباشرة، لقد اخترقت رصاصة كتفه، وسقط بين العربات تحت العجلات، إنَّه القناص كولاكوف. أطلق الميكانيكي الصافرة، وسقط حارس آخر، فانتبه باقي الحراس، وبدؤوا يطلقون النار على كوفالِتْس، إنما لم يعد بإمكانهم إيقافه. يبدو أنه راح يصرخ بأمر ما، وأنا كنت سأصرخ أيضاً بالتأكيد، كيف يمكن ألا تصرخ في هذا الموقف؟

- لا تطلق النار! صرخ سانيتش.

صرخ بي، أنا أعلم فعلاً أنه لا يمكن إطلاق النار، لا يزال الوقت مبكراً، يمكن إصابة كوفالِتْس، وحده كولاكوف مخوَّل بإطلاق النار.

قفز كوفالِتْس إلى قضبان السكة الحديدية، ورمى قنبلة أمام العربة الأولى، ثم ابتعد وغاص في الثلج، أما الألمان فراحوا يطلقون عليه النار بغزارة ويأس، اعتقدت أنَّهم الآن بالتأكيد سوف يصيبونه، لكنهم لم يصيبوه. وحين شرع كوفالِتْس يتدحرج، صدر صوت انفجار، صوت أصمُّ لسبب ما؛ تطاير التراب والثلج على الجانبين، فظننت أنَّ القنبلة لم تعمل بكامل طاقتها.

لكنني كنت مخطئاً؛ اصطدمت العربة الأولى بحاجز غير مرئي، وتطاير حطام الحديد في اتجاهات مختلفة، وتضعضت العربة الثانية مثل الأكورديون، وخرجت القاطرة عن الخط مبتعدةً جانباً.

في البداية، انغرزت العجلات الأمامية في الأرض المتجمدة، وتسمَّرت لثانية واحدة، فصدمتها من الخلف العربة والدبابات. كانت الصدمة أقوى من الانفجار: أصبحت عربة الوقود أثراً بعد عين، وانساب الفحم كالنافورة، أما القاطرة فتوقفت، ولم تنقلب، وأما العربة فقد انحرفت إلى اليسار، وسقطت على جانبها، كما انقلبت عربة الدبابات الأولى، وسقط الخزان، في حين ظلَّت بقية العربات سليمة في أماكنها.

ساد صمت مطبق.

أصبح الجو أبرد، وأخذ الثلج يتساقط. رفعت رأسي، لا غيوم، أسقط الانفجار الثلج عن أشجار التنوب، وبينما أشرقت الشمس تساقط علينا الثلج كثباناً، لم أرَ مثلها من قبل.

تلاشت أصوات تكسير المعادن وكل شيء، ولم تطلق قذيفة أو رصاصة. ثمة صراخ في العربة التي سقطت، سُمِعت شتائم بالألمانية وزعيق، ثم بدأ تحطيم النوافذ، وراح الناس يخرجون. ضغط سانيتش على يدي وهزَّ رأسه:

- لا تطلق النار، لا يزال الوقت مبكراً، يجب أن ننتظر حتى يخرج الجميع.

انتظرنا. غير أن إطلاق النار قد بدأ، إنما في الحقيقة ليس من جانبنا، لقد وقف أحد الحراس على قدميه، وراح يطلق النار من بندقيته في مختلف الاتجاهات بلا هدف وبغباء، ولم يمض وقت طويل حتى سقط في الثلج أسفل الساتر الترابي.

تعالى الصياح في العربة، وخرج الفاشيون من النوافذ والحجرات الفاصلة بين العربات بأعداد كبيرة، أسرعوا يتدافعون مثل الفئران في سفينة غارقة. صفَّر غليبوف، بصوت عالٍ، بطريقة تشبه طريقة قطَّاع الطرق، ربما صفر بطريقة رازِن[26] وهو يترصَّد مع رفاقه قوافل التجار الدسمة. ثبَّتُّ الرشاش PPSh أسفل أذني، ولم أعد أرى شيئاً تقريباً، ثم ضغطت على الرشاش، وحررت الزناد.

علَّمني سانيتش أن أطلق النار برشقات قصيرة، لكنني نسيت كلَّ شيء، طبعاً نظرت بمحاذاة محيط الأهداف، فرأيت عربة الفاشيين مرسوماً عليها صليب معقوف مزين بإطار أبيض، ولم أر شيئاً

آخر، لقد كرهت هذه العربة، وكرهت أولئك الذين قفزوا منها. صرخ سانيتش من مكان ما، وضربني على ظهري، فخمَّنت قصده، وحرَّرت الزناد.

استمرَّ سانيتش في إطلاق رشقات قصيرة، بغضب وثقة، تطايرت الخراطيش فوق رأسي، وشاهدت الألمان البهائم يسقطون، وينزلقون إلى أسفل العربة، ويتدحرجون على الثلج، فلا ينهضون. طبعاً، ليس سانيتش وحده الذي كان يطلق النار، ولكني لم أر الآخرين، لم أر شيئاً من حولي. قفز الميكانيكي من القاطرة، وقد اصطبغ وجهه باللون الأحمر، وسقط على أربعته، ثم راح يزحف مباشرة وبمهارة فائقة للاختباء وراء العجلات. أدركت أنه من نصيبي، فسدَّدت على العجلة، ورحت أنتظر خروجه، لكنه لم يكن أحمقَ، أراد أن يعيش، عندئذ أطلقت النار في مكان قريب على السكَّة، فزقزق الرصاص على الحديد.

أطلقت النار محاولاً أن أصيب العجلات، حتى ترتدَّ الرصاصات وتصيب الميكانيكي، لقد صوَّبت على العجلات بعناد وغباء. فجأة ركض ألماني إلى مرمى إطلاق النار من اليمين، تابعت الرمي، فاصطدم بالرصاص، وسقط، ثم أخذ يزحف، عندئذ سدَّدت إليه بطريقة مثالية.

وأصبته مرة أخرى.

إنَّه الفاشي الأول الذي أقتله، لقد تمدَّد ولوى رأسه، تمدَّد هذا كل شيء، لم يتحرَّك، كأنَّه ميت، إنَّه فعلاً ميت.

لم يجر كلُّ شيء هكذا ببساطة، بل بطريقة مختلفة. كان علـيَّ أن أراه، وهو أيضاً، وكان عليه أن يفهم أنه سيموت حالاً... لكنَّه لم ينظر في اتجاهي.

صرخ سانيتش مرة أخرى بأمر ما، ورفع لي إبهامه.

استمرت المعركة.

مع ذلك، تمكَّن كثيرون من الخروج من العربة: ارتمى عدد منهم مذعورين على طول المنحدر، وها هم أولاء يكمنون في الثلج الممزوج بالأوساخ والأغصان المقطوعة بالرصاص، وثمة من تدحرجوا عبر الساتر الترابي، وارتمو في المنطقة الميتة، في حين اختبأت فئة ثالثة خلف قضبان السكة الحديدية، وبدأت بإطلاق النار، فضلاً عن أنَّها نصبت رشاشاً ثقيلاً تحت العربة الثانية. سرعان ما عاد الأوغاد إلى رشدهم، يريدون أن يعيشوا، والفدائيون لا يؤخذون أسرى، هذا معروف لكل فاشي.

برزت سبطانة رشاش من خلف زوج من عجلات القطار، استدار رامي الرشاش، وأطلق زخَّات من الرصاص، كان يطلق النار بغزارة في اتجاهات مختلفة. صرخ سانيتش مرة أخرى بأمر ما، ومرة أخرى لم أسمعه، يمكن فرز الأصوت المحيطة إلى عدة مكونات غريبة: ضجيج القاطرة البخارية، صراخ، أصوات سقسقة الرصاص من الرشاشات MP، وخشخشة الرصاص من

الرشاش PPSh، وصوت البنادق على اليمين واليسار، وهسهسة الخراطيش الساخنة وهي تخرق الثلج.

صوَّبوا الرشاش الثقيل في اتجاهنا، شاهدت ذلك بوضوح، أراد رامي الرشاش الثقيل أن يقتلنا، فراح يطلق النار علينا، مصوَّباً السبطانة مباشرة إلى جبهتي، شاهدت بأم عيني طلقات الرصاص، أردت قتله أنا أيضاً، لقد نسيت الميكانيكي، وأردت قتله. استبدلت مخزن الطلقات، وحاولت التسديد إلى الهدف. كان التسديد صعباً؛ لم أكن أبغي التسديد فحسب، بل إصابة الهدف، أردت أن أقتل، أقتل رامي الرشاش شخصياً، كنت سأصبح رامي رشاش رائعاً، إنني أرى كل شيء...

أخذت أطلق النار على الرشاش الثقيل، رشقات قصيرة كما ينبغي، رشقة، اثنتان، ثلاث، فيصيب الرصاص دروع الدبابات، وقضبان سكة القطار. بدأ الرشاش PPSh ينتفض بين يدي، أراد أن يكون مستقلاً، لا، لا فائدة ترتجى مني، رشقة، ورشقة أخرى، تناولت قنبلة يدوية، لكن سانيتش صادرها مني، فكَّ شريط أمانها وألقاها. رسمت القنبلة اليدوية قوساً حاداً، وسقطت على العربة، ثم تدحرجت أسفل الدبابة وانفجرت هناك.

بينما خرس المدفع الرشاش، استمر الألمان الباقون يطلقون النار، إنما من دون جدوى تماماً، لقد أصاب سانيتش حين قال: لن يصيبونا. لا يزال نحو عشرة أو عشرين شخصاً يطلقون النار، لست أدري، إن كانوا ماتوا أيضاً. على الرغم من أنهم ما زالوا يتحركون، لكنهم ماتوا حقاً، لقد رأيت ذلك بوضوح، كان يتعين علينا رشَّهم أكثر قليلاً، لمساعدتهم...

ألقى أحدهم ولاعة، فتحطَّمت على حافة الرصيف، واندلعت النيران، وانتشرت بين قضبان سكة القطار، فيما راح الموتى يزحفون بحثاً عن مكان مناسب للموت. جلس أحدهم وهو يمسك بطنه، فصوبت إليه، لكن سانيتش أمسكني من خاصرتي وأسقطني، فانطلقت الرشقة إلى السماء.

واصل الألمان إطلاق النار، وانطلقت الرصاصات فوق رؤوسنا، وسقطت إبر الصنوبر، والأقماع، وقطرات القطران. فجأة انداحت الأرض تحتي، تحت بطني مباشرة؛ في البداية، ظننت أن بطني قد تمزَّق، وسقط إلى الأسفل، ثم طرت إلى الحفرة، واندفعت الأرض فجأة في الاتجاه المعاكس، وسويت مثل كرة مطاطية ضغط عليها بإصبع، صفعتني في جميع أنحاء جسمي: في ذراعي، وساقي، في قذالي، إنما الأكثر مرارة أنها أصابت أسناني، فامتلأ فمي بشظاياها فضلاً عن الدم، أخذت أبصق أسناني المكسرة، وقد عبأ السائل الدموي الثقوب المحفورة في لثتي. لم يعد هناك أثر للعربة، حلَّت محلَّها حفرة سوداء، وحطام الحديد الملتوي المنتشر في اتجاهات مختلفة، وتسلَّل الدخان والنيران إلى الأشجار. أيقنت أن حملنا هذه المتفجرات لم يكن عبثاً البتة، كما أيقنت أنَّ غليبوف قائد حقيقي: أعطب كوفالِتْس القطار، ثم اتجه إلى المكان الذي زرعت فيه القنبلة بالضبط، فتحطَّم كل شيء وطحن.

أخذ البخار القوي يتدفق من القاطرة المحطَّمة، وأذاب الثلج، فشاهدت العشب الأصفر والأخضر، وألمانياً مصاباً يختلج بعناد عند تخوم الثلج والتربة.

سقطت عربتان إلى الأسفل، وانقلبت الدبابات رافعة جنازيرها. رحت أفكر في السلاحف، وليس في الفيَلة، بالضبط: سلاحف مغطاة بالقذائف. أما العربات الباقية فقد خرجت عن السكَّة، لكنها لـم تنقلب، فـي حين تدحرجت الصهاريج مسافة خمسين متراً، ثم اشتعلت فيها النيران، لم يعد ثمة ما ينبغي فعله هنا، فقد مات الموتى، أردت أن أقول ذلك لسانيتش، فنظرت إليه.

لم يكن موجوداً، لقد اختفى، ثم ظهر فجأة مرة أخرى، كأنَّه قد غير هيئته. يبدو أنه أصيب -أيضاً- بصدمة الانفجار، بدا مظهره غبياً. جلس وقال لي إنَّه محموم... كان رشاشه PPSh راقداً وسبطانته في الثلج.

تناول سانيتش مسدسه م. ب، وسحب زناد الأمان، وناولني الرشاش. شاهدت زجاجة فـي يده مع ولاعة، أرجحها وألقاها، ثم أتبعها ببقية الزجاجات، فاصطدمت بالدبابات والعربات، وبقضبـان سكة القطار، وانفجرت، انتشـرت النيران ببطء فـوق الحديد، وعلى الفـور طـارت الزجاجات مرة أخرى، مشعلةً النيران في الدروع، في البداية على مضض، ثم بحيوية أكبر، علا الدخان الأسود، وامتدَّ في اتجاهنا، فسعلت. استردَّ سانيتش الرشاش، وراح يطلق النار.

اقترب رجل باتجاهنا من اليمين، رجل ألماني، يرتدي سروالاً وحذاء فقط، لا ملابس أخرى، ولم يكن يحمل أي سلاح، مشى في الثلج وهو ينظر إلى قدميه، أصبح قريباً على بعد نحو خمسة عشر متراً، فاستدار سانيتش باتجاهه.

أعتقد أنني أصبت بالصمم، طقطق المسدس م. ب، ورش الطلقات، فغطت الألماني البقع الحمراء، وسقط على ظهره، وصارت ساقه ترتعش. لقد مات، لكنَّ ساقه تشبثت بالحياة، وراحت تتحرك على الأرض.

فرَّ الألمان الأحياء إلى الغابة، أمر مؤسف، أننا لم نطل الجميع اليوم، لا بأس، سنطالهـم غداً، عموماً نحن مشغولون منذ وقـت طويـل، وسنظلُّ كذلك زمناً طويلاً آخر، لعلهـم انتبهـوا إلينـا، فأرسلوا قطاراً مدرَّعاً، ووحدات من القوات الخاصـة، وقـوات الأمن، وكلاباً أطعموها جيداً. حان وقت المغادرة.

- سنغادر! صرخ سانيتش في أذني، هذا كل شيء!!!

ابتعدت عن الرشاش، ورحت أنظر إليه. سال المخاط من أنفي، على ذقني، وخدي، وجفَّ فعلاً.

- اثنتا عشرة دقيقة ونصف الدقيقة، قال سانيتش، لقد أنجزنا المهمة اليوم بسرعة.

الفصل العاشر

توقَّف غليبوف ملوِّحاً بيده، فتوقَّف الجميع، واستندوا إلى الأشجار وأخذوا يتنفسون بعمق، وينفثون البخار، إنما بصمت في الوقت نفسه، من دون شخير. لقد تملَّكنا الخوف إلى حدٍّ ما، كأننا اقترفنا فعلاً سيئاً للغاية ونحن الآن نخجل منه. خُيِّل إلـيَّ أننا سرقنا متجراً، فأمست وجوهنا غاضبة ويائسة تماماً. ذات مرة كنت في المحكمة، حيث رأيت عصابة حقيقية.

تناهى إلينا صوت إطلاق نار من جانب سكَّة القطار، حيث علا دخان النفط الأسود في السماء، واخترقته طلقات خطَّاطة حمراء مترافقة مع صرخات متأخرة للنجدة.

فجأة ضحك شخص ما، فراح البقية يصهلون معاً بصوتٍ عالٍ، بلا أدنى هم، كما في زمن ما قبل الحرب تماماً. قهقه الرجال، وهم يمسحون أنوفهم بقبضاتهم، ناثرين المخاط على الثلج بحياء، ويضربون الرشاشات المدلاة حول أعناقهم بأكُفهم، احمرَّت وجوههم، وأصبحوا غير مخيفين على الإطلاق، لولا الأسلحة لحسبتهم ببساطةٍ حطابين.

كان كوفالِتْس يضحك بشيء من الحشمة، بصوت جميل كما في الأفلام، محاولاً إخفاء زائدة لحمية دقيقة لصْق ظفر سبَّابته، وناظراً باستعلاء إلى الآخرين، لكنَّه لـم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فراح يضحك ضحكاً حقيقياً من أعماقه بإباء ولامبالاة، تبيَّـن فجأة أنَّه غرٌّ، من الواضح أنه لم يبلغ العشرين من عمره بعد، ولكنه طويل القامة.

ضحك شيتّيكوف مُصدِراً صفيراً، وراح ينفض الدمـوع عن شـاربه بنقرات من أصبعه، ويغمز بعينيه، ويضيقهما مثل الأطفال.

احتضن كولاكوف بندقيته، وألصق خده الملتحي بسبطانتها، واهتزَّ مثل محرك الديزل.

طبعاً، ضحك سانيتش، إنما بصوت أعلى وأكثر مرحاً من الجميع، صار خداه الموردان بشكل لا يوصف ينتفخان ويتغضَّنان.

وأنا ضحكت مثل الجميع.

لم يستطع غليبوف -أيضاً- كبح نفسه، فابتسم قليلاً، ثم اتضح له أنَّ الأمر سخيف، ومثير للاشمئزاز، فتوقَّف عن الابتسام.

ظلُّوا يضحكون فترة طويلة، نحو خمس دقائـق، حتى قطعت رصاصة طائشة غصناً فوق رأس كوفالِتْس، وأصاب أنفه، وعطس على الفور مطلقاً فقاعة ضخمة من أنفه، تسبب هذا في نوبة جديدة من المرح، واستمروا في الضحك أثناء المسير.

كان توقفنا الأول بعد ساعة ونصف الساعة، في هذه الأثناء دخَّنوا السجائر، وتناولوا الكحول.

فككت أزرار سترتي المبطنة الرطبة، كنت أتنفس بصعوبة، لا، كنت أتنفس بسرعة وكثافة وعمق، إنما لم أشعر بالهواء على الإطلاق، اشتهيت البرد، وأخذ رأسي يدور، وأسناني تصطكُّ من تلقاء نفسها، ولم أستطع تهدئتها.

- زررها، نصحني سانيتش، سوف تصاب بالبرد.

- لن...

- زررها، أقول لك، أمرني تقريباً، أول مرة كدت أصاب بالالتهاب الرئوي. ليس عندنا أي علاج.

زررت سترتي، وشددت قبعتي.

- ارتدِ قفازيك، أمرني سانيتش، يداك حمراوان فعلاً، ستتجمَّد أصابعك، لقد شاركت في المعركة، وهذا هو السبب.

ارتديت قفازي، فشعرت مباشرة بأنَّ يديَّ تلتهبان، كأنني غمرتهما في ماء يغلي، إنما كان شعوراً لطيفاً لسبب ما. استدعى غليبوف سانيتش جانباً، وأخذ يحدثه بأمر ما في أذنه، فراح سانيتش يومئ، وينظر إلـيَّ.

أحسست بالحرارة، واستمر قلبي يخفق كأنه يقفز، لا أتذكَّر أنه خفق سابقاً على هذا النحو قط.

شعرتُ كأنني مخمور تقريباً، لم أكن أرغب في المشي، بل في الجري. ربما، كنت لأركض، لولا وجود الآخرين، لولا وجود سانيتش.

- يفضل ألا تكون سعيداً جداً الآن، قال لي حين عاد، أنا أعلم أنك ترغب في الصراخ، أليس كذلك؟

- وبالجري أيضاً...

- أجل، أجل، نقل سانيتش الرشاش إلى كتفه الأخرى، الجري والقفز أمران مألوفان، غير أن الصبر ضروري، لقد ضحكنا بما فيه الكفاية. إذا فرحت الآن، فربما تندم فيما بعد، ستنهار، أنا أعلم. هيا نمضي، هيا.

- إلى أين؟

- سأطلعك على الأوامر في الطريق...

خانتني قواي، فحاولت أن أمسك بشجرة البتولا ولم أفلح: سقطتُ في الثلج على وجهي، وخيَّم الظلام، ثم فقدت السمع.

استيقظت من البرد الذي كان يضغط على جبهتي: فتحت عيني، فرأيت كتلة من الثلج على قصبة أنفي.

- أنت مثل كوفالِتْس، ابتسم سانيتش ابتسامة عريضـة، بعد المعركـة الأولى أغمي عليه، هذا أمر طبيعي بسبب الإفراط في المشاعر. هل أعجبك.

- ماذا؟

- قتل الألمان؟

- أعجبني. أجبته.

- حسناً... في المرات القادمة سيكون الحال أفضل، اليوم، ليس كثيراً طبعاً، إنما نُفذت المهمة. يبدو أنني قتلت ستة، وأنت -أيضاً- قتلت زوجاً، لقد شاهدتك.

- نعم...

جلست، ورحت أزيل الثلج عن أنفي.

- أهنِّئك. ينبغي أن نمضي، لا فائدة من الاستلقاء.

وقفت على قدمي.

مضت مجموعتنا نحو الشمال. كان شيتِّيكوف آخر الجميع، التفت فرآني ولوح لي بيده.

- ونحن؟ سألته.

- لدينا مهمة مختلفة. قال لي سانيتش.

- ما هي؟

- سأخبرك لاحقاً. هيا، عد إلى وعيك أولاً، وإلى الأمام، ليس أمامنا استراحة في وقت قريب.

إلى الأمام، فليكن إلى الأمام، لكنني لم أستطع العودة إلى وعيي بسرعة كبيرة: رحت أتمايل، وشعرت بدقَّات في قذالي، وقد أنهكت الحموضة فمي ولم تبرحني.

قطعنا نحو خمسة كيلومترات، ثم بدأنا الصعود. استغرقنا الصعود نحو ساعتين، حتى وصلنا إلى هضبة تشبه موجة متجمدة، تنتهي فجأة بقمة شديدة الانحدار، امتدَّت على سفحها سلسلة من المسارات.

- لقد مرَّ عناصر من جماعتنا من هنا، أشار سانيتش، نجحوا بالمرور سيراً. يبدو أنَّ عددهم ثلاثة لا أكثر، غليبوف متميز.

- ماذا يفترض بنا أن نفعل هنا؟ أنا لم أفهم.

- أمرنا غليبوف بالبقاء، خرَّ سانيتش على ركبتيه، هنا، أي هناك، أعلى القمة؛ سنراقب. لقد أعطانا خيمةً واقية من المطر.

- لماذا؟ أنا لم أفهم.

- يجب أن أن نراقب تحرُّكات الألمان، إذا أرسلوا قوات وراءنا، فسيتعين علينا الركض عبر المستنقع الأزرق، لنحذِّر جماعتنا؛ كل شيء مدروس.

- يبدو أننا حذرون...

- سواء أكنا حذرين أم لم نكن، فقد تركنا آثاراً، وقراءة الأثر على الثلج سهلة. بالطبع، هم ليسوا أغبياء كي يدخلوا مستنقعاتنا، ولكن من يدري. لقد لُغِّمت الممرات كلها الأسبوع الماضي؛ هذا ليس حادثاً عابراً، إن لم يكن الألمان أغنامنا... عموماً، كان القطار هدفاً كبيراً، آ؟

- لقد حدثتني عن ذلك. ذكَّرتهُ.

- نعم، يمكن أن نتحدَّث عن ذلك أسبوعاً كاملاً! سوف يكتبون عن العملية في الصحف! لقد طاش كوفالِتْس، ربَّما يحصل على وسام، سينام وهو يعلِّقه على صدره، وكذلك حين يدخل الحمام.

نعم، لن يحسِّن الوسام طباع كوفالِتْس الشخصية، وإنما على العكس سيضاعف الوسام تكبُّره وغطرسته.

- أصبح الآن أمام الألمان ثلاثة أيام من العمل، راح سانيتش يحاكم بسرور، سيصلح هؤلاء المشوهون الطرق، وسيتحققون من وجود مزيد من الألغام، كما سيلقون القبض على الثوار في الأزقة، ويسومونهم صنوف العذاب، أما نحن فقد صرنا بعيدين فعلاً. بالمناسبة لسنا نحن فقط الذين أقلقوهم، جيراننا -أيضاً- بذلوا جهدهم بالتأكيد، لذلك لن تكفي أولئك الزواحف كريهي الرائحة ثلاثة أيام. لقد قُطِعَ خطُّ القطارات هذا في أماكن عدة، لذلك سيكون لديهم برنامج كامل لإعادة الترميم. إنَّه أمر عظيم، آ؟! ليس عبثاً أننا انتظرنا طويلاً، وليس عبثاً أننا جلسنا في الخنادق، لم يذهب ذلك سدى... من ناحية أخرى، لا تنتظر في هذه الفترة حياة هادئة، سوف تزداد وحشية الفاشيين. حسناً، دعهم يزدادون وحشية، دعنا ننكِّل بهم.

فرشنا المعطف المطري، ونصبنا كميناً حتى الليل، ولكننا لم نشاهد أي شخص. مع الشفق صعدنا إلى أعلى التل، وأشعلتُ النار، في حين أعدَّ سانيتش الموقد على مهل، لكنه لم يوفق كثيراً؛ فقد اشتعل نصف اشتعال، وأنا استيقظت، في كل وهلة لم ينم سانيتش فيها، كان يحدِّق في الغابة، ويخلع قبعته.

اتجهنا إلى المخيم في الظلام.

في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، أصبح الجو سيئاً، وتساقط الثلج الخفيف بكثافة، ثمة نذر تنطلق مرة أخرى في السماء.

- لا تُسمع أي علائم عن الهجوم... أخذ سانيتش يحدِّق في الغيوم غارقاً في التفكير، أين الهجوم؟

- ربما بدأ، أجبته، لكننا لا نحسُّ به بسبب الثلج.

- ربما...

لم أستطع أن أتخيل مثل ذلك الهجوم: بدا لي أنَّه لا يمكن عدم الإحساس به: الهجوم قصف، وأصوات مدافع، وهدير دبابات، وململة، واضطراب ورائحة وقود...

لا شيء، أي لا شيء من هذا: صمت، صمت مطبق.

سألته:

- ربما نشب الهجوم في مكان آخر؟ لا بدَّ أنه نشب في مكان ما على أي حال.

- سوف يخبرنا غليبوف، أكَّد سانيتش، لا بدَّ أنَّهم قد أبلغوه بكل شيء. دعنا نمضِ بسرعة أكبر، طالما نستطيع المسير. هذه سنة كثيرة الثلوج، كما قيل...

لقد تساقط الثلج بوتائر مختلفة متقطعاً بين الحين والآخر، وهكذا وجدنا أنفسنا في حقول تسطع فيها الشمس مع غياب الثلج تماماً، تليها حقول يغطيها الضباب الثلجي من جديد، والسماء فوقها زرقاء

صافية، فأصبت نتيجة ذلك بصداع في رأسي، وضغط في أذني لسبب ما.

- إنني أشعر بالحزن، قال سانيتش بشكل غير متوقع، ألا تشعر بالحزن أحياناً؟

- وماذا؟

- لا أعرف متى استمعت آخر مرة إلى الراديو؟

شرعت أتذكَّر: يوجد جهاز استقبال في المعسكر، إنما لم يُسمَحْ لأحد طبعاً بالاستماع إلى أي شيء، فقد قُنِّـنت البطاريات بشكل صارم، حتى في يوم رأس السنة وفي أيام الاحتفال بثورة أكتوبر. إذا نفدت البطاريات، من أين سنحصل عليها؟

- عام ألف وتسعمائة وواحد وأربعين، قلت له، يبدو أنَّ ذلك كان في الخامس والعشرين من حزيران، لا أذكر بالضبط...

- أنا، أيضاً، عام واحد وأربعين، كانوا ينشدون «انهضي، أيتها البلاد العظمى»، ربما يتم الآن تذكُّر تلك الأغنية فعلاً...

شرع سانيتش يفرك جبهته.

- أذكر ذلك، كي أنوِّه ببعض ما حدث... في ذلك الصيف عُثر على رجل في الغابة، أمضى سنة ونصف السنة في حفرة. بالمناسبة كان قائداً، إنه غلوتسر، إنما أنت لا تكاد تذكره. لقد أصيب عام واحد وأربعين بارتجاج شديد في الدماغ، وفقد ذاكرته وتمزَّقت أذنه، لكنه لم يكتشف ما حلَّ بأذنه إلا بعد ذلك. استيقظ وسط مستنقع، كان الثلج يتساقط، لكنه لم يتذكر كيف وصل إلى المستنقع. قرر أن يبحث عن جماعته فدخل إحدى القرى، وشاهد الألمان، ذهب إلى قرية أخرى، ووجد الألمان هناك أيضاً، كان الألمان ينقلون الدبابات بالقطارات، ويتنقلون بواسطة الدراجات النارية على الطرق، الألمان موجودون في كل مكان، الألمان، الألمان، الألمان، كاد يفقد عقله. ظنَّ أنها النهاية، وأنَّ الألمان كسبوا الحرب، وأن جماعتنا موجودون في مكان ما وراء جبال الأورال. لقد أراد أن يطلق النار على نفسه، لكن المسدس لم يستجِب، أراد أن يشنق نفسه، لكن فرع الشجرة انقطع. أصيب في حيرة من أمره، ولجأ إلى وكْر لحيوان الغُرَير...

يبدو أنَّ هذا الشتاء لا نهاية له، على الرغم من أننا لا نزال في شهر كانون الثاني يخال أنَّ عاماً قد مرَّ فعلاً، وأنَّ الوقت تسمَّر، ونسي كيف يضيء. أخرج سانيتش لسانه، ولمس نهايته بإصبعه، وبصق.

- غلوتسر هذا لم يأكل أي شيء، حتى أنَّه لم يشرب، ظلَّ ينظر إلى السماء فقط. هناك أيضاً لم ير غير الألمان، جميعهم يتجهون مسرعين إلى الشرق، إلى الشرق، دفعه ذلك إلى تمني الموت أكثر، لكنَّه لم يمت. لقد تقلَّص هذا الـ غلوتسر سنتيمتراً تقريباً، ولم تعد عيناه قادرتين على الإطباق، مع

ذلك لا يموت. انتابه حزن شديد، كان الشتاء قد حلَّ فعلاً، اعتقد أنه سوف يتجمَّد في الشتاء: غمرته الثلوج، ونام مثل الدب مبتسماً ابتسامة رضا، في الربيع استيقظ فجأة، بعد أن اعتقد أنَّه ميت فعلاً، وراح يمشي عبر الغابة مترنحاً، فقابله يوسوبوف عازف البالالايكا...

لزم سانيتش الصمت، وانثنى كأنَّه يعزف على البالالايكا.

- ثمة كثير من القصص... بصق سانيتش بصاقاً بطيئاً لزجاً، مهما كتبت عنها لا أحد يصدقك. أحياناً تصادفك أحداث لا تصدقها أنت شخصياً. حقاً، لقد قضى غلوتسر فصل الشتاء بأكمله من دون طعام. ذات مرة كنا معاً، بقي شهراً من دون طعام، ولم يفقد كثيراً من وزنه. توجد مثل هذه الأجسام. يحدث ذلك في الواقع على الأرجح. في مصنعنا قصَّ منشار آلي خنصر مصورنا، ليس كله، بل من منتصفه تماماً. لقد رأينا جذع ذلك الإصبع. بعد ستة أشهر، نما مكانه تماماً إصبع صغير جديد، مثل ذيل السحلية. لذلك أنا لم أتفاجأ كثيراً من أنَّ غلوتسر هذا قضى الشتاء بأكمله في وكر، ولم يمت من الجوع؛ إنَّها الحرب.

- عصفور الدغناش المغرد، قال سانيتش بلا مبالاة، أول مرة أراه هذا العام، انظر كم هو مدهن. هل تعلم أننا في السنة الأولى من الحرب أكلنا كلَّ ما وقع تحت أيدينا: الغرير، وثعابين الزنجار، والسمَّور، باستثناء الدغناش. لقد كانت أعدادها كثيرة في السنة الأولى، تجدها على كلِّ شجرة من أشجار الغبيراء. أمر محير، حيث توجد الغبيراء توجد الدغناش، لكننا لم نستطع أكلها...

إنها عصافير الدغناش فعلاً، على غصن شجرة لا أعرف اسمها، حور رومي، على الأرجح، غصن كباقة كاملة. العصافير كبيرة، بحجم قبضتين، تتأرجح معلَّقةً، ولا تبارح مكانها، كأنها وهمية تماماً، مرسومة بخط بارز.

قلت له:

- قصة غلوتسر قصة مثيرة للاهتمام.

- الأمر الرئيس أنها حقيقة. غلوتسر هذا يقاتل الآن في صفوف فاسيلكوف، كأن شيئاً لم يكن، تجاوز حالته، وهو كالوحش في المعركة... هل لاحظت أننا لم نعبر أي سكَّة قطار؟ نحن بالتأكيد في ورطة: أينما ذهبت، تصادفك دائماً سكَّة حديد. ألا يبدو أن الأمر غريب؟

- كلا. ما الغرابة في الأمر؟

هزَّ سانيتش كتفيه.

- لست أدري، ربَّما لا شيء. بدأت أشكُّ إن كنا... نسير في الاتجاه الصحيح...

جلس سانيتش على جذع شجرة بتولا قديمة مائلة، وراح يهزُّ رأسه.

لقد لوَّحت وجهه الشمس واسمرَّ، رغم أننا في الشتاء. ربما من الغضب، يحدث أحياناً أن تغضب من شخص ما بحدَّة، وتذهب إلى النوم، وفي الصباح تستيقظ فتجد وجهك مسمراً، وعينيك منهكتين. لا، طبعاً، نحن لم ننم، اجتزنا العواصف، وأمضى سانيتش أغلب الوقت يحرسنا... كم من الوقت أمضى بلا نوم، يا ترى؟

- عموماً، أنا لا أتوه.

أخرج سانيتش سكيناً، وغرسها بقوة في جذع شجرة، ثم سحبها إلى أسفل، وأخرج قطعة من لحائها. كانت الخنافس قد نخرت الجذع، وخلَّفت فيه أخاديد عميقة وخنافس سوداء نائمة، تشبه الجُعل. ثنى سانيتش لحاء البتولا، وقطع منه شريحة كبيرة، لفَّها حول شجيرة بتولا صغيرة نامية في مكان قريب، وأضرم النار فيها.

اشتعلت النار في شجيرة البتولا، ودفَّأنا أيدينا.

- هذا لأن الشمس تبهر العيون، أخذ سانيتش يحدِّق في السماء. عموماً، لا ينبغي أن نتوه، إنني أحتفظ بكل شيء في رأسي... يجب أن يكون معسكرنا قريباً من هنا، على بعد نحو خمسة كيلومترات. لا بأس، سنصل مساء. عموماً سيقلدوننا أوسمة «الشجاعة». بالمناسبة، سيقلدونك أنت أيضاً، لقد أرديتَ ذلك الفاشي بمهارة... أي غابة هذه، إنَّها مختلفة...

الغابة هي الغابة؛ ماذا يمكن أن نقول عنها؟ لقد لاحظت منذ فترة بعيدة أنَّ ثمة أشياء لا يمكن قول أي شيء خاص عنها. الغابات، على سبيل المثال، برغم أنَّها تختلف، تبقى متشابهة: تضجُّ، وتحترق، وينمو الفطر فيها تحت أشجار البتولا. هذه غابة مختلفة تماماً، لقد لاحظ سانيتش فرقاً كبيراً، لم تعجبه هذه الغابة.

- لا قطعاً، هذه غابة طبيعية، غابتنا، أخذ سانيتش يحدق، معسكرنا قريب جداً...

اتضح أنه ليس بعيداً على الإطلاق، فقد عبرنا مرة أخرى حقولاً ثلجية مشمسة. حاول سانيتش أن يبدو واثقاً من نفسه، وقد نجح في ذلك، إنما ناولني رشاشه فقط، كثيراً ما كان يصحِّح وضعه، لقد لاحظت منذ فترة طويلة أنَّ من يكون مرتبكاً يكثر من لمس سلاحه.

ألقى سانيتش الرشاش على خاصرته الأخرى.

ليس من دواعي سروري حقاً أن نبيت ليلة أخرى هنا، اعتقدت أننا سننام اليوم نوماً طبيعياً في مخبئنا. وأننا سنتناول الحساء الساخن، فليكن حساء ليكوف، بعد ذلك سننام مرة أخرى نوماً هنيئاً، ونتحدَّث عن الأوسمة. إذا كان سانيتش صادقاً، فسيكون لي نصيب أنا أيضاً.

توقف الثلج، وسطعت السماء، وتغيرت الغابة أيضاً. فبدلاً من أشجار البتولا ظهر الصنوبر، أخرج سانيتش منظاره، وراح يفتش عن شيء ما في الغابة، الغابة فن عظيم، لا سيما في فصل الشتاء. طال بحث سانيتش بالمنظار، وأنا أنتظر.

ما له ينظر، يجب أن نتابع السير، نحن دائماً نسير إلى مكان ما.

- كأنَّه رجل... أبعد سانيتش المنظار عن عينيه، أم ماذا...

ناولني المنظار.

جذمور طويل القامة، فوق رأسه قبعة من الثلج، يداه متهدَّلتان على جانبيه، مع ذلك فهما يدان، مع ذلك فهو رجل يجلس مديراً ظهره لنا. ظهره غير مفهوم: إما أنه من جماعتنا، وإما أنه فاشي، لا يمكن تحديد هويته من بعيد. كان جالساً مقوس الظهر، تتراكم على كتفيه حبال جليدية، وتحيط به كثبان من الثلج.

- دعنا نقترب منه. قال سانيتش.

اقتربنا، ورحنا نتسلَّل من شجرة إلى شجرة، قطعنا نحو مائة متر.

- عجباً... هل هو من جماعتنا؟

- لا، فاشي، بصق سانيتش، هيئة فاشية...

تناول سانيتش الرشاش PPSh عن كتفه، وسدَّد إلى الهدف.

سألته:

- كيف عرفت أنَّه فاشي؟

- جلس وتجمَّد. حسناً، كنت قد حدثتك عن الذئاب؟ لو أنه من جماعتنا لكانت الذئاب قد التهمته كما ينبغي، أما هذه القمامة فحتى الذئاب لا تأكلها.

- ربما، لا توجد ذئاب هنا؟

أنزل سانيتش الرشاش، هزَّ كتفيه، وكزَّ على أسنانه.

- يوجد كثير منها هنا... قال لي، حسناً، دعنا نمضِ، وننظر، ربما نجد شيئاً مفيداً...

اقتربنا من الألماني، ومررنا من جانبه. هيأت المسدس تحسباً لأي طارئ. أعاد سانيتش تعليق الرشاش على كتفه؛ يبدو أنَّه متأكد من أن الفاشي ميت. لم تكن ثمة آثار حوله على الإطلاق. ينبغي أن يكون الثلج قد تساقط بعدما تجمَّد.

بدا الفاشي من الأمام كالجليد. لا أعرف ما الذي سقط عليه من السماء، إنها حبال جليدية واضحة: نصف وجهه مغطَّى بالجليد، عينه اليمنى مفتوحة كأنه يحدِّق، أسنانه خضراء، يرتدي معطفاً ألمانياً عادياً، تغطِّي رأسه قبعة، لم نلحظ أي سلاح لديه.

- كيف وصل إلى هنا؟ سألته.

- ثمة أسباب كثيرة... أخذ سانيتش يحدَّق حوله، لكل ساقط أسبابه. سيمضي مائة عام على نهاية الحرب، وسيظلُّ الناس يعثرون عليهم، ربما تخلَّف عن جماعته في الخريف.

- كيف تخلَّف؟

- في ظروف متنوعة؛ ربما فجَّرت جماعتنا سيارة، فرمى نفسه منها، وتاه... ألم ترَ كيف هرب الألمان من القطار؟

- أجل...

- هذا واحد منهم هام على وجهه، ولـمَّا عاد إلى رشده كان قد ضلَّ فعلاً... انظر إلى حقيبته.

لدى الألماني حقيبة جلدية لها حزام، منفوخة مثل حقيبة كبيرة. أكيد أنها ليست عسكرية، على الأرجح غنيمة، استولى عليها من شخص ما في فرنسا. إنَّها حقيبة ثمينة، وباهظة الثمن، جلدها سميك وزيتي، كأنها غير مجمدة.

انحنى سانيتش على الرجل الميت، وشدَّه من حزامه. كانت الحقيبة مجمدة، فشدَّها سانيتش بقوة أكبر، لكن الفاشي لم يتزحزح؛ ظلَّ متجمداً بصلابة. عندئذ سحب سانيتش سكيناً وحاول قطع الحقيبة، لكنَّه لم ينجح، فقد تراكم الجليد حول الحزام، ولم تتمكن شفرة السكين من اختراقه.

- لقد تجمَّد هذا الجرثومة... أسند سانيتش قدمه على المتجمد، وشدَّه بقوة أكبر، فانقطعت الحقيبة محدثة صوتاً قوياً، هزَّها سانيتش، ونظَّفها من الثلج، ثم فتحها.

- أوه، هذه أشياء تهمك! دسَّ يده في الحقيبة وأخرج كاميرا، آلة تصوير محمولة. يبدو أنَّها باهظة الثمن، لم أعرف بدقة صناعة أي بلد، ألمانية على الأرجح: غطاؤها أنيق، مخمليٌّ من الداخل،

ومن الخارج جلد كرزي مرقّش، صغيرة الحجم، بحجم راحة الكف تقريباً إنها آلة لائقة.

- كيف حال هذه الكاميرا؟ سألني سانيتش، جيدة؟ هل يمكنك معرفة ذلك؟

- جميع الكاميرات، في كل مكان، متشابهة: العدسة سليمة، والفيلم موجود... ومشحون، بالمناسبة، إنه فيلم جديد تقريباً، لم يستنفد منه سوى ثماني صور.

نقرت على قفل زناد الأمان، فأصدرت الكاميرا صوتاً، ثم صوبت نحو شجرة صنوبر، وضغطت على زر التقاط الصور، فخفقت بوابة الجهاز.

- إنها تعمل.

- نعم، سمعتها. إنَّه مراسل علـى الأرجح، قال سانيتش مقطِّباً وهو يركل الألمانـي بحذائه، ربما يكتب أيضاً فـي الصحف، ويلتقط الصور، مصور، حسناً، حسناً...

علَّق سانيتش الحزام حول عنقه، وأسدل الحقيبة على بطنه.

- نعم، فيها أشياء سخيفة، قال بخيبة أمل، كأنَّها رسائل...

تناول سانيتش حفنة من الرسائل الألمانية، كانت مكتوبة على ورق رمادي.

- المغلفات مفتوحة، فحصها سانيتش بإصبعه، هل فحصوها...

أخرج رسالة: ورقة دفتر، دفتر مربعات تماماً، الورقة مثل أوراقنا، لكنَّ الأحرف مختلفة عن أحرفنا.

- ليبر مونتي... قرأ سانيتش، ليبر مونتي، لقد تعلَّمت، تعلَّمت في المدرسة... هل تعلَّمت؟

- تعلَّمت. لكنني نسيت.

- أنا أردت تعلُّم الفرنسية، الفرنسيون يأكلون الضفادع، ابتسم سانيتش ابتسامة عريضة، الضفادع لذيذة، أنا نفسي أكلت كثيراً منها، ينبغي طهيها بشكل صحيح... أحببت تعلُّم الألمانية: فاس إيست داس، فاس إيست داس (ما الذي حدث، ما الذي حدث)، الألمان يهربون منا...

جعَّد سانيتش الورقة، وألقاها بعيداً، ثم أخرج ورقة أخرى، وراح يحدَّق بها، ابتسم ابتسامة عريضة، وجعَّدها.

- خطّهم جميل، عاين سانيتش الحروف في الضوء، ودقيق. هكذا كان محاسبنا يكتب بأحرف مثل القواقع. ماين فاتر (أبي)...

كانت الأوراق المجعدة تفتح على جانبيها، قرأ سانيتش الحروف، ولفظها أحياناً بلغة نسيَها.

تراجعت خطوة إلى الوراء، ثم رفعت الكاميرا بخفة، ونقرت على مفتاحها، فاستجاب المفتاح وعمل بشكل منتظم تماماً، انتقل عداد الصور إلى الرقم «9». فحصت العدسة، إنها طبيعية، ليست مغلقة. يبدو أني نجحت، نجحت! أي أخذت لقطة. كان سانيتش يقول إن من المستحيل التقاط صورة له، ذلك نوع من المؤامرة، نعم، مؤامرة... خرافة تماماً!

- ماذا تفعل هل التقطت صورة لي، أم ماذا؟ نحَّى سانيتش الرسائل جانباً.

- نعم، على ما يبدو.

- أنت التقطت صورة لي، أمال رأسه جانباً، وحدَّق في وجهي باهتمام، مع ذلك... هيا، هيا حاول مرة أخرى.

فـي المرة الثانية نجحت، وفي الثالثة أيضاً، أصيب سانيتش بالدهشـة، فخلع الحقيبة، وألقى الرشاش PPSh على كتفه، وقال:

- اتضح أنَّه يستحيل التقاط صورة لي بكاميراتنا الوطنية فقط، يمكن التقاطها بكاميرا فاشية، يا له من أمر مضحك. هيا، هيا، انقر.

رحت أنقر مرة، خمساً، اثنتي عشرة، حتى انتهى الفيلم؛ سبعاً وعشرين لقطة وتوقفت.

- هذا كل شيء، قلت له، كل شيء جاهز، الآن تم حفظك للتاريخ.

- على الرغم من ذلك إنه أمرٌ غريب. هل أنت متأكد من أنك نجحت؟ ألم يتشوَّش أي شيء داخلها؟

- لا، على ما يبدو. في الحقيقة لا يمكن تحميض أي صورة وإظهارها قبل نهاية الحرب، أو إرسالها بالطائرة.

- لا، هزَّ سانيتش رأسه، هذه صورتي الوحيدة، ينبغي حمايتها. احفظها!

ربت سانيتش بطريقة احتفالية على كتفي.

- سأحفظها. وعدته.

أغلقتُ الكاميرا وغلّفتها، ثم وضعتها في جيبي. شـيء رائـع، غالية الثمن على الأرجح. نعم، لا مثيل لها في بلادنا. يمكن فعلاً تحميض الصور وإظهارها لاحقاً.

- فاشي مثير للاهتمام، عاد سانيتش إلى الحقيبة الغنيمة، حمْل الكاميرا أمر مفهوم، إنما لماذا يحتاج شخص إلى رسائل الغرباء؟

- لا أعرف...

تناول سانيتش مزيداً من الرسائل، الكثير منها، فعلقت بين أصابعه، كأنَّها مجمدة، ثم أخذ يقطعها مثل ورق الشجر.

- يبدو أنَّه توجد هنا رسائل بلغتنا... تفاجأ سانيتش، كتبت باللغـة الروسية، إنما ليست في مثلثات. لماذا يحتاج هذا الفاشي إلى رسائلنا؟

حسناً، حسناً، حسناً... اسمع، ربما هذا جاسوس، آ؟ هل هذه تقارير تجسُّس؟ رسائلنا عادة تكون في مثلثات. دعنا نقرأها...

تناول سانيتش رسالة من الحقيبة، سوَّاها، وبدأ يقرأ. في الحقيقة، من غير المريح قراءة رسائل الآخرين، أنا لم أقرأها قط، من ناحية أخرى، ربما تكون، فعلاً، وثائق استخباراتية؟ عندئذ سنكون محظوظين للغاية: وسط الغابة صادفنا ضابط مخابرات ألمانياً...

بدأ سانيتش يسعل، كأنَّ شيئاً علق في حلقه. تناول رسالة أخرى، وبدأ يقرأ، وثالثة، ورابعة، راحت عينه ترفُّ. شاهدت أمراً مشابهاً لـمَّـا...

جعَّد الرسائل، وأمسكها بقبضته. أخذ أنفه يختلج. آخر مرة، لـمَّـا اختلج أنفه، أخذ...

- لن ينتهي أي شيء على خير.

- ماذا؟ سألته، ماذا هناك؟

عضَّ سانيتش شفته، واستدار.

- ناولني إياها.

حاولت نزع الرسالة من قبضته، لكن سانيتش أمسك حفنة الورق بإحكام، فاضطررت إلى ثني أصابعه تقريباً.

انتزعت الرسالة، وأحسست بخشونة الورقة، على الرغم من أنَّ الحبر ماع على الورقة، وتحول إلى اللون الأخضر، وفقدت الحروف شكلها، فإنه من الممكن قراءتها، فقرأت.

يكتب ساشا إلى والده، الذي ذهب إلى الجبهة، الرسالة من ورقة واحدة، في صفحتين، الخطّ يدويٌّ ومائل، تارة إلى الأعلى، وتارة إلى الأسفل، كان الخطُّ مائلاً ومتماوجاً، والأحرف نفسها مثلثة، الرسالة عادية، كما اعتقدت في البداية.

«مرحباً يا أبي!

أحوالنا جيدة. الربيع هذا العام دافئ جداً، بدأت أشجار التفاح تزهر، لكنَّها هنا ليست عادية، بل وردية اللون، وثمار التفاح على هذه الأشجار صغيرة، مثل عنب الثعلب، إنما حلوة للغاية، حتى إنهم يصنعون منها السُكَّر. هنا تنمو ثمار التوت والفراولة والكرز، سوف ينضج كل شيء في نهاية الصيف، أخبرونا بأننا سنغلي المربى لفصل الشتاء. ثمة غابة هنا، ينمو فيها الفطر. لقد شربنا مؤخراً كثيراً من عصير البتولا، إنَّه متوفر بكثرة بمقدار ما تريد. إنَّه ينشط الجسم، وتستيقظ بعده مرتاحاً.

أنا أنام في الطابق الثاني من السرير، هنا ينام جميع القادمين الجدد في البداية في الطابق الثاني. إنما هذا أفضل بالنسبة لي، لأنه بعيد عن السقف، كما هو الحال في بيتنا. كان ثمة ثقب في الجدار، لكنني ذهبت إلى الغابة وجمعت الطحالب، وهي من اللون الأخضر نفسه الذي وضعته لصيانة الحمام، وسددت الثقب بها، لذلك لم تعد الرياح تتسرب عبره. المنزل قديم ومتداعٍ، سقفه يشبه الطبل، إذا هطل المطر، تخال الحجارة تتساقط عليه.

في الصيف، سوف نتعلم جميعاً في المصنع كيفية تصنيع صناديق الخرطوش، وتركيب السياج، ونشر الحطب أيضاً، لأننا نحتاج إلى كثير من الحطب في فصل الشتاء، يوجد لدينا مدفأة معدنية واحدة، والباقي مواقد حجرية.

أمي ماتت، حضر الألمان إلى كلخوزنا، وشنقوا العم بوريا، وتركوه معلَّقاً حتى يراه الجميع. وزَّعوا الحلويات على الأطفال، مات فاسيا بعد أن تناول قطعتين، لقد تقيأ سائلاً أبيض من فمه، وفي المساء مات، لقد مات الجميع، لأن الحلوى كانت مسمومة. أنا لم آكل غير القشرة، لذلك بقيت أتقيأ ثلاثة أيام.

أما العمة آنيا فلم تأخذ الحلوى لابنها توليك، وقد أمرها الجنود بإحضاره، طلبت منه العمة أن يهرب، لكنه لم يركض بشكل صحيح: كان ينبغي أن يركض بشكل زكزاك، لكنه ركض في خط مستقيم، فأطلق الجندي النار عليه مباشرة وأصابه في ساقه. بقي توليك حياً، بيد أنه ظلَّ يصرخ، عندئذ ألقوا به في البئر.

قالت أمي إن علينا أن نهرب، هربنا إلى الغابة، فأخذوا يطلقون النار على ظهورنا. أصابوا أمي في كتفها، فتورَّم وآلمها جداً، سرنا عبر الغابة ثلاثة أيام متواصلة، أكلنا أثناءها التوت البري فقط، لمَّا وصلنا إلى جماعتنا، كان الأوان قد فات تماماً؛ أصيبت أمي بتسمم الدم، ولم يعد بالإمكان علاجها.

أنا الآن وحدي، أعيش في دار الأيتام، ليس بعيداً عن الجبهة، يريدون نقلنا إلى طشقند، لكننا حالياً هنا. لا أرى أمي في الأحلام على الإطلاق. يقول بقية الأطفال إنهم يحلمون بوالديهم كل يوم تقريباً، بل إن عدداً منهم يتحدثون إليهم في أثناء نومهم. أما أنا لسبب ما لا أحلم بأي شيء. لذلك، لـمَّـا تندفع في الهجوم، أطلق النار بشكل أكثر دقة على الفاشيين الملعونين، كي لا يبقى منهم أحد.

اقتلهم جميعاً يا أبي!

ابنك ساشا كوتوف».

قرأت الرسالة، أعدت قراءتها مرة أخرى. كان سانيتش واقفاً أمامي، ويميل بنظره عني. لم أعرف ماذا علـيَّ أن أفعل، ماذا أقول، كيف أبقى صامتاً. كان الأمر مخزياً ومخيفاً، وهذه حال سانيتش أيضاً. في عام ثمانية وثلاثين وتسعمائة وألف، مات جدي ميتة طبيعية، من الشيخوخة، مات على الأريكة. في الصباح، قبل خروجي إلى المدرسة كان لا يزال حياً، وحينما عدت، بعد انتهاء اليوم الدراسي، كان قد مات. كان مستلقياً على جنبه، وأمي تهمس له، وتضع يده على خدها بحنان بالغ، شاهدتها عبر الباب الموارب. في البداية اعتقدت أنها تحدثه في أمر ما، وأردت المضي إليهما، غير أنَّ إحدى الجارات أمسكتني، وأخبرتني أن جدي مات، وأنَّه ينبغي ألا أتدخل الآن، وأن أذهب وأتمشى. لكنني بقيت، وقد انتابني الخوف من أن أمي سترقد حالاً إلى جوار جدي وتموت أيضاً، لقد أصبت بالرعب والخجل لأنني أسترق النظر.

كان الأمر مشابهاً جداً لحالنا الآن: إنه أمر مخيف ومحرج، لا نعرف إلى أين نهرب، لا مفر.

مسح سانيتش أنفه، ومخط بصوت عالٍ وغير لائق، ودسَّ الرسائل تحت إبطه، ثم مسح أنفه مرة أخرى، ومسح يديه بالثلج وبكمه، وتناول الرسائل مرة أخرى:

«كان كوليا في الرابعة من عمره معافى تماماً، وثمة مستشفى عسكري قريب، كان الألمان يأخذونه إليه كل يومين، لنقل دمه إلى الجرحى. مع ذلك ظلّ مبتهجاً، لأن الطبيب كان يغني له أغاني عن شجرة عيد الميلاد. ذات مرة وصلت سيارة تنقل كثيراً من الجرحى، أنزلوهم في المدرسة، ودعوا كوليا مرة أخرى، غير أنَّ جدته لم تشأ السماح له بالخروج، فضرب الجندي جدته...».

لاذ سانيتش بالصمت، وقرَّب الورقة من عينيه، غير أنه لم يتمكن من قراءتها.

«... لم يعد كوليا إلى المنزل بعد ذلك. لاحقاً قال أحد الجنود إن قافلة دبابات تعرَّضت للقصف في ذلك اليوم، فازدادت الحاجة إلى كثير من الدماء، وقد سلخوا جلده بأكمله لزرعه على أجسام الجرحى الألمان...»

حكَّ سانيتش خدَّه. أخذ رأسي يؤلمني، وراح شيء ما يمزِّق معدتي، كأنَّه يزحف من ظهري في اتجاهات مختلفة، انتابني شعور كأن رافعة تقتلني.

«... طردونا إلـى الحقول، وصادروا الحطب كلّه، تجمّد رأسـي ليلاً، والتصق بحقيبتي، بعد يومين أصبت بالعمى، أصبحت أرى بعيني اليمنى وحدها، لقد ازداد وضعي سوءاً. جدتي، تعالي إلـيَّ إذا استطعت...».

كان سانيتش يقرأ بصوت غريب، وواصل التحديق جانباً. لقد انهار بطريقة أو بأخرى، فتقوَّس جسمه وتلوَّى، وراحت أصابعه ترتعش، وسال أنفه، ولكن لم يعد يمسحه. سال أنفي أنا أيضاً.

«... ثم ألقوا القبض عليه، وربطوه على عمود متصالب مع بطنه، قيدوا يديه، أخبروه أنَّ هذه لعبة، ضحك في البداية، ثم، على الأرجح، أدرك الخطر. وضعوا قنبلة يدوية في يديه، وأمروه أن يمسكها بإحكام شديد، بعد ذلك ربطوا حلقة القنبلة بحبل، واختبأوا خلف الزاوية. صرخ به شخص من جماعتنا كي يلقي القنبلة، لكنه لم يستطع، لأن يديه مقيدتان. لقد أصيب بالهلع، وبينما راح يضغط على القنبلة بقوة، سحبوا الحبل فانفجرت القنبلة بعنف، وطارت جميع النوافذ، وتعالى الطنين. اشتعلت النيران في العمود وانحنى، لم يبق من فوفكا سوى ساقيه اللتين بقيتا واقفتين».

«... طلبت امرأة منا أن نتذكَّر ما حدث حين قدم الألمان، إنما أغلبنا لم يشاؤوا، بكوا واختبأوا في العلية. لكنَّ مديرنا فيودور ستانيسلافوفيتش جمعنا في غرفة كبيرة، وقال إنه لا يوجد ما نخشاه، كل شيء هادئ في منطقتنا. لذلك، ينبغي أن نكتب كل شيء بأمانة، ومن لا يستطيع الكتابة فعليه أن يخبر المرأة بكل ما يعرف، وهي ستدوِّنه. ما نتذكَّره مهم جداً: أنا أتذكَّر كل شيء جيداً... لقد وصلوا جميعاً بالشاحنات، واحتلوا المدينة بأكملها...»

«... سأل الضابط، هل أنت طليعي؟ فأجاب الصبي بصدق: نعم، أنا طليعي. عندئذ أطلق الضابط النار على رأسه...»

«... المدافع تطلق النيران باستمرار، تشاهد ليلاً بوضوح. إنما لا تقلق، بعد غد سوف ينقلون كل من في الدار بمن فيهم الطباخ إلى طشقند. سنسافر بالقطار مدة شهر تقريباً، ثم سنمتطي الجمال...»

لاذ سانيتش بالصمت، وأخرج الرسائل. كان عدد منها مكوماً عشوائياً، في حين ربطت أعداد أخرى بدِّقة بخيط أزرق، وقد أُرفقت ببطاقة كتب عليها باللغة الألمانية. قطع سانيتش الخيط، تناول الأوراق، وحدَّق بها، سقطت من يديه، فالتقطها، وقطَّعها إلى قطع صغيرة، قطَّعها ومزَّق حوافها الحادة بأصابعه، وبدأ يقرأ، ثم ألقاها بعيداً، وأعاد الكرَّة... أسقط الرشاش، لكنه لم يلحظ ذلك، استمر في القراءة، إنما ليس بصوت عالٍ تماماً، أي بصوت مسموع، لكنني لم أعِ أي شيء، تمتمة فحسب.

خلع حقيبته عن عنقه، وجلس في مكان قريب.

ناولني الورقة، واستنشق الهواء.

عموماً، لم تنبعث أي رائحة، لا شيء حولنا يفوح بأي رائحة: فصل الشتاء، والثلج، والفاشي (لست أدري، بدا لي أن رائحة نتنة تنبعث منه). كنت متخوفاً من أنَّ سانيتش سوف يجبرني على القراءة. لقد أنهِك لسانه تماماً، وتخدَّر بين أسنانه.

لاذ سانيتش بالصمت، وأخذ يحرك فكَّه، محاولاً استعادة النطق، ثم لطم خديه برفق.

تمنيت أن أصاب بالصمم فترة قصيرة، مدة يوم حتى المساء، وأن أصبح كفيفاً قليلاً نحو نصف ساعة، لكن سمعي وبصري ظلا متجاوبين. عاد سانيتش إلى طبيعته، وراح يصفع خده بحدة، ويطقطق أسنانه، وقال:

- لقد نشروا يديه... من الكوع بالمنشار.

شددت رقبتي، محاولاً إغلاق طبلة أذني كي لا أسمع أي شيء، لكنَّ الصوت استمر في الطنين.

- ماذا سنفعل؟

- لا أعرف.

- ثمة رائحة تفوح... طوى سانيتش الورقة بعناية على شكل مثلث، وأبعدها عن حضنه، لا أعرف... هل تتذكَّر؟ أنت رأيت كل شيء، أليس كذلك؟

- أتذكَّر بشكل ضعيف.

أنا فعلاً أتذكَّر بشكل ضعيف: في العام الماضي، كنت أتذكَّر جيداً، لقد استيقظت في الليل، لكنني في الصباح لم أنم مطلقاً، وحين كنت أسمع صوتاً في السماء، أسقط وأمسك رأسي بكلتا يدي، لكني نسيت. لقد حاولت جيداً، حاولت أن أنظر حولي، وأفكر في المطبات، والإبر، ولون السماء، حاولت أن أشغل رأسي بألف تفصيل وفكرة سطحية وبسيطة، وأن لا أسمح، لا أسمح لتلك الصورة بالحضور. لقد اعتدت على عدم السماح لها، وقضيت على الأفكار المرَضية غير الضرورية بأفكار أخرى، اختيارية وبسيطة، حتى ثقيلة، إنما ليست من ذلك النوع.

لقد تعلَّمت مواجهة الصوت الغريب. عموماً، كان سهلاً علـيَّ أن أغمض عيني، لقد أغمضتهما منذ اليوم الأول. أنا لا أتذكَّر، ولا أريد...

كانت هناك عصافير الدوري أيضاً، والغبار، لقد انتشر الغبار في كل مكان، وشقَّ طريقه على نحو ما عبر جميع الحواجز، تحت الملابس، وعبر إطارات النوافذ، وإلى زجاجات المياه، علق الغبار مدة طويلة في الهواء من دون أن يسقط على الأرض. نعم، هرعت العصافير من الشارع إلى بيوتها، وطقطقت العصافير الرمادية برفق تحت حذائي. قتل المئات منها، ولم أعرف السبب إما نتيجة الصدمة، وإما بفعل الأصوات القوية، وإما نتيجة أزمة قلبية. لم أعتقد قط أنه يوجد في حياتنا هذا الكم من العصافير.

في البداية حاولت أن أقفز فوقها، وأن أبعدها بحذر بمقدمة حذائي، إنما عددها كان كبيراً، وسرعان ما صرت أسير كالعادة. لقد ضللت على الفور، إذ حدث شيء ما لمدينتي، لم أستطع فهمه البتة، ولم يعد بالإمكان التعرف إليها، في غضون بضع دقائق أصبحت غريبة، كأنَّها انتقلت إلى شاطئ مختلف تماماً. الشوارع مدمَّرة، وجدران المنازل مشقَّقة فقدت توازيها، والأرصفة امتلأت بالحفر، وتناثرت حجارتها، كما عمَّ الظلام، وتعالى الضجيج، كنت أرى الناس إنما لم أسمع ما كانوا يتحدثون عنه، لكنني سمعت كثيراً من الأشياء الأخرى، التي لم أسمعها من قبل، ولم أسمعها من بعد.

همهمات سريعة، وتنهُّدات عطشى، تنتقل من منزل إلى آخر، ومن نوافذ الأقبية، واجترار جياع، وقهقهات نافدة الصبر، أردت ألا أسمعها.

صرير شيء ضخم، يتحرك بصعوبة تحت الأرض، وفي السماء. في مكان ما كان الجليد يتكسَّر مصدِراً صوت رنين زجاجي رقيق، وتُسمَع طقطقة عظام العصافير تحت الأرجل.

مرَّت سيارة إطفاء أمامي، فركضت وراءها، وجدت نفسي فجأة في الساحة، في ساحتنا مقابل بيتنا. كان التمثال مرمياً على ظهره، وقد انكسرت قاعدته وانصهرت، سقطت ورقة مشتعلة من الأعلى، فاندلعت النيران في الأسلاك، كان بيتنا على الجانب الآخر من الساحة يحترق: شاهدت بيتنا يحترق، شاهدت الأرضيات الخشبية، والأرضيات المجعدة، اندلعت النيران في جميع الطوابق، التهمت ألسنة النيران النافذة، ها هي أختي تقف على الشرفة تلوِّح بيديها، وإلى جوارها على الدرابزين أصيص ورد إبرة الراعي. لم تتوقف سيارة إطفاء الحريق عند بيتنا، بل مضت مسرعة باتجاه المستودعات الجنوبية.

- تساقطت الطيور.

- ماذا؟

- عصافير الدوري أولاً، ثم الحمام. لقد وصل الألمان في المساء...

تناول سانيتش ألبوماً من الحقيبة، كتيباً صغيراً عاديَّاً، لكنه منتفخ، وصفحاته سميكة. أردت أن أصرخ في وجهه أنه لا داعي لمشاهدة الصور، لا حاجة، لكنَّه أخذ يتفرج فعلاً. الصفحة الأولى، الثانية، الثالثة، صرخ ورمى الألبوم، لقد سقط وتغلغل في الثلج. ظلَّت زاوية بنية بارزة منه فقط، لم يستطع سانيتش أن يكبح نفسه، فمدَّ يده، لكنني سبقته، وقفزت، ثم أنزلت يدي، وضغطت الألبوم في الثلج، فأحسست به وهو ينزل إلى الأعماق. حدَّق سانيتش في وجهي.

- دعنا نمضِ من هنا. قلت له.

- الآن...

تناول سانيتش حفنة من الثلج في يده، وضغط عليها، ثم وضع كتلة الجليد الناتجة على جبهته.

- الآن... ليس مناسباً، آ؟

- حسناً.

الوقت الآن ليس مناسباً، لكنَّه سرعان ما سيسمح لنا بالمغادرة، بعد نصف ساعة سنغادر بالتأكيد، بعد أن يتنفَّس بشكل طبيعي. كلما طالت الحرب، ازدادت سماكة الجلد، لقد أصبح بالإمكان إطفاء عود ثقاب به فعلاً، كما بات بالإمكان إشعاله به أيضاً. سوف أنسى ساشا كوتوف هذا، وفوفا، والصبي الذي شربوا دمه، وسلخوا جلده. سوف أنسى، إنما ستطرِف عيني فترة أطول قليلاً. ثمة بذرة سوداء كامنة في مكان في الرئتين، على يمين القلب، حيث الروح، ستطلق هذه البذرة جذراً آخر، سيصبح أكبر، وسيزداد قوة في اللحم، وسيكون من المستحيل نزعه.

- ثمة المزيد هنا... دسَّ سانيتش يده في الحقيبة.

أخرج أشرطة أفلام، تغلِّفها ورقة سميكة واقية من الضوء، ملفوفة كما الحلوى السوداء الكبيرة. خمسة أفلام في راحة يده. شرعت يد سانيتش ترتعش، فارتجفت الأفلام كأنها حية.

- هذه أفلام، أليس كذلك؟ سألني سانيتش.

- ربما... نعم.

ضغط سانيتش قبضته، وسحق الأفلام مستعيناً بيده الثانية، فشرعت تطقطق.

- صور... كزَّ سانيتش على أسنانه، أصبحت الآن... قذارة...

أردت أن أقول له إنها يمكن أن تكون مهمَّة: هذه ليست مجرد صور فوتوغرافية، إنها شهادات ووثائق العصر، ربما ينبغي المحافظة عليها، كي لا يقولوا لاحقاً إنَّ هذا لم يحدث...

شرع سانيتش ينزع الورق الواقي من الضوء عن الأفلام.

- سوف تنتزع. نبهته على أي حال.

- أنا أعرف ذلك جيداً جداً...

انقبض السيليلويد، وتحوَّل تحت أشعة الشمس إلى اللون الرمادي، وانعقدت الأشرطة في لفَّات لولبية طويلة، حرَّكها هواء خفيف، وبدت كأنها ثعابين ذات دوائر بنية تزحف على الثلج.

- أعطني الكاميرا. مدَّ سانيتش يده.

أخذت ألمس الكاميرا في جيبي.

- ماذا هناك؟!

- صورك فيها، قلت له، ربما تكون وحدها...

- هناك صور أخرى، على الأرجح. وكذلك وحيدة.

راح أنف سانيتش يرتجف، وألقى نظرة خاطفة على الحقيبة.

- لا أريد أن أجتمع مع هؤلاء... هل تفهمني؟ هات الكاميرا.

ناولته الكاميرا. ظننت أنه سوف يضربها على ركبته، فتتطاير كالرذاذ، لكن سانيتش لم يكسرها، أخذ يفكِّكها، ويقلِّبها في مختلف الاتجاهات.

- ثمة مفتاح على جنبها، نبهته، ينبغي أن تضغط عليه.

- ينبغي أن أضغط، حسناً...

ضغط سانيتش على النابض، فالتوى غطاء الكاميرا، وتسرب الضوء إلى الفيلم فتآكل.

- هل هذا كل شيء؟ موثوق بأمان؟

- هذا كل شيء موثوق بأمان.

لكنه لم يطمئن، حاول سحب الفيلم وإخراجه غير أنه استعصى عليه، أخذ يسحبه وهو يئن، حتى سال الدم من إصبعه.

- لقد جرحت إصبعي، قال بأسى، يا لها من خدعة قذرة...

نفض الدم عن إصبعه.

- خدعة قذرة... لماذا سيبقى كل شيء هكذا حتى بعد غد؟

لم أفهم قصده تماماً، لكن سانيتش أعاد الكاميرا إلـيَّ؛ غير أنني لم ألقها بعيداً، ولسبب ما وضعتها في جيبي.

- الفرنسيون يأكلون الضفادع، قال سانيتش، الألمان بشر، ولكن...

تناول سانيتش مسدسه، وصوَّبه إلى الفاشي، إلى الجزء الأيسر من رأسه الذي لا يغطيه الجليد. طلقة واحدة. قطعت الرصاصة جزءاً صغيراً من صدغ الميت، وطارت جانباً. أطلق سانيتش أربع طلقات أخرى، في كل مرة يقرب سبطانة المسدس من الهدف أكثر، بحيث لم يبق أي شيء من الرأس بعد الطلقة الخامسة.

مضى سانيتش عبر الثلج، فتبعته، لكنني لم أستطع إلا أن أنظر ورائي، إنَّها الرياح بعد كل شيء. شاهدت 226 ثعباناً تنساب من الأفلام عبر الحقل، فيما تدحرجت الرسائل المجعدة، وتلاقت حفنة من الصور في دوامات. لست أدري، ربما تراءى لي؛ ثمة من يراقبنا بصبر في الجانب الآخر من الغابة، إنَّها الذئاب على الأرجح.

الفصل الحادي عشر

لسبب ما أخذت أفكر في المستقبل، لست أدري لماذا سيطرت تلك الفكرة عليَّ؛ ألأني أحبُّ الحياة، أم لأنَّ الصقيع أنعشني، لا أعرف السبب بالضبط.

ستنتهي الحرب قريباً، خلال ثلاث سنوات، وربما أقل. سننتصر طبعاً، هذا واضح منذ الآن. سيتوقف كل شيء، ويتجمَّد فترة من الوقت، سيموت الناس المذهولون من الصمت، والمحتارون والمشوشون سيضنيهم الذهول والأرق، وكذلك المحرومون من همهم الرئيس. طبعاً، سيحتفلون، وسيستمر ذلك فترة طويلة. بعد ذلك، بعد إطلاق آخر سهم ناري احتفالي، سيجد كلُّ شخص نفسه وحيداً، يواجه حياته بمفرده. ربما سيكون هذا هو الأمر الأصعب.

أنا -أيضاً- سأبقى وحيداً.

سأتابع الدراسة على الأرجح، إذا قبلوني. لن أعود إلى بلدتي، بالتأكيد لن أعود، سأختار أي مدينة، سأشير إليها بإصبعي على الخريطة، وسأبدأ حياتي هناك، في حديقة إلى جوار نهر بالتأكيد. سيكون كل شيء جديداً ومختلفاً.

حاولت أن أتخيل بيتنا: جدرانه البيضاء، والأقواس، والبوابة المعدنية مع اكسسوارات الزينة البيضاء أيضاً. لن تحلِّق أي طائرة في الجو فوق سطحه؛ لقد جعلت الحرب الناس يسأمون الطائرات، والسرعة الهائلة غير الضرورية، لن يعودوا يهرعون على الإطلاق، إنهم يتوقون إلى السفر في صمت من دون ضجيج ولا اضطراب. تجلس، وتنظر عبر النافذة: الأرض تحت ناظريك...

لم أستطع أن أتخيل أكثر من ذلك، لم أتمكن من رؤية الأرض في عيني طائر، ولم أستطع توحيد أو ضمَّ الأشجار والطرق والأنهار مع الأرض، كما أنني، لسبب ما، لم أتمكن من ضم سنوات عمري المقبلة إلى حياتي.

- الطقس جميل، قال سانيتش، إنَّه رائع تماماً: الثلج يتساقط، سيحلُّ الربيع متأخراً بالتأكيد. هذا أمر حسن جداً، سيتأخر ظهور البعوض، أشعر بالقرف حين يبدأ اللدغ في نيسان، آ؟

- إنه شيء مقرف.

- سيتكاثر في أيار، لا يزال الثلج جافاً.

انحنى سانيتش، وتناول حفنة ثلج، ثم فركها بين راحتيه، ونفخها.

- جاف تماماً، سوف يغسل كل الآثار، هذا جيد. لقد سببنا اضطراباً عظيماً طبعاً. لا بأس، فليعلم هؤلاء الأوغاد أنهم طمعوا...

لاذ سانيتش بالصمت، صمتنا معاً. لقد نشبت زوبعة قوية، فتعثرنا قليلاً، وتغيرت الرطوبة إلى درجة تدعو للإحباط، كما ساءت حال سانيتش أيضاً، يبدو أن رأسه يؤلمه. على أي حال، استمرَّ يفرك صدغه طوال الوقت، ويبرِّده بالجليد وينظر حوله، كأنَّه يمشي هنا أول مرة. لذلك استغرق عبورنا المستنقع فترة طويلة، فوصلنا إلى المعسكر بعد الظهر. حقاً، ليتنا لم نصل: توقَّف سانيتش على بعد نحو مائة متر من جزيرتنا، وهزَّ شجرة بتولا بيده، فتساقط الثلج عن أغصانها، بدا سانيتش مثل مصارع الثيران، على الرغم من أنه لم يكن هناك أي شيء أحمر، يبدو أنه مصارع ثيران ثلجي.

لم أتعرف إلى أي شيء: كانت جزيرتنا تشبه عشرات الجزر الأخرى المتناثرة في المستنقعات، حتى إنها ليست جزيرة، بل تلالاً منحدرة قليلاً، وقِطعاً من اليابسة، لم تلتهمها المستنقعات بعد؛ تغيَّرت حدود الجزيرة وتداخلت مع المستنقع بشكل غير محسوس، لقد أصبحت الأشجار أرق قليلاً، هذا كل شيء، لا يمكن العثور على أي شيء تحت الثلج على الإطلاق...

كان سانيتش يسبقني.

مشينا مسافة تقارب الكيلومتر بمحاذاة الأقماع المتناثرة بفعل الريح، وبمحاذاة أدغال القصب التي أوحت لي بألحانٍ تختلف تماماً عن ألحان الصيف. تسلّقنا ضفة، وأمسكنا بأوراق البتولا الرقيقة الهشة، ثم نزلنا مباشرة إلى هوة حادة، قطعنا نحو مئتي متر على طول ضفتها اليمنى، حتى وصلنا إلى البتولا الفنلندية (لا أعرف لماذا سميت بهذا الاسم)، بعدها صعدنا إلى الأعلى، وقطعنا نحو خمسين متراً.

كان المخيم فارغاً، وقد تراكم الثلج. مرَّت لحظات، ظننت فيها أن سانيتش قد أخطأ، حسناً، من لا يحدث له ذلك، ماذا عن أشجار البتولا الفنلندية، ما أكثرها هنا في الشمال...

لكنَّ سانيتش لم يكن مخطئاً.

ثمة ثقوب، لقد اخترق شجرة البتولا الموجودة إلى جواري عدد من الرصاصات التي خلّفت ثقوباً سوداء، ذات حوافٍ ملساء، كأنَّها منحوتة. لو كنا في فصل الربيع، لسال العصير من قشرتها المجروحة. نزع سانيتش قفازيه، وأدخل إصبعه في الثقب.

- رصاصة، قال لي، باردة.

اخترقت رصاصة شجرة البتولا، لقد أطلقوا النار هنا. جماعتنا لا يطلقون النار في المعسكر، لا يطلقون النار البتة، حتى لو لم يكن لديهم ما يفعلونه.

- انظر هناك، أشار سانيتش بإصبعه، ألا ترى؟

ثمة شجرة صنوبر مكسورة. إنها شجرة صغيرة، يمكن إحاطة جذعها بإصبع واحد، قُطِعَ لحاؤها بأكمله، فبقيت معلقة بطبقة ما قبل اللحاء المشوَّهة. حدث هنا انفجارٌ كسَر الشجرة مثلما يُكْسَر قلم الرصاص، فصل قشرتها عنها، وأذاب اللحاء والشرائح اليابسة الحادة.

- قُصِفَ المعسكر بالهاون... همس سانيتش.

- أين الجميع؟ سألته، أين هم جميعاً؟

انطلق سانيتش إلى الأمام، وأخذ يجرف الثلج كالماء، مشيت وراءه. لم أتعرف إلى المعسكر، لقد بدا مكاناً غريباً تغطِّيه الثلوج؛ لم يبق أي شيء من المخابئ والممرات. شققنا طريقنا عبر الجليد إلى شجرة صنوبر مجوَّفة، مات الوشَق فيها إلى الأبد. تعثَّرت وسقطت، فغمرني الثلج المتراكم وغطَّى رأسي، شعرت بالاختناق، واستنشقت نثارَ ثلج دخل رئتي، فاندفعت إلى السطح، ونفضت الجليد. كان سانيتش يقف إلى جواري تماماً، منحنياً بلا قبعة.

- يبدو أنه لا يوجد أحد هنا، همس لي، لقد رحلوا...

ابتسم فبانت أسنانه حمراء، يبدو أنَّه عضَّ شفته، فسال الدم.

- أخرج غليبوف الجميع، لقد شعر بالأمر، أنا أكثر من متأكد...

لاذ سانيتش بالصمت، وحدَّق بالبياض الممتد أمامنا، فرك عينيه، وراح ينظر حوله. خيَّم الصمت، لم يكن خلفنا إلا حفيف الشتاء.

- يجب علينا أن نتحقَّق من المخابئ...

اندفع فجأة جانباً وسرعان ما تمايل، مثل حالتي لما سقطت. انتشل من الثلج يد شخص ما لونها أزرق، أصابعها مكسرة، وأظفارها مقلمة جيداً بشفرات أنيقة. لدينا شخص واحد فقط كان يعتني بأظفاره هكذا. كانت اليد ممزقة تقريباً حتى الكوع، ومتجمِّدة، وأصابعها ملتوية ومتلاصقة.

- إنَّها قذائف الهاون... وضع سانيتش اليد بحذر على الثلج، لقد قطعوا الأشجار بقذائف الهاون.

رحت أنظر إلى تلك اليد، لم أستطع أن أرفع نظري عنها. لقد رأيت فعلاً أذرعاً وأرجلاً، إنما لأشخاص غرباء لم أكن أعرفهم، أما هذا... فإنني أتذكَّره، أتذكَّر كيف كان يجلس تحت شجرة عيد الميلاد وبيده شفرة مشحوذة بإبرة رفيعة، يقلم بها أظفاره، وينفخ عليها، ويلمِّعها بكميه. لم يكن شارباه قد نبتا.

ربما يبقى المصابون بمثل هذه الإصابة على قيد الحياة إذا خيط الجرح بسرعة... أصابعه مسطَّحة ومسحوقة. كان كوفالِتْس ميتاً، طبعاً.

دفن سانيتش تلك اليد في الثلج، ودفعها أقرب إلى اليابسة، وكوَّم تلة فوقها.

- يبدو أنهم فرموا الجميع... لكن كيف أتوا؟ لعلَّهم مظليون، وحدات خاصة، آ؟ لعلَّه صيَّاد محترف... أو واحد من جماعتنا...

- من جماعتنا؟

- واحد من كل اثني عشر، هذا معروف منذ فترة طويلة...

همس سانيتش بشيء آخر غير مفهوم، لم أسمعه.

- لقد جاؤوا بغتة... بغتة، نعم؟

هرع سانيتش باتجاه اليمين، إلى كثيب ثلجي منخفض، راح يغوص فيه، ويحفر، ثم غرق في الثلج، واختفى، لقد سقط، لكن قبعته بقيت على السطح. يبدو أنَّه المخبأ.

- لا يوجد أحد... خرج سانيتش، هذا هو مخبأها، هل تتذكَّر؟!

- أتذكَّر. أجبته.

- لا يوجد أحد في الداخل! وكل شيء سليم! هل تفهم؟

- أنا أفهم، طبعاً.

- لو كان الألمان لألقوا فيه قنبلة يدوية! إنهم يفعلون ذلك دائماً، إنهم لا يدخلون قط، بل يلقـون القنابل اليدوية فقط! هذا يعنـي أنَّهـم ذهبوا!

هزَّ سانيتش جسمه، ونفض كتفيه وأكمامه وسرواله بحيوية.

لا يستطيع غليبوف أن يخسـرهم، تمتم سـانيتش. لا، طبعاً لم يخسر أي شخص، لقد توقَّع كل شـيء، وغـادر الجميع فـي الوقت المناسب. بقـي كوفالِتْس، أي بقي الأفضل، وغطَّى انسحاب الآخرين و...

توقف سانيتش فجأة عن الكلام.

ثم...

أدار سانيتش رأسه ببطء ومشى جانباً، فشعرت بالرعب. شاهدت: كيف طار بصره، وأصبحت عيناه غير إنسانيتين تماماً. التفتُّ أنا أيضاً، طبعاً لم أر أو أفهم شيئاً، خطر لي أن عدم الفهم أحياناً أمر جيد. إنما عدم الفهم لم يدم طويلاً؛ ثمة تلٌّ صغير على بعد نحو ثلاثة أمتار منا تحت شجرة الصنوبر الكبيرة، تلٌّ صغير يشبه الكومة، لم يكن هذا التل موجوداً لدينا، لماذا نحتاج إلى القش...

أطلق سانيتش عويلاً، واندفع باتجاه التل، لم أستطع إيقافه.

لم يكونوا جميعهم هناك، ثمانية أشخاص، يعرفهم سانيتش بالاسم، أَلِفْتينا، وشـوري لـم يكونا هنـاك، ولا كوفالِتْس، لقد ذكرهـم سانيتش بأسمائهم: ليكوف العجوز، وأرلوف، وكولاكوف، وغيرهم.

حاولنا نبش الكومة، لقد تجمَّدوا كلُّهم، كانوا راقدين، وأيديهم وأرجلهم متشابكة، عراة إلا من قمصان عسكرية خشنة من دون قبَّـة، ليس فوقه شيء. لم يقتلوا في معركة، ففي المعركة نادراً ما يصاب أي شخص في قذاله: أوقفوهم في صف واحد كتفاً بكتف، ثم أطلقوا الرصاص على رأس كل واحد منهم بحرصٍ ودراية كبيرة بما يعملون؛ كي يقتلوهم على الفور، فلا يتمكن أي واحد من النهوض أبداً.

حاولنا أن نفرّقهم ونتعرَّف إليهم: أخذ سانيتش يسحب الأيدي المجمدة، وقد أصيب بالهيجان، رحت أساعده، غير أننا أدركنا أن كل هذا عديم الفائدة؛ حتى لو كنا قادرين على سحبهم، فإننا لن نتمكن من دفنهم. كان سانيتش غاضباً، خلع ملابسه، وبقي في سترة جديدة مزينة بغزلان، أهدتها له أمه. أما أنا ففككت أزرار سترتي، الأزرار العلوية في البداية، ثم الباقية، هكذا أسهل بكثير وأكثر حرية.

بعد ساعة توقَّفنا لنستريح. أصيب حلقي بوخز شوكي حاد، ولم أعد أتنفس، صرت أشخر، وأنا أجمع عن ذقني نتف الجليد وتلتصق بأصابعي.

- هذا غير مجدٍ، قلت له، لا يمكننا أن نفصلهم. ينبغي إذابة الجليد، هذا عديم الجدوى، يا ليون، سنرقد إلى جوارهم، دعنا نخرج من هنا بسلام.

لم يجبني سانيتش، بل شرع يدفن الموتى. شاركته أنا أيضاً: جمعنا كمية من الثلج وبنينا هرماً، تلاً، منزلاً من الثلج، كثيباً تدلَّت من جميع اتجاهاته أحذية بالية، وأصابع، وأكمام. كنا قد انتهينا تقريباً عندما بدأ الثلج الكثيف العنيد يتساقط مرة أخرى.

- مرة أخرى، تناول سانيتش ندفة ثلج كبيرة، صمدت في راحته فترة طويلة ولم تذب، كلها ندفات مختلفة، هل تعلم؟

- الجميع يعلمون.

- هذا كذب، هزَّ سانيتش رأسه، لقد شاهدت أشباهاً، غالباً، الجميع يكذبون، الأوغاد.

- هيا نمض من هنا، قلت له، لا حاجة للبحث هنا...

باتت استجابة لساني ضعيفة وصعبة، أحسست بأنني تجمدت كلياً، لم تعد أصابعي تنثني، ولساني لم يعد يتحرك.

- ينبغي أن نرى المزيد، هزّ سانيتش رأسه، ربما بقي أحد ما...

- لا أحد يستطيع البقاء هنا! صرخت، لم يعد من الممكن التحدث معه بشكل آخر، صار اللفظ يتطلب الصراخ.

- أريد الذهاب إلى هناك... هـ هناك يـ يمكن...

تلعثم سانيتش، ثم نطق كلاماً ما، وصار يشرح، ويلوِّح بيديه، علقت الكلمات بين أسنانه كأنها مشدودة بالصقيع ولم تخرج. حاول ارتداء معطفه القصير، لكنَّ يديه كانتا مخدرتين، ولم تدخلا الأكمام. لسبب ما لم أستطع مساعدته، واضطررنا إلى فتق الكمَّين تحت الإبطَين، فالتصق المعطف بجسمه ضيقاً، مشدوداً كأنه من خشب.

راح وجهه يرتجف ويختلج، وهو يتمتم ويهمس مرة أخرى، فأومأت برأسي، وامتدَّ التجمُّد بحدة حتى وصل إلـى قدمـي. أصبحـت الحاجـة ضرورية وماسة لتدفُّق الدم. لا، لقد كنت سعيداً بالصقيع. لو كنا في الصيف لكان الحال أسوأ؛ البرد يخدم الأفكار، شعرت كيف أخذ فُتات الجليد واللامبالاة والبحث عن الخلاص يتجوَّل بلا هدف في داخلي: في رأسي، وفي بطني، وفي حلقي. في البرد، غالباً ما تفكر في البرد، وبعد ذلك فقط تفكر في شيء آخر.

قلت له:

- دعنا نذهب من هنا! هيا نذهب!

المشي ضروري لابدُّ أن تحرك ساقيك، تزحف، وتزحف. إذا توقفت، فسوف يحلُّ بك ما حلَّ بذلك الألماني الوغد. الحركة، ثم الحركة.

- إلى الأمام!

مضيت عشوائياً؛ ليس عشوائيا تماماً بل باتجاه الشمس، إلى الغرب، على الأرجح عندما يعود سانيتش إلى رشده سوف أخبره بأننا مشينا من المعسكر باتجاه الشمس، حينئذٍ هو الذي سيحدِّد الاتجاه السليم، ويعرف مكاننا، أما الآن فينبغي أن نمشي فقط، الساق اليمين فاليسرى. أمسكت به من كمه ورحت أسحبه، لم يقاوم، ولم يعاند بجدية. كان يرتجف، وينفخ في راحة يده، ويعضُّ أصابعه المتجمدة، وينظر حوله. اتضح أنَّ قياده صعبٌ بسبب ما حدث، لقد ربطنا بالمعسكر خيط حريري من الرنين، وأحاط بنا من كل الاتجاهات، وراح يعزف لحناً حزيناً، كنت أشاهد أحياناً كيف تتفكَّك رقائق الثلج وتتحوَّل إلى غبار متلألئ، وهي تصطدم بوتر غير مرئي.

حجزتنا الجزيرة. تعثَّرتُ مرة أخرى وسقطت، مددت يدي أمامي، فشقَّت قطعة خشب حادَّة يـدي اليسرى من معصمي تقريباً حتى كوعـي، ولم يظهر الدم، انحبس نتيجة البرد في أعماق جسدي، فشعرت بالدغدغة والخوف، لأنني أدركت أنني لم أتعثَّر مصادفة على الإطلاق. هناك، تحت قشرة الثلج التي بدأت تتصلَّب، ثمة رجلٌ ينتظرني.

لم أكن أرغب برؤية وجهه، فقفزت وركضت، وصفعت الأرض البكر بساقي، في حين تخلَّف سانيتش، لكنه تحرك قدماً، وبذل جهده.

لا أعرف كم ركضنا عبر الثلج وأشجار البتولا، لم أتوقف إلا لـمَّـا شعرت أن الخيط الذي يربطنا بالجزيرة قد انقطع، حينها صرنا نمشي بحرية، وراحت ستراتنا ورشاشانا تصطدم بأشجار التنُّوب؛ مشينا إلى مكان ما، واختلطت ممرات كانون الثاني في رأسي. توقفنا في مكان أجهله عند الغسق تماماً. بدأ سانيتش يجهز مكان المبيت بصمت. لقد تدفأ ولم يعد يتحرَّك بتلك الطريقة الخشبية، كانت البلطة تنزلق غالباً من يديه، وعجزت أصابعه عن الإمساك بها، فتناولتها وأخذت

أقطِّع الحطب، في حين راح سانيتش يرصُّ بقدميه مكاناً للنوم تحت شجرة التنُّوب. استغرق إشعال النار فترة طويلة، أنا أوقدتها، أما سانيتش فقد رقد تحت ورق الشوح والصنوبر، وغطَّ في النوم. لكن أنا لم أتمكَّن من النوم؛ في البداية اهتممت بالنار، وحرصت على تفادي الحريق، وبعد أن تدفأت، خفت من أن أتجمد، فضلاً عن أنني لم أستطع النوم من الرعب. في فترة انقشاع الظلام، فتحت عيني، فرأيت الموتى واقفين في أحضان الأشجار، وقد أخذ يتردَّد هسيس خطوات ثقيلة حولنا طوال الليل، اليوم أنا أسمعها وحدي.

استيقظ سانيتش باكراً، قبل انبلاج الفجر، وبحلول هذا الوقت كان تركيزي قد تشتت نتيجة الدخان وقلة النوم، لسبب ما راحت تتداخل فـي رأسي شرائط سوداء وبيضاء، كما راحت النجوم اللامعة على يميني تسبح فـي دوائر صفراء غير مريحة. أوقد سانيتش النـار وغلى الماء، ثم تناولنا شراباً ساخناً. ظل سانيتش صامتاً، ولم ينظر في وجهي. كان لون أصابعه التي يمسك الكأس بها قرمزياً، لقد باتت مريضة، ربما تتعافى، وربما لن تتعافى.

تحركنا مع انتشار الضوء تماماً. أخبرته أننا سرنا البارحة من المعسكر باتجاه الشمس، لم يقل شيئاً حتى إنَّه لم يهزَّ رأسه، كان يعرف إلى أين نذهب، هذا ما بدا لي على أي حال.

سار عبر الغابة بثقة ودراية، محافظاً على الاتجاه بدقة، غير آبه بالتضاريس والتعرجـات والأعاصير، كنا دائماً نجتاز الوديـان بمسـار متعامد معها، أحياناً نسقط حتى الصدر تقريباً، نجتاز الأعاصير من دون معرفة الطريق، وننعطف فـي البراري غير السالكة. في الحقول المكشوفة، سارع سانيتش الخطا، وأنا ألحقه بعد لأي، فيما هو يزداد رشاقة. على أي حال، برغم كلِّ حياتي الأخيرة، بقيت وسـأبقى ابن مدينة، يصعب علـيَّ مقارنة نفسي بسانيتش. عموماً المشي فـي الثلج علم عظيم، لاسيما من دون زحافات، ينبغي المشي على الثلج البكر منذ الطفولة، عندها فقط ستتعود، لكن من دون اكتساب هذه العادة ستُتعِب ساقيك على الفور تقريباً. طبعاً، سيكون من الرائع التزلج بالزلاجات على الثلج، إنما نادراً ما تساعد الزلاجات في غاباتنا، فحجمها كبير كما أنها ثقيلة أيضاً. هنا، أحياناً، يصعب عليك جر نفسك، فما بالك إذا استخدمت الزلاجات...

استدار سانيتش، حـدث ذلك بشكل غير متوقـع فجأة، وانعطف إلـى اليمين من دون سبب. قطعت عدداً من الخطوات الإضافية قبل الانعطاف إلى الاتجاه الجديد على نحو آلي. لـم يشرح لي سانيتش أي شيء، برغم أننـي سـألته. عموماً ظلَّ صامتاً متعمداً. رحنا نمشـي، ونمشي، والشمس الشاحبة ترتفـع بكسل فوق الغابة، ما إن انسجمت خطواتـي ببطء مع خطـوات سانيتش الثلجية القصيرة، حتى انعطـف فجأة مرة أخرى، انعطافـة غير متوقعة، إلـى اليمين مرة أخـرى، من دون تفسير، وراح يشتم فقط.

بعد ذلك، انعطف كثيراً.

ظننت أنه يتعمَّد خلـط المسارات لتمويهها، متعرجاً مثل الأرنب، ليربك من يقتفي أثرنـا. هذا الأمر لا معنى له. لم يلاحقنا أحد، ولم ينوِ أحد ملاحقتنا، فقد قام المجرمون بفعلتهم. من يهتم بمطاردة اثنين من الأغرار في هذه الطرق البرية الوعرة؟ لقد دمروا المعسكر، ولم يعد هناك أي تهديد،

الآن سيحرقون القرى، أصبح لديهم الكثير من العمل. ظننت أنَّه ضلَّ الطريق. لقد تساقطت أشياء كثيرة على رؤوسنا، هنا أي شخص سيصاب بالحيرة بعد كل هذه المتاعب... أنا، طبعاً، لست خبيراً في كل متاهات الغابات، مع ذلك، ثمة شيء غير صحيح...

ظننت أنَّه أصيب بمس من الجنون، من الممكن أن يصاب بمس من الجنون، فالحرب هي زمن الجنون. لمَّا ينتهي كل هذا، سوف يتفاجأ الناس بعدد المجانين من حولهم. اعتقدت أنَّه يتصرَّف عن قصد. وأنَّه يتخلَّص من آخر قواه، حتى... حتى لا يفكر في أي شيء.

- إنَّه ليس من جماعتنا، قال سانيتش بشكل غير متوقع، لا، ليس من جماعتنا بالتأكيد. لو أن واحداً من جماعتنا خاننا، لكانوا قضوا علينا قبل تدمير القطار، أليس كذلك؟

- ربما...

حقاً، لو أنَّه من جماعتنا، لكان قد أبلغ مسبقاً.

- أو ربما هو من جماعتنا، حكَّ سانيتش أنفه، لقد أخبرنا غليبوف بالعملية قبل ثلاثة أيام من وقوعها حتى لا يعرف بها أحد، أنا نفسي علمت بها قبل يوم واحد فقط... من؟ هل تشكُّ أنت في أي واحد؟

- لا، وبصراحة لا أريد.

- أنا، أيضاً، لا أريد، نظف سانيتش أنفه، لم يكن بيننا خونة، أليس كذلك؟

- طبعاً.

أومأ سانيتش.

- لم يكن. وعلى الرغم من ذلك لا أزال أفكر، ليس باليد حيلة... صفع خده، أفكر! أفكر! أفكر! لا أستطيع فعل أي شيء... دعنا نذهب.

- إلى أين؟

- هيا، دعنا نذهب بسرعة.

مضينا مسرعين، لم أعد أنظر حولي، رحت أنظر أسفل قدمي فقط، محاولاً وطأ أخدود سالك، أرفع رأسي فقط حين أصطدم بظهر سانيتش.

أحاط بنا حرش صنوبر بنيٌّ؛ أشجار صفراء تشوبها بعض الحمرة، تشبه أشجار التنُّوب، إنما إبرها جافة، أخذت تخشخش تحت أقدامنا، وتحفُّ على فروعها.

- إنني أشعر بالتعب نوعاً ما، اعترف سانيتش، ثمة ضوضاء في رأسي... ألم تسمع شيئاً في الليل؟

- كانت الرياح صاخبة. يبدو أن هذه الشجرة سقطت.

- بنفسها؟

- تسقط الأشجار بنفسها أحياناً.

- تسقط، مسح سانيتش جبهته.

استمر تساقط الإبر والأوراق المتبقية على الأشجار في الغابة. ربما هذا ورق الصنوبر، يبدو أنَّه يمكن بناء حمام منه.

- تعبت، قال سانيتش، تعبت جداً...

جلس فجأة على الثلج. بعد أن كان واقفاً، جلس فجأة.

- ماذا حدث لك؟ سألته.

- ينبغي أن أنام...

- هنا؟

لم يجب سانيتش، أغمض عينيه.

- هنا مستحيل... اعترضت عليه، هنا مستحيل، سنتجمَّد!

لزم سانيتش الصمت. خلعت قبعته وأعدتها على الفور، كان شعره مبللاً ولزجاً وقوياً.

- سنة جديدة... قال سانيتش.

جلست إلى جواره، وشعرت بالجليد مباشرة يزحف على ظهره، لن نجلس طويلاً.

- سوف نتجمد، قلت له، سنتجمد...

سنتجمد، فكَّرت إنما لسبب ما، لم يحزنِّـي ذلك على الإطلاق. سنتجمد، وننام، ونستيقظ لنجد أنفسنا في مكان آخر بعيد بجوار البحر صيفاً. فكرت في الصيف، بدأت أتذكَّر، لكنني لم أتذكَّر شيئاً مميزاً سوى الدفء...

ثمة كلب ينبح في مكان ما، لم أستطع أن أفهم لماذا يوجد كلب هنا، حتى أنه ذو صوت رنان، لا توجد كلاب وسط الغابة في الشتاء، لا توجد كلاب، سوف توقظ الدببة الآن. كان الكلب يحوم حولنا، تارة يقترب ويكاد يلامسنا، وتارة يبتعد عنا مسافة بعيدة فلا نسمعه. ما هذا، لا يمكن أن يوجد أي كلب هنا، ماذا يحدث لأذني؟

- هل جربت حَساء عين السمك؟ سألني سانيتش من مكان ما، لا، طبعاً، من أين... آه، إنها أمي! صدقاً، أمي! إنه يُحضَّر على النحو الآتي: تصطاد أي نوع من السمك، يفضَّل السمك النهري الصغير، أو أكبر بقليل، المهم، أن يُصطاد، ويملَّح قليلاً، ثم يوضع في برميل صغير، في اليوم التالي تنظف عيونه بعناية، ويطهى المرق من هذه العيون، من دون إضافة أي شيء! طعم لذيذ... بعضهم يقضمون ألسنتهم وراءه. أنت لا تصدق؟ أنا أقول الصدق، إنهم يقضمون ألسنتهم! حسناً، سأصطحبك في فصل الشتاء...

- لقد ذهبنا فعلاً. ذكرته.

- نعم، ذهبنا... ألا تتذكر ذلك الفنان؟

- أتذكَّره.

- قال إن الجميع... حسناً، ومن يستشهد هكذا... مثل كوفالِتْس...

أخذ سانيتش ينظر جانباً، ويجمع الإبر في حفنة صغيرة، ويسحقها، ثم ينفخها عن راحة كفِّه.

- قال إنهم لا يموتون.

- كيف ذلك؟ لم أفهم.

- لست أدري... لا، إنَّهم يستشهدون، وبعد ذلك... يصبحون مثل المحاربين السماويين.

- في الجنة، يعني؟ ابتسمت ابتسامة ساخرة.

لم يجب سانيتش.

- ربما. لكنَّ أَلِفْتينا لم تكن هناك، هذا أمر مؤكد، أنا أعلم.

- جميع النساء المسنات يؤمنَّ بالجنة.

- آلكا لم تكن هناك، أما الفنان فهو مجنون، وتماثيله كلها مجنونة ومكسورة.

- كانت لدينا جارة، أحبَّت حقاً أن تذهب إلى الجنـة، فكانت تصلـي كل يوم...

- إنَّه يصنع الدهان من التوت البري، ويمزجه مع الرماد وصفار البيض، إنما البيض لديه ليس بيض دجاج، بل بيض حمام...

- ماتت بصعقة برق، فضحك الجميع، وقالوا إنَّه النبي إيليا...

- لقد عرف اسمي، هل يمكن أن تتخيل؟ ثرثر عن بعض الأسود، وعن أبناء هرقل، روى قصصاً مختلفة... عن فُرْس في وادٍ. هل تتذكر أي شيء عن الفُرْس؟

- قيل إنها ظهرت لاحقاً، وصارت تخيف الناس بنور كهربائي، شكاها كثيرون إلى مفوَّضية الشعب للشؤون الداخلية (وزارة الداخلية)، فنصبوا لها كميناً، لقد ظنوا أن ذلك من مكائد الإمبريالية، ثم اتضح أنَّه مجرد كنَّاس يحمل مصباحاً كهربائياً...

- يبدو أنَّهم جاؤوا بجيش كامل... حشدوا نحو ثلاثمائة شخص يحملـون هـراوات برونزيـة مقوَّسـة قليـلاً، إنَّه أمـر سـخيف، أليـس كذلك؟

- الجحيم غير موجود أيضاً، هذا صحيح تماماً: إذا لم تكن ثمة جنة، فالجحيم -أيضاً- غير موجود، إنه أمر يشبه المغناطيس؛ السالب والموجب دائماً معاً. بعض الناس يرون الأرواح تظهر أحياناً في الصور، إما في سحابة عالية، وإما في شخص واقف في طرف الصورة، وإما في صورة طير أو نجم يشعُّ في وضح النهار. هذه كلها تهيؤات خرافية، كما فسروها لنا، إنَّها عيوب في الفيلم.

- لماذا دسَّ في يدي عصا الموقد، آ؟

- هذا حدث معي شخصياً، ذات مرة كنت أصوِّر طيـاري الطائرات الشراعية، لم أصور الطيارين الحقيقيين، بل المصممين الذين يجمعونها مـن ورق وشرائح، وهم يجلسون على هضبة سبيلايا. لقد رتبت لقطة، وطلبت منهم أن يمسكوا الطائرات التي صنعوها كما ينبغي، لأحصل على لوحة فنية. التقطت الصورة وقد حمضتها مساءً لإظهارها، ولـمَّـا نظرت إليها نظرة فاحصة، شاهدت شيئاً غير طبيعي. حدَّقت مـن جديد، ثمة شـخص زائد ملتصق بطرفها؛ طيارو الطائرات الشراعية صِبية أغرار، أما هو فمختلف تماماً، كان واقفاً يبتسم ابتسامة حمقاء، غير مريحة...

- يبدو لي أنني رأيت هذا الفنان في الصيف، حين كنت أعمل في معمل القطن، كان هناك فنان مثله أيضاً، يشبهه تماماً، وعيناه متقدتان.

- يصنعون الكتان من القطن.

- عملياً ليس قطناً بل بطانة قطنية محشوَّة بالنشارة. إن النظر إلى ذلك أمر ممتع: ثمة نوع من دقيق الصنوبر، يُعرَّض للبخار، فيزبد ويرغى، فيتطاير القطن، وهذا بوصفه فناناً، يجمعها بالمذراة ويرتبها في أكوام. تخيل أكواماً كاملة من القطن. كنا نتسلَّل أنا والفتيان إلى هناك ليلاً، ونقفز عليها من السطح. إنه أمر عظيم... تسقط، ثم تعيدك إلى السقف، هكذا مرات عدة، ذهاباً وإياباً، ذهاباً وإياباً. يمكن أن تطير دقيقة بأكملها.

- أما نحن فكنا نقفز على القش: أذكر كيف ذات مرة تعطَّلت بارجة كاملة محمَّلة بالقش، وتوقفت في الطين تحت جسر القطار مباشرة، لست أدري إلى أين كانت تنقله. بقينا يومين كاملين نقفز عليه، واحد منا كسرت ساقه...

- أما نحن فكنا نذهب إلى الكهوف. توجد كهوف إلى جوار البحيرات، فيها مساحات شاسعة ربما تكفـي لإخفاء جيش. ثمة تجاويف كاملة تحت الأرض تتغلغل فـي أعماقها، حتى إنك تحسُّ فيها بالدفء. دخلناها باستخدام حبل، حتى لا نضيع، وعلى الرغم من ذلك ضاع فيها صبي: انقطع الحبل نتيجة الاحتكاك، فمضى فـي الاتجاه الآخر. ظلُّوا يبحثون عنه أربعة أيام، وأرسلوا كلباً بوليسياً، إلا أنه أصيب بالخوف في الكهوف...

- أما نحن فقد كانت لدينا قلعة قديمة ليست بعيدة عن المدينة، وقد بنيت قبل الغزو المغولي، التتري، فيها أقبية أيضاً، تحتوي على ممرات واسعة يمكن ركوب الخيل فيها تحت الأرض، لكنَّها كلها سرية، لا أحد يعرف كيف الوصول إليها...

- بعد شهر ظهر الصبي. لقد ضاع تماماً تحت الأرض، أنهكه العطش ثلاثة أيام، وانتهى مخزونه من أعواد الثقاب وكلُّ ما كان يحمله، حين وصل إلى نهر حقيقي تحت الأرض، تنمو فيه عشبة مقدسة صالحة للأكل، مضى على طول هذا النهر، إلى الأسفل مع التيار، وشاهد أشياء كثيرة...

- في تلك السراديب ثمة كثير من الهياكل العظمية معلَّقة على الجدران، لا تميزها عن السلاسل!

- حتَّت المياه الصخور، وانتشرت بينها نقود ذهبية، إنما هذا الذهب مسحور تماماً، لا يمكن أخذه، فهو يتسرَّب من اليد!

- ثمة كنز في القلعة، بالمناسبة، كنز مسحور، أخفاه رازِن، ليس هو نفسه طبعاً، إنما معاونوه، لقد فروا بعد هزيمتهم إلى هنا، إلى الشمال... إلى الشمال، إلى الشمال، إلى القلاع المنسية، والطرق

المليئة بالأخاديد، والأنهر الموجودة تحت الأرض، والنساء المنحوتات من الصخر اللاتي ينمن على المنعطفات. كنت أسير إلى جوار الماء حاملاً في يدي زنبقة ماء ذهبية شفافة، وقد شعرت بالدفء والبرودة في الوقت نفسه، وراحت السلاحف كبيرة العيون ترتفع من الدوامات المتلألئة...

- إيه!

إنَّه سانيتش؛ لقد استيقظ واندفع من الثلج، من سباتٍ حلو ناعم كالحليب وأيقظني، لكنني لم أكن راغباً في ذلك؛ فقد غمرتني السعادة، وأرادت السلاحف أن تكشف لي أسرار الأعماق المقدَّسة، لكن سانيتش لسبب ما أراد اليوم أن يعيش.

صفعني على خدي.

- إيه! استيقظ!

- يصنعون الكتّان من القطن...

- عن أي قطن تتحدَّث، اصحَ.

- كنت تعمل في معمل القطن...

- أي معمل بحقِّ الجحيم، لم يكن لدينا أي معمل. انهض، من السابق لأوانه أن نلمِّح إلى خرافات.

أمسك بي من ياقتي، وأوقفني على قدمي.

كان ذلك سانيتش آخر؛ كانت عيناه مبيضَّتين على نحو ما، كاللبن المخفَّف بالماء، يشبه سمكة معمَّرة حزينة، تنظر من داخل رجل، ليس فيه ما يدلُّ على الحياة إلا بخار يتصاعد من فمه، تستقرُّ على سترته القطنية قطرات ندى جمَّدها الصقيع.

- لقد تأخرنا، قال سانيتش، الأفضل أن نسرع، هل تسمعني؟

ألقى حقيبة الظهر والخيمة على كتفيه، ومضى.

- الرشاش. ذكَّرته.

تناول سانيتش الرشاش.

- الأفضل أن نسرع.

استمرَّ ذلك فترة طويلـة، طوال اليوم علـى الأرجح، كان أطول يـوم في حياتي: أحياناً نسير، وأحياناً نزحفُ، وأحياناً أخرى نتزلج، ونسقط، ونلهث، ثم نزحف مرة أخرى. فجأة توقف سانيتش، وغيَّرنا المسار، لكنني لم أسأل إلى أين.

لأنني لم أعد أهتم.

أما هو فاستمرَّ يقول ينبغي الإسراع.

في البداية استعجلنا، أما قبيل المساء، فلم نعد مستعجلين، بل صرنا نتحرك بتؤدة، وتوقفنا كثيراً. تبلَّلت ملابسنا، ولم يعد سروالانا ينثنيان عند الركبتين من الجليد، وتجمَّدت سترتانا المبطنتان. ينبغي أن نجهِّز مكاناً، لكن في الوقت الحاضر، لا توجد لدينا أي طاقة لتجفيف أجسادنا، أو غلي الماء، أو تحضير العشاء، فكرت ماذا لو أوقدُ شجرة تنُّوب؟ أختار أفضل شجرة تفوح برائحة زكية، وأنظِّفها من الثلج، ثم أنشرها، سوف تشتعل على الأرجح. وأقف بجوارها...

- دخان! قال سانيتش، دخان... هل تشعر به... بالدخان؟

لم أشعر بأي شيء.

- هنا، إلى جوارنا، قال لي، دخان حي، إنني أسمع شيئاً! أسمع!

استدار إلى اليمين، وراح يركض من شجرة إلى شجرة وهو يتمايل ويتشبث بغصون الأشجار، غامراً نفسه بالثلج. فجأة شعرت -أيضاً- بالدخان وهو يمُّر، وينبعث من الحور أو من الصنوبر، لا أعرف. رحت أركض أيضاً باتجاه الدخان محاولاً اللحاق به، فمن المستحيل تماماً أن أبقى هنا وحيداً.

وادي.

ثمة موقد نيران كبير فـي الوادي، يحيط به نفر مـن الناس يتدفؤون. اثنا عشر قمراً، فكرت بيني وبين نفسي، إنهم متشابهون جداً.

- غليبوف... همست، على قيد الحياة...

لم يكن غليبوف مرئياً تقريباً، بدا رأسه الملفوف بالضمادات كأنه عشُّ دبابير. ثمة أشخاص آخرون لم أعرفهم، إنما يبدو أنَّهم فدائيون ملتحون وغاضبون، بالإضافة إلى شخص جريح على نقالة ملفوف بمعطف كبير.

- غليبوف! نادى سانيتش.

رفع الرجل العجوز الملتحي رشاشه وصوَّبه إلينا.

- هل تشعلون النار؟ أخذت أهبط إلى الأسفل، أصواتكم مسموعة في الغابة كلها!

لم يجب غليبوف، حدَّق بنا بعينين عكرتين غبيتين، وخدُّه يرتعش. عنده إصابة داخلية بالتأكيد.

تبعني سانيتش. اقترب الرجل الملتحي حامل الرشاش منا، فدفعه سانيتش جانباً، ولكن تبيَّن أنه دفع نفسه، فاستدار جانباً، وركض إلى النقالة، ثم سحب المعطف الكبير.

ألِفْتينا. لم تتعرف إلى سانيتش مهما ابتسم لها، كأنَّها تنظر عبر الزجاج.

أما شوري فلم يكن بينهم.

الفصل الثاني عشر

أخذ غليبوف يسعل، كانت رصاصة قد اخترقت صدره، واستقرَّت في رئته، وصار الدم يتدفَّق من فمه، فيبصقه كل عشر خطوات لسبب ما في علبة من الصفيح. خشيت أن أسأل سانيتش لماذا. هكذا يجب، إذاً. شيء غير مفهوم على أي حال.

مضينا صباحاً قاصدين مكاناً ما. لم أنظر حولي، بل رحت أراقب ظهر الشخص الذي يسير أمامي: كان يسير أمامي رجل يرتدي معطفاً بالياً على زَمّة ظهره أربعة أزرار. لم أكن أعرفه، تركَّز اهتمامي على هذه الأزرار، ورحت أفكر بها وحدها. مشينا بصمت. كلنا كنا نسعل. صار غليبوف والآخرون يسعلون، وأنا -أيضاً- أردت أن أسعل، غير أن الأمر كان مؤلماً للغاية، فقد تورَّم حلقي وتحمَّلت. لا شيء أسوأ من تحمُّل السعال.

كان التنفس صعباً أيضاً: انخفضت درجة الحرارة، وصار الهواء يتغلغل في رئتي أشواكاً جليدية حادة، كأنني ابتلعت شوكاً. لم تنقذني سترتي المبطنة، ازدادت درجة الرطوبة، ربما بسبب المستنقعات. كنا نتوقف كل ساعة تقريباً، ونوقد النيران. حاول شيبِّيكوف إشعال نار، إنما لم يكن في حوزتنا منشار، فلم نتمكن من قطع الأشجار. كانت النار ضعيفة.

ساعدَنا سانيتش في حَمل آلكا، اشترك الجميع في حمل نقَّالتها كلٌّ بدوره، كذلك فعلت أنا، أما سانيتش فقد كان يحملها طول الوقت. كانت يد آلكا تخرج باستمرار من تحت المعطف الكبير، فيأخذها ويعيدها إلى تحت الغطاء.

آلكا خفيفة للغاية، بإمكاني أن أحملها وحدي بلا ريب، لو مشينا على اليابسة وعلى طريق جيد، لكن في حالتنا كنا نحملها أربعة، أربعة، كي نمشي بسرعة أكبر. في غضون نحو نصف ساعة شعرت بثقل في كتفي، فغيرت مكاني، وأخذت الجانب الآخر.

أحياناً، كانت تصحو. لكنها لم تكن تعي أي شيء على الإطلاق، تغمز بعينها اليمنى الملتصقة بخدها برفق، وتهزُّ رأسها، وتلفظ شيئاً ما، لم أستطع سماعه، فشددت قبعتي إلى الأسفل، وحين لا أكون ضمن من يحملون النقالة أسعى كي أبقى في المؤخرة.

راح الرجال يتحدثون عن الشمال. ينبغي الانسحاب إلى مكان آخر لا يوجد فيه فاشيون، ثمة غابات برية كثيفة، يبدو أنه توجد فيها قواعد أُعِدَّت قبل الحرب، لا بدَّ أن غليبوف يعرفها. يجب الوصول إلى هناك والانتظار حتى قدوم الربيع، لا توجد معارك الآن على أي حال، لن تقاتل وبطنك خاوٍ، ولم يتبقَّ سلاح، فضلاً عن أنَّ الألمان بدأوا بشنِّ عملية عسكرية. البارحة رأينا في المحطة تفريغ

القطارات المحملة بالعتاد، والمشاة، والمتزلجين، والمركبات المخصصة للمناطق الوعرة، في حين أخذت الطائرات تهزُّ السماءَ منذ الصباح. لم تعد المنطقة للفدائيين.

في المساء، دخلنا بقعة مهجورة، يبدو أنَّ شيتّيكوف يعرفها. في عام أربعين، كان يعمل ميكانيكياً في مؤسسة لصناعة الأخشاب، كان موظفوها يقطعون الأخشاب، أو ينقّبون عن الخث، لست متأكداً. قال شيتّيكوف إنه يوجد تبن هنا، إذ سُمح للمزارعين بقص العشب في الزوايا، فقصوه، إنما لم يكن لديهم وقت لنقله، فتعفن في السنة الأولى، ولم يعد أحد يحتاج إليه، لذا يمكن قضاء الليل فوقه، يجب علينا أن نذهب إلى هناك.

امتدَّت تلك البقعة على طول ممر غير سالك، لذلك شققنا طريقنا على حافة حرش، وبحثنا فترة طويلة عن الأكداس الغارقة تحت الثلج بين أشجار البتولا الرقيقة التي لم تُر تقريباً. كان ذلك جيداً، كما أن وجود الأكداس على حافة الحرش كان جيداً أيضاً. انتظرنا حتى حلول الشفق، ثم ذهبنا مباشرة عابرين قشرة الثلج المتجمدة.

كان القشُّ متعفناً، وفقد كثافته فعلاً، ولا نعرف كيف حافظ على تراصِّه في أكوام. أعدنا المعطف الواقي من المطر إلى نقالة آلكا، ووضعناها على أكبر كومٍ من القشِّ، وتوزعنا نحن على بقية الأكوام. كان نصيبنا مكاناً في الطرف السفلي مَفرشاً من القشِّ وليس كوماً. استمرَّ القشُّ في التعفن، فانطلق الدفء منه، ليس دفئاً حقيقياً، إنما عفن رطب وخانق، برغم ذلك شعرنا بالدفء.

دفنت نفسي في القشِّ ذي الرائحة الكريهة المتعفِّنة بين فروع الصفصاف الناعمة، واستغرقت في النوم. حلمت بنهر وقارب بخاري يمضي عكس التيار، وبمياه غزيرة، وطيور نورس، وأطفال يرتدون سترات بيضاء، يبحرون على متن ذلك القارب البخاري. ثمة متجر على الشاطئ لبيع الخبز، يقدمونه مجاناً بمناسبة أحد الأعياد. الجميع في حالة مزاجية جيدة، وحالتي أيضاً، وعلى الرغم من أنني لم أعرف لماذا الجميع من حولي سعداء، فقد كنت أريد أن أستمتع بالسعادة أسوة بالجميع.

الطيور في السماء متعددة الألوان، تشبه طائرات المثلثات الورقية، أو الرسائل، تحوم فوق نهر الفولغا. كان ذلك نهر الفولغا، مع أنني لم أشاهده قط، لكنه هو بالتأكيد. توجد سفن أخرى تمضي في سبيلها، وعلى الضفة المقابلة ثمة قطيع من الماعز أو الأبقار، نقاط بيضاء صغيرة يصعب تمييزها، رغبت في أن تكون ماعزاً. راودني الحلم مرة أخرى، وقد أدركت مباشرة هذه المرة أنه ليس واقعياً، صارت الأحلام تعذِّبني، وهذا لم يحدث لي سابقاً. رست السفينة البخارية.

- استيقظ، استيقظ، استيقظ، استيقظ...

أيقظني مرة أخرى، ذلك الكلب الغاضب.

جلست. لم تطاوعني أصابعي وركبتاي في الانحناء. لم يكن حال البقية أفضل من حالي، إذ كانوا جائعين بائسين. كانت حال آليا هي الأسوأ، حاول سانيتش أن يسقيها الشاي. لا، من الأفضل

بالنسبة إلـيَّ ألا أستيقظ، وأن أبقى هناك على النهر. كانت السفينة تقترب من الرصيف، إنَّهم ينتظرونني على متنها، أنا متأكد من ذلك.

- استيقظ. قال سانيتش خامس مرة، وهو يدقُّ على كتفي: توك، توك.

بدأت أطراف أصابعه تسودُّ تماماً. ناولني وعاء فيه مشروب ساخن وقطعة من السُكَّر.

- هذا يوم صعب، أخذ سانيتش يعضُّ أصابعه، لدينا الكثير من الأشياء التي ينبغي القيام بها.

لقد كان محقاً تماماً.

في الثالثة دخلنا القرية.

تناول شيتِّيكوف المنظار وأمضى فترة طويلة وهو ينظر من خلاله، ويعضُّ شاربه الأيمن.

- هذه قرية لوكا بالتأكيد، قال شيتِّيكوف، المختار هنا كما يبدو من مؤيدي النظام السابق...

بصق غليبوف في العلبة.

- كان ينبغي القيام بذلك منذ فترة طويلة... قال شيتِّيكوف وهو يفرقع قبضته، ويحدِّق بنا.

- لا، قال غليبوف، هو ليس وحيداً هناك، يساعده أربعة من رجال الشرطة. أما نحن فلم يعد لدينا حتى قنابل يدوية. ينبغي أن نغادر. لا تزال لدينا فرصة للاختراق، والالتفاف من الجنوب...

سعل شيتِّيكوف.

- ثمة أهوار في الجنوب، قال، والخث يتراكم هناك طوال فصل الشتاء. لن نستطيع العبور. ينبغي أن نمرَّ من الشرق، عبر الغابة، فقط...

بصق شيتِّيكوف.

- سنحتاج إلى مبيت ليلة، قال، لن تحتمل أَلِفْتينا ليلة أخرى في الغابة، أقولها بصراحة.

- هل أنت متأكد من وجود رجال شرطة في القرية؟ سأله غليبوف.

- على الأرجح، كانوا كثراً سابقاً... أنا أكثر من متأكد. إذا طلبنا المساعدة، سوف يسلموننا.

بصق غليبوف في العلبة. كان الجميع ينظرون إليه، وهو لا يعرف ماذا يقول.

إن مضينا عبر الغابة، فإنَّ آليا لن تعيش حتى الصباح.

أما عبور القرية...

- يجب أن نقتلهم، قال سانيتش بصوت غريب تماماً، أن نقتلهم جميعاً، المختار والباقين. الآن الساعة الثالثة، إذا وُفقنا حتى الساعة السادسة، عندئذ يمكننا تناول الطعام وقضاء الليل، لن يأتي الألمان إلى هنا ليلاً، ومن غير المرجَّح أن يأتوا غداً في الصباح الباكر، سنغادر القرية في نحو الساعة الخامسة. سأذهبُ أولاً أنا وديما، ونصدر أصوات دبيب، ونستدرجهم إلى المستنقعات، حيث ستعترضونهم أنتم، لا توجد طريقة أخرى.

أومأ شيبِّيكوف موافقاً، إنما بتردد.

- لا توجد طريقة أخرى. كرَّر سانيتش.

تبادل شيبِّيكوف وغليبوف نظرة فيما بينهما.

- يفضَّل أن نقوم بذلك... أنزل سانيتش الرشاش عن كتفه، نحن ذاهبان، أنا وديما، سنأخذ مسدسينا فقط. أما أنتم، حين تسمعون صوت إطلاق النار، فاركضوا واقتلوا كلَّ من يحمل سلاحاً.

بصق غليبوف في العلبة، وسعل. خيِّل إلـيَّ أنني سمعت صليل الرصاصة في صدره.

- لا، قال غليبوف، سنتصرف بطريقة مختلفة وبهدوء تماماً، ربَّما يوجد هناك ألمان...

- لا يوجد ألمان هناك، أكد سانيتش، ثمة آثار زلاجات فقط على الطريق، لا يوجد أحد منهم هناك؛ الفاشيون لا يتنقلون بالزلاجات.

هزَّ شيبِّيكوف رأسه في ارتياب.

- كما تشاؤون، أنا ذاهب على أي حال.

- سوف تذهب، قال غليبوف بهدوء، إنما من دون سلاح.

- وإذا كان هناك...

- من دون سلاح! صرخ غليبوف بحدَّة، جعلت الدم يخرج من أنفه، سلِّم سلاحك، يا غوليكوف!

فتح سانيتش سترته، وأخرج المسدس ت. ت. وسلَّمه إلى غليبوف.

- لديه مسدس آخر، قال شيتِّيكوف مباشرة، إنَّه يحمل أكثر من مسدس دائماً.

أخرج سانيتش مسدس والتر بصمت، ومسدساً آخر من كمه.

التفت شيتِّيكوف باتجاهي، ومدَّ يديه.

لم يكن لدي سوى مسدس ت. ت.

- تخترقان القرية، أمرنا غليبوف، وتستطلعان إذا كان بإمكاننا التوقف. إذا كان هناك ألمان أو رجال شرطة، عودا أدراجكما، واضح؟

لزم سانيتش الصمت.

- واضح؟ نفث غليبوف دماً.

- واضح. قال سانيتش بهدوء، من شفته فقط.

- هل سلَّمتما كل أسلحتكما؟

- كلَّها. أجبته.

- كلَّ شيء، أكد سانيتش، هيَّـا يا ديما، دعنا نذهب، دعنا نذهب.

هبطنا السفح عبر غابة التنُّوب، كانت أوراقه الإبرية ناعمة وسميكة، تلامس وجهينا بلطف ونعومة مثل معطف أمي الفرو. لست أدري لماذا تذكرت فجأة، كيف هرعت إلى الخزانة لـمَّـا ذهبتْ أمي إلى العمل، حيث وجدت معطفاً قديماً وجافاً، ومعطفاً آخر من الفرو مرشوشاً بالنفتالين والتبغ، مع ضفيرة من قشور البرتقال والليمون في الطرف. لست أدري من أي فرو صنع ذلك المعطف، ففراؤه مزرقٌّ وسميك وبارد، أعتقد أنه من فرو القندس. لقد أغمضت عيني ودفنت وجهي فيه، وغفوت طويلاً. اختفى العالم وراء باب الخزانة، وراح يتشكل من حولي زمن آخر، خشيت أن أخرج منه...

تجاوزنا غابة التنُّوب، وصعدنا منحدراً، ثم انعطفنا إلى طريق غير سالك تماماً مليء بالأوساخ، عليه آثار زلاجات قذرة.

- أمامنا كيلومتران، أومأ سانيتش، لم تعد بعيدة، لم يبق إلا القليل.

لم يبق إلا القليل. مضى سانيتش مسرعاً، وقد غاص رأسه بين كتفيه، وشدَّ قبضتيه بإحكام، وراح يرتجف كأنه كهربائي. لم ألحظ ارتعاشه فوراً، لاحظته فقط حين تكلَّم.

راح يبصق طوال الوقت، على الجانب الأيسر، وينظِّف أنفه.

- كنا ندرس أنا وكوفالِتْس في المدرسة معاً، كان أكبر مني بعدة صفوف، لكنني أتذكَّره. كان الجميع يضحكون منه، زملاؤه في الصف، عموماً الجميع، وكان لدينا إلى جوار المدرسة بركة، ذات مرة اشتروا لكوفالِتْس حذاء، اشتراه له والده من مدينة بسكوف، كان مقاسه صغيراً، وقد باتت قدماه تؤلمانه طوال الوقت، لذا صار ينتعله مرة واحدة في الأسبوع، يوم الجمعة، إنما ينتعله في أثناء الاستراحة بين الحصص فقط، أما في أوقات الدروس فكان يخلعه، ذات مرة سرقوه في حصة الفيزياء في غفلة منه.

ابتسم سانيتش ابتسامة عريضة.

- وضعوا ذلك الحذاء في إناء، وألقوه في البركة. راح كوفالِتْس يركض في الشارع باحثاً عن حذائه حافي القدمين، وقد وجده طافياً، وحين حاول استعادته، حضر كلُّ من في المدرسة ليتفرجوا. حاول كوفالِتْس أولاً استعادته بعصا، لكن البركة كانت واسعة جداً، فلم ينجح، عندئذ صرخ وقفز في البركة، وأخذ الأحمق يسبح لاستعادة الحذاء...

فرك سانيتش كفَّيه، ونفخ فيهما، ليدفيء أصابعه.

- خرج ملطخاً بالوحل، فضحك الجميع، حتى الأساتذة. حينها غضب غضباً شديداً، وانقطع عن الذهاب إلى المدرسة مدة يومين، وقد ألصق به لقب العائم. كان مضحكاً وأحمق الحمقى. ولمَّا بدأوا يعرضون الأفلام السينمائية في منطقتنا، صار يحضرها، فشاهد كيف تعاش الحياة، وقرر أن يتزوج. لقد أحبَّ أَلِفْتينا كثيراً، وتقدَّم لخطبتها، أنا أعلم أنَّه تقدم لخطبتها خمس مرات، إنَّه عنيد، لكن أَلِفْتينا رفضته قائلة إنها لن تتزوج إلا من بطل.

كزَّ سانيتش على أسنانه.

- بطل الاتحاد السوفيتي... فاغتاظ. إنَّه شجاع حقاً، إنما لم يكن محظوظاً، لقد ظلَّ يحاول طوال الوقت، لكنَّه لم ينجح، هل تعلم؟ نقرر الذهاب لنسف جسر، فتلتوي ساقه، أو تُلغى العملية، وهكذا، مرة أخرى...

توقف سانيتش.

اعتقدت أنَّها المشنقة مرة أخرى، حدَّقت، فلم أرَ أي مشنقة، إنَّما رباطات جزمة سانيتش مفكوكة، وهو يحدق بها، كأنه لم يستطع فهم ما حدث. هذا... لست أدري، لقد أخافني ذلك. جلست وشددت له أربطة حذائه، شددتها قدْر استطاعتي.

- لكنه، بالمقابل، دائماً ما كان يظهر رائعاً فـي الصور، قال سانيتش، شخص جميل يحبُّ الكولونيا، لكنَّ غليبوف منعه من استخدامها، كي لا يشم الألمان رائحتها...

ابتسم سانيتش ابتسامة ساخرة.

- هكذا إذاً، لا تخف، يا ديم، كل شـيء سيكون علـى ما يرام، قال سانيتش، لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك... لكنني آسف على كوفالِتْس، لم ير من الحياة شيئاً. لقد بدأ حياته للتو... وهو بطل أيضاً. لن يتذكروه، هذا هو الأمر السيء.

- سوف يتذكرونه. اعترضت على كلامه.

- لا، يتذكرون الأبطال فترة قصيرة فقط، أنا أعلم. مع انتهاء الحرب، سينتهي كل شيء، وستظهر مشاغل أخرى: في البداية إعادة البناء، ثم هموم الحياة، ثم أمور أخرى، وما أكثرها؟ سينسونه. عموماً، لدينا كثير من الأبطال، آلاف، هل تتذكرهم؟ الآن امتدَّت المعارك إلى جميع أنحاء البلاد، في كل يوم معركة، وكل يوم يجترح شخص ما مأثرة؛ لدينا -أيضاً- طيارون وبحَّارة، إنهم كثر هكذا ببساطة... لن تحفظ الجميع، حتى إنك لا تعرفهم جميعاً.

- لكنَّ الجميع يتذكرون تشابايف.

استغرق سانيتش في التفكير.

صعدنا إلى لوكا، لا توجد أي علامة أو لوحة تشير إلى أنَّ هذه هي لوكا. قد لا تكون لوكا، إلا قرية أخرى لا تختلف عن غيرها من القرى. يمتدُّ على الجانب الأيمن من الطريق خندقٌ، فيه براميل خشبية مكسورة مختلفة الأحجام، حوافُّها صدئة. لماذا يحتاجون إلى كلِّ هذه البراميل؟ ماذا يخلِّلون فيها؟ ربما يخلِّلون الملفوف، أو الخيار، وجميع أنواع الفطر.

- لقد أخرجوا فيلماً عن تشابايف، قال سانيتش، لو لم يُخرجوا هذا الفيلم لما عرفه أحد. هل تعلم أي شيء عنه قبل مشاهدة الفيلم؟

- لا أتذكَّر، على ما يبدو.

- هذا يحدث. تشابايف بطل عظيم عموماً، ولو لا إخراج فيلم عنه، لما تذكَّره أحد. لكن لا يمكن إخراج أفلام عن الجميع، حتى أسماء الجميع لا يمكن تذكُّرها، ليس هناك ما يكفي من الوقت، إنه لأمر مؤسف أن تجد شخصاً يعيش كأي إنسان، ومن ثم كأنه لم يكن.

- سوف أتذكَّره.

هزَّ سانيتش رأسه.

- أنا أيضاً، هذا صحيح. لكننا سوف ننسى.

انتهى منظر البراميل، وبدأت القرية. لم نرَ أي إنسان، كما هو الحال قبل ذلك. ثمة شارع واحد تمتد الحياة على طوله، ولا حياة، ما من شخص هناك. هم على صواب، لماذا التجول في مثل هذا الزمهرير؟

- الأفضل هو من يبقى في الذاكرة دائماً، تنفَّس سانيتش في قبضته، والأسوأ أيضاً. السيئون كثر جداً، في كل مرة يزداد الأمر سوءاً. وهكذا... وصلنا. انظر إلى هذا المنزل فيه حصان.

- لماذا هو هنا؟

- هؤلاء لم يخفوا الحصان، في حين أن الناس المحليين يخفون القطط، إنّه حصان سمين. ثمة أشخاص يجلسون هناك. هيا، دعنا نرَ.

- غليبوف، كما تعلم...

- تعال.

- ينبغي أن نرى على أي حال، دعنا نرَ... اسمع، إذا عدنا سيشتبه رجال الشرطة بنا فوراً، لا يمكننا العودة الآن، ينبغي أن نمرَّ كأن شيئاً لم يكن، كأننا متسولان...

لم أجادله.

اقتربنا من المنزل ذي السقف المائل، فقفز كلب من تحت الشرفة: هجم ذلك الكلب الأسود الضخم علينا هائجاً، وهو يجرُّ سلسلة وراءه.

يتصاعد الدخان من الموقد؛ ثمة أناس يعيشون في هذا المنزل. رفرفت ستارة النافذة اليمنى الأخيرة، إنَّهم يتلصصون. ثمة كمية من الحطب المقطَّع مكشوفة في عنبر الحطب، في الوقت الذي يخفي الناس الحطب عادة، يعرضون الحطب هنا علانية في الواجهة.

جفل الحصان قليلاً من الكلب الذي جرَّ رباطه، ووصل إلى منتصف الشارع تقريباً.

- حصان أصيل، مدَّ سانيتش يده إلى الحصان، وراح يداعب وجهه، فمط الحصان شفتيه، أصيل...

ضغط سانيتش وجهه على رقبة الحصان، ونظر إليه من طرف عينه، وشدَّه من عرفه.

- أصيل، دافئ...

- دعنا نذهب أفضل لنا، أمسكت سانيتش من كوعه، لا داعي للوقوف، سوف يشاهدوننا...

- المسْه، إنه دافئ، دافئ حقاً!

لمسته، دافئاً فعلاً، فجأة رغبت -أيضاً- في أن أحضنه، ما هذه الرغبة الحمقاء، أنا لم أحبَّ الحيوانات من قبل.

- أصيل... همس سانيتش، أصيل...

تملَّكتني رغبة في المغادرة والهرب من هنا، لأنني كنت أعرف فعلاً ما الذي سيجري، كنت أعرف، إنما بعد فوات الأوان. فُتح باب العزبة، وخرج رجلٌ إلى الشرفة، في نحو الثلاثين من عمره، ينتعل جزمة، ويرتدي معطف فرو، يبدو رجلاً عادياً ملتزماً بمنزله، لكنَّه يحمل رشاشاً تحت ذراعه، في هذه الأيام لا تجد شخصاً من دون سلاح حتى في المرحاض.

- ما غرضكم؟ حدَّق الرجل بنا بفظاظة، ابتعدْ عن الحصان! هيا، تحرك!

بدأ يُنزِل الرشاش عن كتفه، فظهر مسدس في يد سانيتش، لست أدري من أين، فجأة وبسرعة وبشكل لا تدركه العين تقريباً. لم ينبس سانيتش ببنت شفة، أطلق النار من دون أي تحذير. أصابت الرصاصة معطف الفرو في مكان ما.

قفزت من مكاني، أما الحصان فلم يقفز، بل تراجع قليلاً، دوَّت الرصاصة قرب أذنه تقريباً، لكنه اكتفى بهزِّ ذيله. ظلَّ الرجل واقفاً، فأطلق سانيتش النار مرة أخرى، وأصابه في عنقه. سقط الرجل، وانتهى كل شيء.

اقترب سانيتش منه بحذر، على رؤوس أصابعه تقريباً، ثم مدَّ يده إلى الرشاش، وتناوله.

- هكذا إذاً، قال سانيتش، هكذا إذاً، أيها الوغد...

جلس القرفصاء أمام القتيل، وقلبه على ظهره.

- مخلوق فاشي... بصق سانيتش في وجه الميت، هذا جزاؤك... أيها المخلوق التافه.

ركل سانيتش الرجل بقدمه، فارتعش كأنَّه حي، على الرغم من أنه مات طبعاً، كان لا يزال ساخناً.

- وإذا...

- هذا فاشي، أجابني سانيتش بثقة، شرطي وغد، بالتأكيد، بالتأكيد. انظر إلى سحنته، من أين له هذه السحنة؟

راح يفتِّش عن الجيوب في ملابس القتيل، لكنه لم يعثر عليها، بدا سانيتش، من نظرة جانبية، كأنه، لسبب ما، يطبطب على جسد الميت.

- إنَّه فاشي، بالتأكيد فاشي، لا داعي للشكِّ. قوي البنية، يداه سمينتان... من أين له هذه القوة، آ؟ جميع الرجال في الجيش، أمَّا هو فيعيش في بيته، ولديه حصان علناً، ويتبختر ذو السحنة الشبعانة حاملاً رشاشه، لقد أخبرنا شيبِّيكوف أنَّهم كثر، بقايا أغنياء الفلاحين (الكولاك)، ألم ترَ البراميل؟ براميل الكولاك؟ فضلاً عن أنَّه لا توجد أي مشنقة.

سال مخاط سانيتش بغزارة، ولم يتمكن من مسحه.

- لقد نصبوا المشانق في جميع القرى العادية، لكنهم هنا لم ينصبوها لسبب ما...

سُمع صوت إطلاق نار، صوت صاخب: بووم! ثمة من يطلق النار من المنزل.

شخر الحصان، وخرَّ على ركبتيه، وسال الدم من عنقه، لقد قُتل، وثبنا إلى الوراء قليلاً: انبطحت فوراً، أما سانيتش فقد ظلَّ واقفاً، ينظر في كل الاتجاهات.

ظهر رجل مسنٌّ يحمل سلاحاً؛ رشاش كاليبر أسود، له سبطانة واحدة من العيار الثقيل، مظهره مرعب. كان الرجل العجوز يرتدي قميصاً رمادياً، قريباً من البياض، ومعطف فرو أيضاً، لعلَّهم هنا يقصُّون شعر القطط، ويخلِّلون لحمها في البراميل...

اقترب الرجل العجوز منا، وحاول إعادة تلقيم سلاحه، غير أنَّه لم يستطع، على الأرجح حاول إعادة تلقيمه عشر مرات، ولم ينجح، ثم حاول العجوز إخراج الخرطوشة بأظافره، بيد أنّه لم ينجح. هو أيضاً... ثمة أصوات صراخ، راح يصرخ بطريقة ما، مثل رجل يغرق، يكاد يختنق، وقد انقطع الهواء عنه، لقد خارت قواه، إنما شعلة الحياة لا تزال تفور في عروقه.

أطلق سانيتش النار بسرعة؛ أربع طلقات من المسدس ت. ت، أصابت طلقتان الرجل العجوز، فألقى سلاحه وسقط.

وبينما سمعت كلباً يلهث، راحت الكلاب في الدور الأخرى ترعد، بغض النظر عن كيفية إخفائها، لكنَّها ظهرت. ثمة كثير من الكلاب في هذه القرية، أكثر مما ينبغي، إنَّها قرية قاتمة صغيرة على أي حال.

نظر سانيتش حوله، ثم وضع المسدس في جيبه، وتناول الرشاش.

- ينبغي تفتيش المنزل، قال سانيتش، ربما لا يزال هناك آخرون.

لم يمت الرجل العجوز بعد، بل ظلَّ يرتعش، وسلاحه في متناول يديه، لكن سانيتش لم يعره أي اهتمام، من الواضح أنَّ الرجل العجوز لم يعد قادراً على استعمال السلاح.

- وغد عنيد، قال سانيتش، كلُّهم أوغاد عنيدون...

نهضتُ، فراح الرجل العجوز يزحف ببطء باتجاهي، ويخدش بأظافره الثلج محدِّقاً بعينين فارغتين، يزحف ويزحف. أما أنا فلم أستطع التراجع. أمسكني سانيتش من ياقتي، وسحبني جانباً، ثم مضى إلى الرجل العجوز، وصوَّب الرشاش إليه.

راح الكلب يعوي، ويشدُّ السلسلة، سقط شيء ما على أرض الدار، وسحب الكلب السلسلة، وبات على بعد نحو خمسة أمتار، لقد تعثَّر مرة أخرى، وهو يحاول قطع السلسلة، التفت سانيتش إليه، ورشَّه رشَّة. لم يهدأ ذلك الوحش، إذ تملَّكه غضب شديد لدرجة أن الرصاصات لم تصرعه فوراً، بل اخترقت جانباً منه فكشَّر عن أنيابه، واستمر يزمجر ويضرب.

- ينبغي تفتيش المنزل... قال سانيتش، دعنا نفتشه.

أطلق النار على الكلب مرة أخرى، فخمد.

اقتربنا من المنزل، وتوقَّف سانيتش عند الباب.

- كلبهم معلوف جيداً، هل رأيته...

لم أعرف فعلاً إن كان يسأل أم لا...

- معلوف جيداً. أومأت برأسي.

- جميعهم معلوفون، فاشيون أوغاد... ربما نجد ثلة من الفاشيين جالسين هنا، ليت معنا مدفعاً رشاشاً لنبيدهم...

استدار، وقفز من الشرفة، ثم ركض إلى الرجل العجوز. كان قد تحرك، ولم يتبق سوى مترين كي يصل إلى ابنه، حينها وقف سانيتش فوقه، وصوَّب الرشاش إليه، أطلق رشة، فخمد الرجل العجوز. بعد أن سقط على جانبه، راحت يده ترتعش، واستمرَّت أصابعه في الانكماش.

عاد سانيتش إلـيَّ.

- لا بأس، قال لي، لدينا ما يكفي للجميع.

ركل الباب، ودخلنا، كانت تفوح في العزبة رائحة الطعام: فطر، وبطاطا مقلية. المائدة مفروشة، والبخار يتصاعد من آنية حديد الزهر، ثمة زجاجة رمادية، وصحن ملفوف، وتوت بري كالعيون

الحمر، ورغيف خبز أبيض مقسوم إلى نصفين.

شاهدنا عدداً من الكراسي، وأيقونات، ومجموعة صور على الحائط؛ هذا جالس، وتلك واقفة وسط الخمائل.

ثمة امرأة عجوز كفيفة، تجلس على مقعد طويل، عيناها فارغتان. أخذت تبتسم لـمَّا دخلنا.

- سرجون، هذا أنت؟ سألتنا، إلى أين هرب فيلكا؟ ماذا تطقطقون هناك مرة أخرى؟ نادِه، ليتناول البازلاء قبل أن تبرد.

الفصل الثالث عشر

خلد الجميع إلى النوم، بمن فيهم غليبوف. لقد صمد فترة أطول من الجميع. سمعت وقع خطواته، ولـمَّا قصد الدلو طلباً للماء، وقرعتْ المغرفةُ حديد الدلو مرات كثيرة، أدركتُ أن آليا ستموت. يحظر على الجرحى شرب الماء، غير أنَّ غليبوف سقاها، لأنَّه كان يعلم أن لا طائل من كلِّ الجهود، ولا سبيل لإنقاذها. لنفترض أننا حملناها، أو جئنا بحصان من مكان ما، وحزمنا النقَّالة عليه ومضينا؛ فالثلوج متراكمة بكثافة وعميقة، في هذه الظروف نستطيع قطع ثلاثة كيلومترات في الساعة، وستموت آليا مساء غدٍ أو في الصباح.

دعها تمت هنا، في دفء وسلام، وسط زملائها. يا له من شعور غريب: أن تنتظر موت شخص ما. جاءت السيدة العجوز مرة أخرى، لقد سمعتُ وقع خطواتها الناعمة، وصرير ألواح الأرضية. راح هباب التنفس يتكاثف كقطرات الندى على الزجاج المتجمد المليء بالبثور.

حاولت آليا أن تنطق شيئاً ما، فأجابها غليبوف همساً. وددت أن أنهضَ وأقترب منها، وأمسك يدها، أو أن أحضر لها كأس ماء، لكنني طبعاً كنت خائفاً، ولم أشأ أن أراها هكذا. لقد راحت تتحدث،

وتطيل، كذلك تحدث غليبوف أيضاً، لكنها لم تسمعه، فلاذ بالصمت. جلس إلى جوار سريرها فترة من الوقت، واستلقى إلى جوار الموقد.

لكن آليا لم تصمت. مرة أخرى أردت الاقتراب منها... لكنني صرت خائفاً لسبب مختلف: خفت من أن تعرفني، لم أكن أعرفها تماماً، تكلَّمنا مرتين فقط، ومع ذلك كنت خائفاً من أن تمسكني من يدي، وتتحدَّث عن كوفالِتْس، أو عن شخص غريب، أو عن شوريك، كأن تناديه، أو تعاملني على أنني هو، لن أتحمَّل، سأبكي...

- إنَّها لا تعرف أي شخص. قال سانيتش.

كان جالساً على مقعد طويل.

- كانا من رجال الشرطة، همس لي، خدم الرجل العجوز عدوَّ الشعب أربع سنوات، وكان ابنه مختبئاً من خدمة العلم، أو فارَّاً، فارَّاً مع سلاحه، يا للأوغاد. سيحلُّ الفجر قريباً... عندئذ سنخرج، وسنتمكن من الانسحاب، هل تسمعني؟

- أسمعك.

استدرت جانباً، وسرَّحت نظري عبر النافذة. ثمة ذبابة ميتة مرمية بين إطاري النافذة. في الزاوية على طول الزجاج امتدَّ شقٌّ طويل بحجم الخرطوشة. لقد فكرت في إغلاقه بقفازي، لكنني تركته كما هو، فملأ الصقيع الشق.

واصلت آليا غمغمتها، من دون انقطاع، راحت تتكلم، وتتكلم، تزفر، وتنشج، وأحياناً تفرح، وكان ذلك الأسوأ على الإطلاق. حاولت شدَّ قبعتي بشكل أعمق، لكنَّ صوت آلكا شقَّ طريقه عميقاً، بعد فترة توقفتُ عن مقاومته:

-... ورود صبي صغير، صبي مرض، ذهبنا إلى هناك إلى هناك إلى النهر إلى العربات صبي صغير صبي مرض الماء بأظافره الصفراء...

أحسست بالقشعريرة تسري في جلدة رأسي، وسرى الخوف في داخلي ثقيلاً كالرصاص، لم يبارحني، كأنَّ أحداً يذوِّب سلكاً جليدياً شائكاً تحت جلدي.

-... مشروب الشاي والسمك ذهبنا إلى هناك مع والدي لإحضار سمك نهري، وبعدها لم أستطع تنظيف أصابعي من الحراشف، صارت تلمع، ما زالت تلمع حتى الآن تلمع...

راحت آليا تتنهَّد، وتتنفَّس تنفساً عميقاً من أنفها، وتعيد. تحدَّثت عن الصبي شوري الذي سقط عن البوابة وكُسِرت ساقه، فنمت عظامه بشكل غير صحيح، ولم يتمكَّن من المشي، لكنه تمكَّن لاحقاً، إنما ظلَّ يعرج، ولمَّا دخلوا، أطلقوا عليه الرصاص في رأسه، وألقوا به في النهر، فطفت جثة الصبي شوري على سطح الماء، ذلك الفتى الصغير...

بينما كانت آليا تتحدث غفوت، لأستيقظ خلال دقيقة وأرى القمر خارج النافذة، يزحف من اليمين إلى اليسار.

استمرَّت آليا في الكلام، وكي لا أسمعها، رحت أعضُّ يدي، فضجَّ الدم في أذني، وحجب عني الأصوات الخارجية فترة وجيزة.

لم تنتهِ تلك الليلة، أخذت ألواح الأرضية المنهَكة خلال النهار تصدر صريراً، وانطلقت جلبة حول الموقد، وفي الموقد نفسه راح حديد الزهر يبرد. كاد غليبوف يختنق من السعال، فأخذ يضغط قبعته على وجهه، ويبصق في العلبة، وقد تعالى شخير الآخرين، ضحك شينِّيكوف في الحلم، ربما غلبني النوم أيضاً، سحبوني فوراً عن المقعد الطويل، وأسقطوني على الأرض، فاستيقظت وأدركت مباشرة أنَّ الحال سيئة. أخذ الرجال يرتدون ملابسهم بكآبة وصمت، لم يعودوا يشعرون بالحرج، سعل غليبوف، أما شينِّيكوف فوزَّع طلقات الذخيرة، كان الرشاش جاثماً بجواره مسنوداً إلى الجدار.

شاهدت سانيتش جالساً إلى جوار آلكا مرتدياً لباسه، ورشاشه على كتفه، وكذلك حقيبة الظهر. كانت آليا راقدة، ولسبب ما لم يوقظها سانيتش، كان يأكل شيئاً ما. ظننت أنَّ ذلك يتراءى لي، لكنني تأكَّدت من أنَّه ليس خيالاً؛ إنَّه يقضم الشوكولاتة، يكسر قطعة من القالب الكبير ويمضغها، وقد تلألأت الكرات الفضية اللماعة على الأرض، حلوى تسوكيركي.

- هيا نمضِ! همس غليبوف.

تجمعنا كلنا بسرعة وخرجنا. أردت مساعدة سانيتش في نقل آلكا، فاستدار محدِّقاً بوجهي، تماماً مثلما حدث في الغابة مع ذلك المراسل.

خرجنا إلى الفِناء، لم يكن الفجر قد بزغ بعد: النجوم معلَّقة في السماء، والقمر لم يرحل، كان الهواء غريباً وبارداً، ثمة نجم واحد كبير معلَّق في الأسفل، إما كوكب الزهرة، وإما كوكب عطارد، لست أدري، بدا ثابتاً فوق الحمَّام.

اصطفَّ الجميع على طول الجدار في الباحة صامتين.

- نحن ذاهبون إلى النهر، قال غليبوف هامساً، بسرعة، لا تطلقوا النار على أحد. هذا كل شيء.

كان السور منهاراً، فعبرنا فوقه، مشينا إلى النهر وظهورنا محنيَّة. تجاوزنا القرية، وبدأ منحدر خفيف، ثمة حمَّامات سوداء قديمة، وعرمة من الحطب. المسافة حتى النهر خمسمائة متر. من المؤسف أنه لا يوجد وادٍ، ربما كنا زحفنا عبره. صادفتنا شجيرات مغطَّاة بالثلوج، وقد عمَّ

الصمت، لم تعد الكلاب تنبح. البارحة، حين وصلنا زمجرت، أما الآن فقد خيَّم الصمت، لا شيء غير الثلج تحت أقدامنا.

من المؤسف أنها بقيت هنا، حتى إننا لم ندفنها. بقيت وحدها، لن يدفنها هؤلاء الأوغاد بطريقة لائقة، كان يجب أن نحرق المنزل... أو ربما لا يوجد أي فاشي، ربما كان غليبوف مخطئاً، لم ينم طوال الليل، ربما تراءى له، وتهيأ لسمعه، ولم يكن هناك أي معسكر.

أخذنا نتحرك بسرعة، نقفز قفزاً، من الحمَّـام إلى عرمة الحطب، شعرنا بالدفء نتيجة الخوف، وأصبح الأمر جلياً في ذهني. لماذا لم نغادر في وقت مبكر... قبل ساعة، لو غادرنا لكنا قد وصلنا، ولم يلحقوا بنا. الأمر واضح، قبل ساعة كانت لا تزال على قيد الحياة، يحدث الموت عادة في الصباح: ثمة من يصدِّق، ومن لا يصدِّق.

انهالت علينا رشقة رصاص عن يميننا، فسقط شينِّيكوف فوراً، ثم سقط آخر، ذاك الملتحي. التقط شخص ما الرشاش الذي سقط من شينِّيكوف.

- تفرقوا! صاح غليبوف.

لكننا لم نتفرق، بل رحنا نركض إلى النهر. كان جنود المشاة قد تجاوزونا من جهتنا، وربما تحركوا من الجهة الأخرى كي يطوقونا كحدوة حصان، لم يكن بالإمكان الهرب إلا عبر النهر. على يسارنا، توجد الأسوار والحمامات، ركضنا نصف الطريق تقريباً، أصدر غليبوف أمراً جديداً، لم أفهمه. كان الرشاش معه، إنما لم يكن لديه طلقات، شريط ذخيرته نفد، وراحوا يطلقون النار علينا من كل الجهات: من جهة القرية، ومن الجانب، أطلقوا النار من الرشاشات والبنادق، ولكنَّها لم تصبنا. أصبحنا بعيدين، وحده الرشاش أصابنا.

أخذ غليبوف يتدحرج مسرعاً باتجاه النهر، ربَّما هكذا خُيِّل إليه، لكنَّه في الواقع تدحرج باتجاه الحمَّـام، أو ربما كان يقصد الحمَّـام.

انتابني الخوف نفسه الذي عانيت منه في معدتي مساء، إنما في المساء كان شعوراً بارداً، والآن على العكس من ذلك، بات حارقاً ومحبطاً. نظرت إلى الأسفل قليلاً، فوجدت ثقباً في سترتي المبطنة، في الزر مباشرة، لقد انشقَّ نصفين، وأحسست بحرارة شديدة.

سقطتُ أرضاً.

التهبت النيران في معدتي، كأنني ابتلعت زيت عباد الشمس مغليَّـاً، حرارتي عالية جداً...

انقلبت على جنبي، يجب أن أبرِّد جسمي...

ثمة دماء تحت صدريتي، تسيل عبر الثلج. رأيت العشب الجاف، ونشارة الخشب، وحشرة ميتة، والتراب، جميعها في حالتها الطبيعية العادية.

أخذت أطلق النار، لا أعرف إلى أين. كنت أعرف من أين يطلقون النار علينا، فأجبتهم مباشرة بإطلاق النار في ذلك الاتجاه رشقات طويلة متلاحقة حتى انتهت الطلقات، وفرغ المخزن، حاولت الوصول إلى حقيبة الظهر، لكنني لم أنجح. ها هي ذي مرمية هناك على بعد نحو مترين مني، لماذا...

رحت أنظر حولي.

كان سانيتش مستلقياً ليس بعيداً، خلف عرمة الحطب، مركزاً نظره، لم يطلق النار، لا يوجد من يطلق النار عليه. اختبأ الألمان وراء الحظائر، وخلف الأسيجة، لن تصيب أحداً في أي حال.

وصلت إلى حقيبة الظهر، وقد اصطبغ التراب باللون الأحمر، أخرجت الطلقات، وذخَّرت المخزن، غير أن الطلقات تناثرت، فحاولت جمعها، لكنها انزلقت من بين أصابعي، مثلما حدث في تلك المرَّة، مع فراخ سمك الشبوط الصغيرة الذهبية، وسط شجيرات الغبيراء الحمراء.

لوح غليبوف بيده في اتجاه النهر، وتوعَّدني بقبضته. بدأت أصابعي تتجمد، وكذلك ساقي. لكنني لم أشعر بالألم، إنما بالاحتراق فقط.

- اركض!!!

سمعته.

قفزت وركضت، فتبين لي أنَّ الأمر سهل للغاية، ربما بسبب الخوف. ولكن لسبب ما شعرت أنني عارٍ تماماً على هذا الثلج الفسيح، ورحتُ أعدُّ الثواني، إنما ذلك لم يحدث. ببساطة لقد سقطت، من دون أن أفهم السبب.

هوى سانيتش إلى جواري.

راح يتقلب فوق الثلج، وهو يطلق النار؛ رشقات قصيرة، وبمهارة. أما أنا فكنت أنظر إلى النهر.

ركضنا مرة أخرى، وجرَّ سانيتش رشاشي، فيما بدأت أفكِّر إن كانت أمعائي قد سقطت، لقد خفت كثيراً من أن أرى أمعائي المثيرة للاشمئزاز...

ركلني سانيتش، ثم أمسك بيدي، وجرَّني على الثلج، فأخذت أخبط رِجلَيَّ في الهواء، وبعد ذلك نهضت.

تجمعنا بجوار الحمَّام الأخير؛ كنا نتنفس بصعوبة، ونلهث. أسند غليبوف رشاشه إلى الحائط، واستند هو أيضاً.

- يجب أن نعبر النهر ثم الغابة، قال لنا، فلنركض الآن... حاملين أسلحتنا. لا تطلقوا النار، دعونا نركض إلى الأمام فقط، سأخبركم حين...

لكن غليبوف لم يخبرنا؛ إذ علا صوت انفجار فوق رؤوسنا، فتطاير سقف الحمام، وعلقت في الهواء ألواح، وقِطع خشب، كما اندفع من هيكل الحمام عمود خشب ضخم، وسقطنا، تلا ذلك انفجار على بعد نحو عشرين متراً.

إنَّها قذائف الهاون.

وقع انفجار آخر قربنا، فتطايرت الشظايا حولنا، حينها قفزتُ فوراً، وهرعت مستجمعاً ما بقي لدي من قوة، وضغطت صدريتي على بطني.

ثمة شخص آخر يركض إلى جواري، راحت الألغام تنفجر، فاحترق الحمَّام، وتساقطت قطع الخشب من السماء، وتعالت أصوات الصفير والهدير، وبغتة حلَّت لحظة صمت لا يمكن تفسيرها.

كانت الثلوج على المنحدر كثيفة وغير سميكة، فمضيت من دون أن أنهار، وأسقط على الإطلاق، تابعت طريقي أخبط بقدميَّ على الجليد مخلِّفاً علامات حمراء.

- لا تتوقفوا! صرخ غليبوف، إلى الأمام!

النهر ليس عريضاً، نحو خمسين متراً، نهير، بقي القليل...

شخص ما كان يقودني، فأدركت أنني سأموت فجأة في لحظة واحدة. كان نوعاً من المعرفة العظيمة، والإحساس... الذي لا يُصدَّق، ولا يمكن وصفه، انهيار وسقوط مفاجئ، لكنَّ غليبوف كان قريباً، أمسك بي من حزامي وجرَّني وراءه. ما أوسع هذا النهر الذي لا ينتهي. سندني غليبوف من الجانب، ولم يدعني أسقط، بعد ذلك شعرت باليابسة تحت قدمي، فأمسكت بالشجيرات، ورحت أزحف وأنظر حولي.

لم أشاهد سانيتش بيننا. كان مستلقياً على منحدر خلف النهر إلى جوار دغل شجيراته متجمدة، دافناً وجهه في الأرض. لقد تملَّكني الخوف، لكنه رفع رأسه، وبدأ يطلق النار.

لم أر الألمان. كان سانيتش يطلق النار، وهم يطلقون النار من الجانب الآخر، لكنني لم أرَ أحداً. المنحدر باتجاه المياه مهجور وفارغ، وقد اندلعت النيران في الحمَّام بضراوة، واستعرت المعركة.

- إلى الأمام! صرخ غليبوف بصوت أجش، إلى الأمام، أيها الأوغاد!

استمرت الألغام في الانفجار على الجانب الآخر، وبعثرت كتلاً سوداء ممزقة في جميع الاتجاهات يكسوها البياض، وصارت الأقماع التي ينبعث منها الدخان أشبه بثقوب يحدثها الرصاص، كأن

شخصاً معلّقاً عالياً في السماء يطلق النار على الأرض من بندقية ضخمة.

تدحرج سانيتش بين شجيرات دغل صغيرة، واختبأ في الثلج، ثم رفع رأسه، وأطلق النار.

كان الثلج عميقاً، لقد علقنا. سقطتُ، وخيَّم الظلام في رأسي، سقطت على وجهي في الثلج، وأدركت أنني لن أنهض. قلبوني؛ إنَّه غليبوف، كان وجهه ملطخاً بالدم، جافاً ونضراً، ولكنه قاتم، يغالبه النعاس. عينان صفراوان لا يمكن تفسيرهما لشخص لم يشبع نوماً، أمسك بي من قبة سترتي وجرني إلى فوق، سحبني نعساً على المنحدر إلى الضفة، حيث تنفَّس الصعداء، وأوقفني على قدمي، ثم أسندني إلى شجرة.

- هل تستطيع المشي؟ يجب أن تذهب! إلى هناك!

- أستطيع. أجبته.

- إذاً، اذهب!

- أستطيع...

- إلى الأمام! صاح غليبوف، لا تنظر إلى الوراء! إلى الأمام، إلى الأمام، اركض! اركض!

أبعدني عن شجرة البتولا، ودفعني بحذر، محاولاً ألا أقع، لمسني برفق وحنان، كانت لمسته مثل لمسة أبي.

قطعت عدَّة خطوات، ثم التفتُّ طبعاً.

عبر غليبوف النهر عائداً، وأطلَّت الشمس من وراء الغابة، فأنارته من الجانب، وراح يتراقص على الثلج ظلٌّ نحيلٌ يطوِّح بذراعيه الطويلتين.

الفصل الرابع عشر

تباطأ القطار مبكراً. لم تظهر المدينة بعد، خفف السائق سرعة المحرك فازداد القطار بطئاً، تراءت خلف النافذة شجيرات يكلِّلها السواد، واستطاع بعض الأزهار الشوكية البيضاء، التي ربما تفتَّحت قبل وقت قصير، أن تخترق أوراق الشجيرات التي يغطِّيها السخام.

اتجهت مسرعاً إلى منصة الخروج، فوجدت طابوراً من الركاب المستعجلين مثلي يقفون مصطفِّين إلى جوار حقائبهم، وأكياسهم، وسلالهم. أخذت المدينة تقترب، كان الناس يشعرون بالتعب، ويتصببون عرقاً، سئموا من تدخين سجائر «بيلامور»، فراحوا يشتمون ويقهقهون. بعد ذلك، فقدَ أحد الركَّاب صبره وفتح الباب، مع ذلك لم يصبح الجو أبرد، بل انتقلت حرارة المحرك إلى الداخل، وانتشر هواء ساخن، وهذا أيضاً لم يزِدِ الركاب ضيقاً، فقد كانوا جميعاً يتشوَّقون للخروج من هذه العربة الملتهبة.

لم تظهر المحطة بعد، بل توالت الضواحي الصناعية، وكذلك المعدَّات والآليات، والقساطل، ومبدِّلات الحرارة، ومنازل عمال السكك الحديدية المكونة من طابقين، والشوارع المائلة، والمساحات المكتظَّة بعربات القطارات، والقاطرات البخارية التي لا تعَدُّ ولا تحصى، وأطنان الفولاذ، وورش الإسمنت، والحشائش المغبرة القاتمة التي تنمو وسط زيت الوقود والعوارض.

لاحت المحطة فجأة، وظهرت عاملة القطار، وكالعادة راحت تشتُم الجميع، إنما لم يغتظ منها أحد، فهذه عادة العاملات في القطارات. توقف القطار، وسمحوا للناس بالخروج من المقصورات المزدحمة والممرات.

كان الكاتب ينتظرني على مقعد مقابل حوض زهور نجمية بنفسجية؛ يبدو أنَّهم أخطأوا بالبذور. تعرَّفت إلى الكاتب فوراً، حين نهض لاستقبالي.

- مرحباً. مدَّ الكاتب يده.

إنَّه فيكتور، ذلك المراسل النحيل، الذي خرَّب فيلمين في خريف عام ألف وتسعمائة واثنين وأربعين.

كانت مصافحته قوية، لقد كبر، وأنا أيضاً.

- لقد تغيرت. قال لي.

- وأنت أيضاً.

لزمنا الصمت لحظة، ورحت أحدِّق في وجهه، وهو يحدق في وجهي.

يرتـدي فيكتور لباساً موسكوفياً باهـظ الثمـن. لقد لوَّحته الشمس، وصار يضع نظارات، ربما لأنَّه يكتب كثيراً، فقد أصبح كاتباً.

كان قد اتفق معي على اللقاء منذ فصل الشتاء، ثم أرسل رسالة وبرقية إلـيَّ في المعهد، وكلَّمني عبر الهاتف مرتين. إنما، بصراحة، لم تكن لدي رغبة في مقابلته. أبلغني أنه فيكتور نفسه، الذي التقينا به عام اثنين وأربعين، ويريد أن يسمع...

لم أكن أعرف ماذا سـأقول له، فكلُّ ما اسـتطعت قوله قلته فـي أثناء التحقيق عام ستة وأربعين، ثم كررته مرتين. لكن الكاتب ادَّعى أنَّه مهتم بشيء آخر: إنَّه يريد تأليف كتاب، يجمع فيه روايات شهود العيان، الذين بقي منهم القليل، وأنَّه شعر بالسعادة حقاً لـمَّـا علم بوجودي.

وأنَّه يبحث عن صورة.

أجبته أنه لا توجد عندي صور على الإطلاق. ظننت أنَّ ذلك سيخفِّف من إصراره قليلاً، ولكن تبين لي أنَّ الكاتب ملحاح، فقد اتصل مرة أخرى بعد شهر، وبعد أسبوع جاءتني مكالمة هاتفية، بل تلقيت تلميحاً من جهات رسمية.

إنَّها مسألة ذات أهمية وطنية؛ ينبغي أن يتعرَّف الناس إلى أبطالهم، كما أنَّها ذات قيمة تربوية عظمى بالنسبة إلى الجيل الشاب.

لذلك، لـمَّـا اتصل الكاتب مرة أخرى، لم أرفض.

- ربما... أومأ فيكتور برأسه، نتناول طعاماً خفيفاً؟

- لا، لقد تناولت إفطاري. دعنا نبدأ العمل.

عبرنا محطة صاخبة عابقة برائحة الفطائر والبيرة، ثم استقلينا سيارته «بوبيدا»[27] السوفيتية الصنع. ثمة صورة أنيقة لفتاة جميلة فوق آلة التسجيل؛ ليست جميلة فحسب بل فائقة الجمال، وإلى جوارها صورة صبي شرس يحمل قوس رماية؛ إنَّها عائلته.

- هذه زوجتي، أوضح فيكتور، وأنت؟

- متزوج أيضاً، أجبته، ولدينا صبي كذلك. كل شيء على ما يرام والحمد لله.

أول شخص من هناك.

أحياناً لا أتذكَّر، أنسى، وأحياناً لا أصدِّق أن ذلك قد حدث. في الواقع، لم يبق شيء تقريباً: ندبة بيضاء على طول بطني، وكاميرا فيها فيلم أفسده الضوء، هذا كل شيء.

- هل تشكو من شيء؟ سألني فيكتور بتعاطف، ربما، نتناول شيئاً على أي حال؟

- لا، أنا لا أتناول الطعام في الصباح.

- وأنا، عموماً كذلك... إذاً، هيَّا إلى العمل؟

- حبَّذا. هززت رأسي.

- إلى العمل، حسناً إلى العمل... راح فيكتور يحكُّ راحة يده، إذاً سوف أسألك عن مسألة التقاط الصور، هل القصة صحيحة فعلاً؟ لقد كتبتَ لي، كما أذكر، أنَّه ذكر شيئاً من هذا القبيل.

- صحيح.

- لماذا؟

- كان يزعم أن رُقيَةً تحميه من الرصاص والصور.

لم يبدر أي صوت من الكاتب كرد فعل، حتى إنَّه لم يبتسم؛ يبدو أنه لم يتفاجأ.

- صادفتني هذه الحالة، قال فيكتور بجدية، مرتين.

- أما أنا، فمرة واحدة تقريباً.

- لماذا تقريباً؟ عاد الكاتب إلى التدخين مرة أخرى.

- لقد قتل حقاً. إذاً فهو لم يكن مصوناً برُقية، وقد خدعتْه تلك الغجرية.

شغَّل فيكتور محرك السيارة، ثم غادرنا ساحة المحطة، ومضينا على طول سكة القطار. كان الازدحام في هذا الجانب من المدينة أقل بكثير، بعد خمس دقائق راحت سيارة «بوبيدا» تهتزّ على طول الطريق الريفي.

قاد السيارة بسرعة، ولم يأبه بحالتها، لاذ بالصمت؛ ربما كان يفكِّر في الأسئلة، خفَّف السرعة فقط لـمَّا ظهر النهر والجسر أمامنا، جسر خشبي لا يبدو أنَّه آمن تماماً، معلَّق فوق المياه على جذوع خشبية رقيقة وطويلة.

- هل رأيت؟ سألني.

- ماذا؟ لم أفهم قصده.

- كيف قتل؟

- لا.

هزَّ الكاتب رأسه.

- في الحقيقة، أنا سافرت بعد ذلك إلى ستالينغراد، قال لي، في البداية كمراسل، بعدئذ وببساطة، لم يكن لديَّ متَّسع من الوقت، أنت تفهم...

رحت أنتظر تتمة حديثه، أعتقد أنني أدركت ماذا يريد أن يقول لي، بالأصح خمَّنت.

- أنا شاهدت هناك... عضَّ الكاتب شفته، أشياء متنوعة... أشياء غريبة، من الصعب شرحها...

هكذا إذاً، هل شاهدت الهواء وهو يحترق؟

- لا.

- اتضح أنَّ الهواء، والماء، والمعادن يمكن أن تحترق مثل الخشب. هذه...

لاذ بالصمت مرة أخرى.

- طبعاً، أنا ملحد، إنما... هذه مسألة معقَّدة للغاية...

- لقد استُشهِد، قاطعته، الأمر بسيط.

- نعم، طبعاً، وافق فيكتور، لم أكن أرغب في معرفة ذلك من أجل أن أدوِّنه في الكتاب، إنما لنفسي. أريد أن أفهم بعض الأمور لتوضيحها، إذا جاز التعبير...

- لقد استشهد، كرَّرت، وكذا غليبوف، وكوفالِتْس، هذا كل شيء.

- نعم، أنا أعرف.

راحت عجلات السيارة تضجُّ على الطريق الترابي ببطء، كأننا نخطو خطوات عادية، وبدأت النوابض تصرُّ.

- لقد عدت مؤخراً إلى هذا الموضوع، منذ نحو عامين... اسمعْ، ربما نتخاطب بلغة المفرد «أنت» فعلاً؟ حقيقة يبدو لي نوعاً ما... كأننا في صيدلية.

- تفضَّلْ.

- هل تعلم، لقد حان الوقت تماماً، لسببٍ ما بدأ فيكتور يهمس، مرَّ ثلاثة عشر عاماً، لقد هدأ كلُّ شيء، يمكن النظر إلى الماضي بأسلوب جديد. يبدو لي أننا بدأنا ننسى، بمعنى أننا لا نريد أن نتذكر، وهذا أمر خطير، أليس كذلك؟ إذا كنا ونحن في عام ثمانية وخمسين لا نتذكر، فماذا سيحدث بعد ذلك؟

- نعم...

- فضلاً عن أننا في حاجة إلى أبطال. هل تفهمني؟ الشعب لا يعيش من دون أبطال، ربما يبدو هذا تبجُّحاً، طبعاً أنا أدرك ذلك... إنما هذا ضروري.

- ربما.

- كما تعلم، فقد تم جمع كثير من المواد المثيرة للاهتمام، أخذ الكاتب يقود السيارة بحذر عبر الجسر، من حيث المبدأ، المادة كبيرة وكافية لكتاب. لكنني أبحث عن التفاصيل والانطباعات والألوان. الأرقام والتواريخ مواد جيدة طبعاً... إنما نحن في حاجة إلى أمر آخر. أنت رافقتَه... كم من الوقت؟ سنتين؟

- سنة ونصف، إنما على أي حال... أنت تحتاج إلى الكلام مع والدته على الأرجح، مع والدته وشقيقتيه، فهن يعرفنه أكثر مني.

- لا، هزَّ الكاتب رأسه، ليس أفضل منك. أمُّه...

وصلنا إلى منتصف الجسر، الذي صار يهتزُّ بعنف، وقد ركَّز الكاتب انتباهه على قيادة السيارة. إنَّه جسر ضعيف، يكاد ينهار، لا يوجد عليه درابزين، أو ربما انكسر.

لقد صمد الجسر، فتنفَّس الكاتب الصعداء.

- هل تعلم أنَّ والدته لا تتذكره على الإطلاق؛ بالأحرى هي تتذكره شخصاً آخر مختلفاً تماماً، ليس ذاك، أي ليس من نبحث عنه. لو سألتها: «كيف كان يمضي وقته؟» لأجابت: «مثل الجميع، كان يتدرَّج في الغابة، ويلعب لعبة الحرب، ويصيد السمك».

- في الحقيقة، كان يحبُّ صيد السمك، قلت له، كان يمضي وقته وهو يستعدُّ للصيد، ويصنع الطعوم للصنانير من المعلبات.

خرجنا عن الطريق، ثم خفَّف الكاتب السرعة، وقاد السيارة إلى جانب الطريق، حيث أطفأ المحرك، وفتح الباب، وأخرج ساقيه الطويلتين. كان يرتدي سروالاً مميزاً أبيض، من قماش أشرعة السفن على الأرجح. هذا سروال يوم الأحد، يرتديه وقت الراحة، يجلس ويدلِّي ساقيه، ويهزُّهما في الهواء، ويلامس أحياناً أمواج البحر... حذاؤه أيضاً حذاء يوم الأحد، أبيض، سأشتري واحداً مثله.

- طعوم الصنانير... هي طعوم صناعية؟ للأسماك، أليس كذلك؟

- نعم.

تناول الكاتب مفكِّرته، وشرع يدوِّن ملاحظاته بقلم الرصاص. كانت مفكرة كبيرة، وسميكة، وضخمة، تبرز من بين صفحاتها قصاصات مرتَّبة عليها تواريخ 38، ٤٠، ٤١، وصولاً إلى 47.

فما الذي حدث عام سبعة وأربعين؟

- هل... تؤلِّف كتباً؟

- نعم، هزَّ رأسه، أؤلف كتباً، من فترة قريبة... اسمع، كيف كان شعوره... حسناً، كبطل؟ إنه أول بطل، على ما يبدو، من صفوف الطلائع؟

- كان شعوره طبيعياً، لم نكن نعرف يقيناً أنه فاز بلقب بطل، لقد انتشرت الشائعات فقط. في الحقيقة، هو لم يكن طليعياً. حسناً، لقد كنا نغيظه قليلاً... فالمرسوم صدر فعلاً عام أربعة وأربعين.

- تغيظونه؟

- كنا نضحك.

- واضح، دعنا نذهب، لقد حان الوقت فعلاً...

انطلقنا. لم يكن الطريق سيئاً، بل مستوياً، فيه قليل من الحفر. هبَّ نسيم عليل عبر النوافذ، وزاد الكاتب السرعة.

- هل تتذكر أي شيء؟ أومأ برأسه عبر النافذة.

- لا. جميع ذكرياتي متشابهة، على أي حال؛ الغابة هي الغابة دائماً.

- هل يمكن العثور على معسكركم؟

- احتمـال ضـعيف. كم مـرَّ عليـه من السنين، لقد غمرتْـه الأعشاب والنباتات.

ناولني الكاتب المفكِّرة.

- ثمة خريطة في منتصفها. أنا وضعتها بنفسي، قال لي، خريطة تقريبية، طبعاً.

بدأت أتصفَّحها. في الحقيقة، قام فيكتور بجهد كبير: استحضر الأسماء، والألقاب، والعمليات، وعدد الجسور، وعدد الغارات، وكمية المعدات المدمرة، والجنرال فيرتز، والألغام، والألغام الارتدادية التي تقفز مرتدَّة قبل انفجارها...

ثمة رسالة موقَّعة من كالينين، والمرسوم، والمعسكر السابع والستون، واللواء الرابع، وغليبوف. لقد تبيَّن أنَّ غليبوف كان رجلاً عسكرياً، قبل الحرب، إنَّه أمر مثير للاهتمام.

أما كوفالِتْس، فلم يرِد ذكره إطلاقاً، كأنَّه لم يعش قط، وكذا شوري، وألِفْتينا أيضاً، أما أنا فقد ورد اسمي في الأخير، عمري لم يكن صحيحاً، أنا أكبر بسنة ونصف السنة.

الخريطة.

- هل هي صحيحة؟ سألني فيكتور.

- تشبه الواقع، قلت له، البحيرات أكثر، عموماً يبدو أن كل شيء صحيح. إنما...

- ماذا؟ أبدى الكاتب قلقه.

- لست أدري... ببساطة، أنا لم أتعامل مع الواقع بشكل مسطَّح... هذا مسطَّح. لدي هذا...

- لماذا هو مسطَّح؟

- حسناً، لا تهتم، لدي هذا... هبَل طوبوغرافي.

ضحك فيكتور.

- هل توصَّلت إلى ذلك بنفسك؟ سألني، الهبل الطوبوغرافي! حقاً...

- هذا ما أوضحه الطبيب لي. كما تعلم، في ذلك الحين لم أكن مُلمَّاً بالخرائط. لقد صار طبيبي، لأنني صرت أضيع باستمرار في الغابة، بعد إصابتي.

أشرت إلى رأسي بنقرة من إصبعي.

- واضح، إنما يبدو لي أنَّ الخريطة ضرورية تماماً. يحتاج القارئ إلى تخيُّل كل شيء من الخارج تماماً، هكذا يصبح الأمر أوضح، ما رأيك، إنها جيدة، أليس كذلك؟

- قد تكون جيدة، وافقته الرأي، ينبغي أن نكتب أيضاً عن «اقتلوا الألمان»، كان يحفظها عن ظهر قلب. وربما عن «تانيا»[28].

- «تانيا»؟ سألني الكاتب.

- أقصد عن زويا كوسموديميانسكايا[29]، أوضحت له، لـمَّا نُشر المقال، لم يكن اسمها الحقيقي معروفاً بعد.

- هل قرأتم عن زويا؟ تفاجأ فيكتور.

- لا. لم يكن بمقدورنا القراءة، ببساطة لم تكن كل الصحف تصل إلينا، فالطائرات لم تكن تهبط عندنا باستمرار. لا بدَّ أنَّه كان سيحبُّ زويا.

استغرق الكاتب في التفكير.

- ربما يمكن الكتابة عن كوسموديميانسكايا حقاً. هذا شيء طريف. هل كان يحفظ «اقتلوا الألمان»، عن ظهر قلب تماماً؟

- «... لن نتكلم، لن نتردد، سوف نقتل. إذا لم تقتل، لو ألمانياً واحداً في اليوم...»

- واضح. أوقفني فيكتور.

- الجميع كانوا يحفظونها، وهو أيضاً.

أخذ الكاتب يبحث عن سيجارة. حين لا يكون لديك أصابع كافية في يدك اليمنى، يصعب عليك قيادة السيارة وتناولَ السيجارة معاً. اصطدمت «النصر» بحفرة، فراح الكاتب يشتُم، ويضغط على الفرامل. استطعت أن أستند على كفي، في حين اصطدمت جبهة الكاتب بالمقود، واستدارت السيارة وسط الطريق.

توقفنا وسط سحابة من الغبار، ومسح الكاتب جبهته.

- ينبغي أن تضع كمادات باردة، نصحته، وإلا ستتورَّم.

- نعم، سأحضرها حالاً. ابتسم فيكتور.

- هل أحببت القتل؟ سألته.

- ماذا؟

- قتل الألمان، كرَّرت له، هل أعجبك؟

تناول سيجارته أخيراً، وشرع يدخِّن.

- نحن أحببنا ذلك: أنا أحببته، وهو أيضاً.

نفض الكاتب رماد السيجارة على الأريكة الجلدية في صالون السيارة.

- هل تعلم... راح فيكتور يدخِّن ويعضُّ شفتيه، بخصوص مقال «اقتلوا الألمان» حالياً ليس... مناسباً. حتى الكاتب إرينبورغ نفسه لا يحبُّ أن يتذكره، والمجتمع أيضاً...

لوَّح الكاتب بيده بحركة دائرية لإبعاد الدخان، ثم رطَّب أصابعه بلعابه، وفرك مكان الكدمة.

- نحن الآن في صداقة مع ألمانيا الديمقراطية.

- أما أنا فلست صديقاً لها، قلت له، أنا شخصياً لا أصادقهم.

- لا أعرف...

كسر الكاتب السيجارة، وألقاها من النافذة.

- أعتقد أن الأمور بيننا وبين الألمان لم تنته بعد، قلت له، ولن تنتهي أبداً. إنَّ أي ألماني، حتى لو ولد بعد مائة عام، مدين لنا.

- حسناً، نعم، إنهم مدينون لنا لما فعلوه بنا...

- لا، على الإطلاق؛ إنهم ليسوا مدينين لنا لما فعلوه بنا، إنما هم مدينون لنا بما لم نفعله بهم.

شغَّل الكاتب المحرك.

لقد استغرق فترة طويلة وهو ينفث الغازات، فصارت السيارة تترجرج، وزجاجها يهتزُّ، وانتشرت رائحتها.

- حسناً، قلت له، هذا كلُّه ناتج عن تعب الأعصاب...

أخيراً حرَّك الكاتب سيارته، «النصر»، فضجَّت مؤخرتها، وتهادت متمهِّلة على عجلاتها البالية. كلما ابتعدنا شمالاً، أصبحت طريقنا أسوأ: قلت نسبة الحصى، وازدادت نسبة الرمال، كما قلَّت سماكة الردم، حتى إنها اختفت تدريجياً تماماً، وتوحَّدت مع الغابة، وتحوَّلت إلى طريق ريفي عادي. في التفريعة التالية، انعطف الكاتب إلى اليمين: كان يعرف الطريق جيداً، فهذه ليست المرة الأولى التي يسافر فيها إلى هنا، على ما يبدو.

- سيكون من الجيد رؤية المخيم على أي حال، قال فيكتور، من الغريب أنَّه لا يوجد بين السكان المحليين، إلى حدٍ ما، من يتذكر الطريق...

- إنهم لا يريدون أن يتذكروا، صححت له، أمضوا نحو ثلاث سنوات تحت حكم الفاشيين، فهل تبقَّت أي رغبة عند أحد كي يتذكر ذلك؟ فضلاً عن أنه لا يوجد في المعسكر أي شيء يمكن رؤيته حقاً.

- لماذا؟

- لم يبق أي شيء هناك، لقد تهدَّمت المخابئ، ونمت الغابة، وارتفع منسوب المستنقعات، فضلاً عن ذلك فإنَّ مؤسسة تعدين الخث تنقب عن المعادن، وفي بعض الأماكن غارت المياه واختفت، وفي أماكن أخرى، على العكس، ارتفع منسوبها. ربما لم يعد المعسكر موجوداً على الإطلاق.

- ألا تريد أن تحاول؟ نظر الكاتب إلـيَّ، اكتشافه؟

- لقد أعطوني إجازة مدتها يومان، ليس لدينا الوقت الكافي، كما أنني... أشبعت، فعلاً، بطريقة ما من الركض عبر المستنقعات. جميع معسكرات الفدائيين، في جوهرها، متشابهة، لا شيء فيها مثير للاهتمام، والغابة مثل أي غابة، مثل هذه: الصنوبر، الحور، أشجار عيد الميلاد، الغبيراء.

تفرَّعت الطريق وامتدَّت على طول النهر، فلاحت قرية من وراء التل؛ ها هي ذي المنازل.

- لن تصدِّق؟ ابتسم فيكتور، هذه لوكينو...

- كنت هنا فـي فصل الشتاء، القرية لا تشبه ذاتها حقاً. لكننا فـي ذلك الحين بقينا داخل المنزل طوال الوقت. كنا نذهب إلى الصيد فقط. يبدو أنَّ النهر هو نفسه، ها هي القوارب ترسو هناك...

راحت «بوبيدا» تَصرُّ علـى المطبات، إذ ساءت الطريـق بالقرب من القرية، وأخذت السيارة تزحف مرة أخرى. يبدو أنَّ المطر هطل هنا في الآونة الأخيرة. وحين بدأت السيارة تتعثَّر في الطين، زاد فيكتور السرعة، فهدر المحرك، وتطاير الرذاذ حولنا.

لكننا شققنا طريقنا في الشارع الوحيد. لم يستغرب الناس أو يفاجَؤوا: منتصف النهار صيفاً، الجميع في العمل. القطط وحدها قابعة على الأسوار، والكلاب مستلقية على العشب. الكلاب، بالمناسبة، كانت مسالمة وشعثاء، تمشي متثاقلة، راحت تنبح أداءً للواجب، ثمة إوز هنا أيضاً. نادراً ما أزور القرية، أحبُّ المدينة: الإسفلت، الترام، الكورنيش. حياة القرية صعبة بالنسبة إلـيَّ. ثمة الكثير من الإوز هنا، تمشي الإوزات في حزم وصرامة، كما أنهن مدهنات، وسيقانهن عوجاء، يتباهين بمناقيرهن.

- في طفولتي كادت واحدة منها تنقرني، هزَّ فيكتور رأسه، تغلَّبت جدتي عليها بصعوبة. لماذا يحتاجون إلى كلِّ هذا الإوز، آ؟

- إنها تكبر بسرعة، قلت له، تأكل قليلاً. الإوزة مثل الخنزير، بل أفضل... لحمها لذيذ. انتبه، لا تدهسها...

عجباً، أين الصغار؟ أقصد، الأطفال الصغار. هل هم في الحضانة، يا ترى؟ توقفنا بجوار منزل من طابقين، تعرَّفت إليه. الطابق الأول مدهون بالأبيض، والثاني خشبي. ثمة سور، يبدو أنني لم أره من قبل، أو ربما كان مغموراً بالثلج.

توقف فيكتور عند البوابة، ومسح العرق عن جبهته.

- وصلنا. قال لي.

- وصلنا. قلت أنا.

- انتظر، حسناً؟ طلب الكاتب مني، اجلس هنا، حسناً؟

- حسناً. هززت رأسي.

خرج الكاتب من السيارة، ومضى إلى المنزل وهو يعرج. هناك، على فسحة المدخل، لم يكن يعرج، أذكر ذلك بوضوح. ربما تكون ساقه قد تخدَّرت نتيجة الجلسة الطويلة. أحياناً تؤلمني

معدتي، لاسيما حينما أضحك فترة طويلة، أما العرَج فلا يعني شيئاً بالنسبة إلى الكاتب، ربما هو يستمتع به.

اختفى فيكتور في المنزل.

لم أستعجل في الخروج. أحبُّ الجلوس في السيارة، حيث تشعر بالمستقبل بحدَّة أكبر. المستقبل يعيش في التكنولوجيا، هذا أمر مؤكَّد. حين أنظر إلى مادة لوحات الأجهزة، وإلى الإبر المرتعشة التي تسطع بالفسفور، أرى... عام ألفين، لا أقل. إنه بعيد وغير ممكن، ربما لن أراه، إنما القرن الحادي والعشرون هنا فعلاً، براعمه موجودة فينا وحولنا حقاً.

مرة ركبت طائرة، لم أنظر من النافذة على الإطلاق. الأرض، التي انبسطت تحت أجنحة الطائرة، لم تعنني على الإطلاق، ولذلك لم أفتح عيني طوال الرحلة قط، استولت علـيَّ أحاسيس التكنولوجيا وحدها. لقد هيمن المستقبل في الطائرة، وفاحت رائحته، وارتعش، وتقدَّم إلى الأمام.

أخذت السيارة تبرد، وحديد المحرك يتقلَّص، وأسلاك المقاعد تصرُّ، والنوابض تطقطق، وقد زحفت ذبابة خيل تائهة على الزجاج. الجو حار وصحو، لا نسمة هواء، النهر يلمع مثل الفولاذ المقاوم للصدأ، ومربعات المستنقعات السوداء تنثني عند مجرى النهر بين منعطفين كالحصائر الطويلة. ثمة شاطئ رملي على الضفة الأخرى، وموقد نار، إنهم يحضِّرون حساء السمك. نشأ سانيتش هنا، إلى جوار الماء والريح.

القوارب على الضفة، مثلما كانت في الزيارة السابقة، والشِّباك تتطاير مع هبات النسيم، والجذوع الخشبية المتعفنة تطفو فوق الماء مثل التماسيح الميتة، وكذلك الجذامير التي لفظها التيار، ورائحة النهر التي تمتزج فيها المياه، والخشب، والأسماك، والخيار الطازج.

الآن تعرَّفت إلى المكان. نعم، لقد كنت هنا، فعلاً، في نهاية عام اثنين وأربعين، عشية رأس السنة الجديدة. كانت القوارب مستلقية، تبرز حدباتُها من تحت الثلج، لم ألحظ أي شيء آخر في ذلك الحين. المنزل من طابقين، والسقف مصنوع من ألواح خشبية، كل شيء كما وصفه لي سانيتش، غرفته هناك في الطابق الثاني.

لسبب ما، لم أرغب في لقاء والدته. من غير المرجح أن تتعرف إلي، لقد مرَّ خمسة عشر عاماً، وقت طويل، لم تكن أكثر السنوات بهجة على أي حال. ماذا سأقول لها عموماً؟ أأقول لها حالفني الحظ؟

ظهر الكاتب من دون سترة، يرتدي قميصاً أبيض برَّاقاً، متعرقاً تحت إبطيه، وعلى جبينه كدمة بنفسجية، غداً سوف تصبح سوداء.

- كل شيء على ما يرام، قال لي، يمكننا الذهاب. من المؤسف أنَّ يكاترينا ألكسييفنا ليست في البيت، كنتَ ستستمتع بالكلام معها، إنَّها مريضة، وهي في مركز المنطقة الآن. أعتقد أنكما

تقابلتما؟

- نعم عام اثنين وأربعين...

لماذا أتينا إلى هنا؟ كنت أعتقد أننا حين نصل سنجلس حول المائدة، ونتناول الفطائر، وأنَّ أم سانيتش ستشرع في الكلام. حسناً، وأنا بدوري سأقصُّ عليها شيئاً ما. ما العمل الآن؟

- أتذكَّر سنة اثنتين وأربعين، أتذكَّرها... فتح الكاتب صندوق السيارة، ثم تناول سيجارة، وأدخل طرفها بين أسنانه، وأخذ يدخِّن.

أنا لا أستطيع أنا أدخِّن طبعاً، التدخين ربما يساعد، لكنني في أغلب الأحيان لا أدخِّن أكثر من ثلاث سجائر في اليوم. الجميع حولي يدخنون، على الأرجح، ثمة لغز في ذلك، المهم هو الفهم.

- طبعاً، سأطلب -أيضاً- مزيداً من التفاصيل من والدته لاحقاً... بدأ الكاتب يمضغ السيجارة، ما رأيك، يا دميتري...

انحنى وتناول من صندوق السيارة رشاش MP-40 أسود جديداً، بدا لي أنَّه لا يزال في الشحم. آخر مرة رأيت فيها مثله... ربما، في سنة سبع وأربعين، حين سُلِّمت الأسلحة مرة أخرى. في ذلك الوقت، أخرج جاري، وهو يشتُم، غنائمه من المرآب: خوذات، وسكاكين ماركة «تسيونداب» يحتاجها تماماً في أثناء تنقلاته، وحاكٍ، وأسلحة أغلبها ألمانية، لم أرَ مثلها منذ ذلك الحين. لذلك، لـمَّا علَّق فيكتور الرشاش على كتفه، مثل حقيبة التنس، شعرت بغصَّة وألم في معدتي. سقط الرشاش من الصورة: طقس مشمس، وسراويل من قماش أشرعة المراكب، وسيارة «النصر»، ورشاش، وأقراص عَبَّـاد الشمس إلى جوار المنزل، أو زهور الأضاليا... تتدلَّـى فوق السياج، والرشاش.

لم يكتف الكاتب برشاش شمايسر، فتناول -أيضاً- رشاش PPsh. لم تكن رشاشاتنا بهذه الفخامة: كعبه مغطى بالورنيش، ومخزنه محلزن، رشاش له هيبة. لن أفاجأ لو أن على كعبه ثمانية عشر حزاً آخر. علقَّ الكاتب الـ PPsh على كتفه الأخرى، واقترب مني.

- امسكها من فضلك. حمِّلني الأسلحة.

تبين أنَّها ثقيلة إلى درجة غير متوقعة، أثقلت كتفي. سابقاً، كانت تبدو لي خفيفة أكثر من ذلك بكثير.

ما الغاية من هذه الأسلحة؟ لماذا هي هنا؟

- هذه أسلحة غير حقيقية، قال الكاتب بامتعاض، أي غير قتالية. لقد سلُّموها للشرطي بالإضافة إلى الأسلحة الحقيقية، لذلك اضطررت إلى أخذ هذه.

حدَّقت بكعوبها: أولاً في كعب الرشاش MP، ثم الرشاش PPsh؛ غير قتالية فعلاً.

- كيف وجدتها؟ سألني الكاتب.

- تقطع الكتفين.

- اصبر.

عاد يفتش في صندوق السيارة مرة أخرى، ظننت أنَّ لديه قبعة بيضاء أيضاً. وحين نظر في الصندوق، لامست القبَّعة غطاءه، هكذا فقدها في القرم.

تناول فيكتور كاميرا.

- لو أخبرتني لأحضرت معي كاميرا ليكا. قلت له.

- في ذلك الوقت لم تكن لديَّ كاميرا ليكا، هزَّ الكاتب رأسه، هذه الكاميرا قديمة، وهي بالتحديد ما نحتاجه.

صفق صندوق السيارة بقوة، فتطاير الغبار.

- هذه ما نحتاجه، نعم. هيَّا نمضِ.

- ألن نخيف الناس؟ هززت كتفي، فاصطدم الرشاشان.

- لا، إنَّهم مستعدون، لقد أخبرتهم بكل شيء مسبقاً. لا تقلق... أبداً. دعنا نذهب.

دفع الكاتب البوابة.

باحة بيت عادية، فيها قطعة حديد مرمية لغاية غير مفهومة، ومجرفة مسنودة إلى الجدار، وكومة قش مهملة، وكلب غير مبال. في البداية ظننت أنَّه ميت، لكنَّه أخذ يحرِّك ذيله.

في بهو المدخل ثمة زوجان من الأحذية، وملابس على الخطافات، الباب ثقيل، محمول على مفصلات ضخمة. لا أتذكَّر أي شيء من هذا. دخلنا المنزل فتذكَّرت على الفور.

كان يجلس على منضدة صغيرة، يدير ظهره إلـيَّ، ورأسه غائص بين كتفيه، فبان قذاله...

نهبت الأفكار ذهني مسرعة كلمح البصر؛ كيف... كيف أمكن أن يحدث هذا؟ لقد رأيت كلَّ شيء بالتأكيد... قد أكون مخطئاً... قد أكون مخطئاً؟ ربَّما أصيب بجراح، ثمة جراح خطيرة جداً، يمكن أن يبقى الناس سنوات طويلة بين بين، أنا أعرف مثل هذه الحالات. ربَّما ظلَّ راقداً في المستشفى، في غيبوبة فاقداً الذاكرة، وأخرجوه في الآونة الأخيرة فقط... خمسة عشر عاماً؟ لكنه كان مَرْقيّاً، لقد تحدَّث هو نفسه كثيراً عن ذلك... كما تحدَّث عن أمر آخر لا يُصدَّق على الإطلاق، عن النجوم التي تتساقط...

- أقنعتها بصعوبة كبيرة أن تقصَّ شعرها، قال الكاتب، ظلَّت تمانع أسبوعاً. ليدا!

التفتَ، أعني التفتت هي. هذه البنت التي ترتدي سترة وحزاماً... إنَّها تشبهه جداً، لهما وجه واحد تقريباً؛ فهي شقيقته.

ابتسمتْ. لا هذه ليست ابتسامته، فهذه لها غمَّازتان.

- ليديا ألكسندروفنا! قال فيكتور بنبرة عتب، أقول لك لليوم الثالث، يجب أن تكوني جدية، فنحن هنا لا نلعب! أكثر جدية. لا داعي للابتسام! تماماً، آ؟

التفتَ إلي.

- في الحقيقة، هو لم يكن على خدَّيه غمازات؟

- لا... وافقته الرأي.

إنما لا يمكن تأكيد ذلك، سانيتش لم يكن يبتسم على هذا النحو، لقد كان يبتسم بسخرية.

نهضت ليدا من وراء المنضدة الصغيرة. ليدا، أطول منه، ربما تزيده طولاً بعدة سنتمترات، كتفاها أضيق، طبعاً، ووجهها... يشبه وجهه كثيراً، إنما هي أصغر سناً وأجمل، والنمش في وجهها قمحي اللون، وقَصة شعرها قصيرة. مسكينة ليدا، الكاتب ضليع في الإقناع، نعم، إنَّها مزية تربوية.

- هذا اقتراحي، تبجَّح الكاتب، كان ليونيد يشبه ليدا كثيراً، بالأحرى هذا اقتراح يكاتِرينا ألكسيِفنا. لقد سألتها: حسناً، هل بقي له صورة واحدة على الأقل؟ «لا، ولا واحدة». يا له من هُراء، بطل الاتحاد السوفييتي، وليس له أي صورة! اقترحت علـيَّ: لنلتقط صورة لليدا، إنها تشبهه، أليس كذلك؟ ما رأيك؟

- تشبهه جداً.

- ليدا، هذا...

- نعم، أتذكَّر، قالت، لقد زرتنا، وأحضرت معك السكَّر أيضاً، وخبزتْ أمي الفطائر، البارحة خبزتْها أيضاً.

في الواقع، ثمة رائحة فطائر، الآن شممتها... ليدا لم أعرفها إطلاقاً. أتذكَّر أن الفتاتين كانتا تحملان السُكَّر، إنما كانتا صغيرتين جداً.

- تشبهه. قلت له مرة أخرى.

- يبدأ اسمي واسمُه بحرف واحد، قالت ليدا، مع أنني لا أتذكَّر ليونكا إطلاقاً، لكنني أتذكَّر السُكَّر والشوكولاتة، ما أحضرتماه، أمَّا هو فلا أتذكَّره. كأنَّه...

رنَّت ساعة الحائط، فأخذ الوقواق يرنُّ فوراً، وقد حدَّقنا جميعاً بها، وأصغينا بصبر حتى أنهى الوقواق «كو- كو» اثنتي عشرة مرَّة.

- لقد بادلتها أمي بعنزة، أومأت ليدا باتجاه الساعة، كي يبقى في البيت أصوات، حشرة الزيز لا تعيش هنا، أنا أمسكها، وأضعها على الموقد، فتغادر.

نظر الكاتب عبر النافذة، وزمَّ شفتيه باستياء.

-هيا بنا إلى العمل، قال لنا، قبل أن تزحف السحابة من خلف النهر، فتحجب الإنارة.

المصور يفتقر دائماً إلى الإنارة.

- من الضروري أن نلتقط الصور بهمة هذا اليوم... ليدا انتبهي إلى وجهك!

كست ليدا وجهها بعلائم الجد، ثم أخذت تحدِّق بمرآة صغيرة مستديرة، وتتدرَّب على التحكُّم بوجهها.

تناول الكاتب علبة حمراء من جيبه، وأخرج منها ميدالية بحذر.

- ميدالية «الشجاعة»، أوضح لنا، لقد منحوه لاحقاً وسام لينين فضلاً عن وسام البطولة، وهما موجودان في مكتب المفوضية العسكرية في مدينة بِسْكوف.

علَّق الكاتب الميدالية بعناية على سترة ليدا، على جيبها الأيسر، بشكل مائل قليلاً، كي تشبه الحقيقة الحية.

- حسن هكذا...

تراجع فيكتور إلى الزاوية، وتأمَّل الصورة. لقد أعجبته، وأعجبتني أنا أيضاً.

- الآن إلى السلاح؛ أي رشاش أفضل، آ؟ بأي رشاش كان يقاتل ليونيد؟ في ذلك الوقت، كما أتذكَّر، كان لديه رشاش ألماني، على ما يبدو.

- كان يقاتل بكليهما، أجبته، أي أحياناً برشاشنا، وفي بعض الأحيان بالألماني، حسب الحاجة عموماً، في عمليات الاستطلاع والتجسس كان يستخدم المسدس، فالرشاش غير مجدٍ.

- المسدس غير كاف، اعترض فيكتور، ينبغي أن يكون ظاهراً...

سحب الرشاش MP عن كتفي، وناوله إلى ليدا، فجفلت.

- ليس حقيقياً، طمأنها الكاتب، لا تخافي، خذيه.

تناولت ليدا السلاح، وأمسكته بيديها الممدودتين، كأنه أفعى. ركض الكاتب إلى زاوية الغرفة، ثم صنع من أصابعه إطاراً، ونظر عبره.

- ليس هكذا... آ؟

- تشبهه عموماً، اعترضت عليه، لا بأس.

- لا ليس هكذا؛ سوف يتساءلون لماذا فدائي سوفييتي يحمل رشاشاً ألمانياً...

- من سيسأل؟

لم يجب الكاتب، أخذ الرشاش الألماني من ليدا، ثم سلَّمها الرشاش PPSh، ووضع الرشاش الألماني على صندوق، فوق مفرش سفرة المائدة الكتاني...

ظهرَ البوفيه عبر الأبواب الزجاجية، بوفيه حديث، يمكن أن ترى فيه الأطباق الفضية اللامعة، ومصباحاً، ليس مصباحاً، بل ثُريًّا من ثلاثة مصابيح، وصوان يشبه حقيبة منتفخة. ثمة صورة في إطار يدوي الصنع على الجدار فوق الصوان؛ صورة رجل مسن له شاربان غير مبتسم، لعله والده، لكنَّه لا يشبه سانيتش إطلاقاً. تحت الصورة يوجد رف ضيق عليه تسعة أفيال، ثمة شق في ظهر الفيل قبل الأخير، لم ألحظ كل هذا سابقاً.

- ثقيل، اشتكت ليدا، كيف استطعت حمله؟

- علِّقيه على رقبتك. نصحها فيكتور.

أدخلت ليدا رأسها في الحزام، ولامست يداها كعب الرشاش.

- أنت تشبهين امرأة عجوزاً! ابتسم الكاتب، لا تخافي منه! أمسكيه كما ينبغي!

- أنا لا أعرف كيف أمسكه! ضحكت ليدا.

- بثقة! بقوة!

- بثقة... شرعت ليدا تحاكيه، بقوة...

لكنَّها ضغطت على الرشاش، وقطَّبت حاجبيها.

فتغيَّر كل شيء فوراً.

كنت قد لاحظت سابقاً أنَّ السلاح يغيِّر الشخص، يظهره بطريقة مختلفة، يجعله يبدو أكبر سناً وأكثر هيبة. مالت ليدا برأسها قليلاً، وأصبحت مختلفة، قرأ الكاتب ذلك في وجهي، وقال لها:

- ارتدي معطف الفرو القصير، بسرعة!

ارتدت ليدا معطفاً قصيراً من الفرو، فصارت تشبهه أكثر: لقد قصَّرتها الملابس، وزادت كتفيها عرضاً، ابتسم الكاتب ابتسامة رضا.

- الآن اعتمري القبعة، قال لها، ثمة قبعة موجودة في مكان ما... نعم.

عثر على القبعة، هزَّها، وشعَّثها، ثم أمالها على رأسها. لماذا أجبر هذه المخلوقة أن تحلق شعرها؟

- أنا ذاهب لإحضار حامل الكاميرا... خرج الكاتب من الغرفة مسرعاً، وتركنا وحدنا.

- هل أنا أشبهه حقاً؟ سألتني ليدا.

- جداً.

- نعم... تأليف كتاب عن ليونكا هو عين الصواب، لأنَّه بطل، وقد سموا باسمه شارعاً في مدينة نوفغورود، رأت فالكا ذلك بأم عينها.

- شارع؟

- نعم، شارع جميل، كل المنازل على جانبيه جديدة، له مضخة مياه، تزهر أشجار زيزفون على جانبيه في كل مكان.

لقد تخيَّلت ذلك الشارع جيداً: صاعداً نحو الجبل، تحيط بمنازله أسيجة وأعمدة خشبية، واسم البطل مكتوب على صفائح معدنية بالأبيض والأسود.

- أين الناس؟ سألتها لا أرى أحداً. هل هم في العمل؟

- إنهم في أعمالهم، وعموماً لقد حضروا جميعاً مرتين، لما علموا أنهم يُعِدّون كتاباً عن ليونكا، جاؤوا جميعاً. عملياً لم يبق أي شيء حولنا تقريباً، لقد أحرقوا قرية فيازِنكي، وحدها أشجار التفاح تزهر فيها الآن، كما أحرقوا قرية تورتشينو، لكن أشجار التفاح يبست هناك، وبات العشب فيها بارتفاع قامة الرجل، ولا أحد يريد العيش في قرية غوريلايا بادا، لا بدَّ أنّك تعرف السبب...

- نعم.

- بالمناسبة، كان لدينا كثير من الفدائيين هنا، في ذلك المنزل، وذاك المنزل الأخضر... أشارت ليديا بإصبعها، لقد استشهدوا جميعاً تقريباً.

مسحت ليدا أنفها.

- تفاح فيازنكي لا يؤكل، قالت ليدا، لقد نما في الرماد، لا يمكن أكله، حتى في المستقبل.

سرَّحتُ نظري عبر النافذة إلى الجدار المجاور، ثمة ورود مزهرة أيضاً. لا أعرف أسماءها، تحمل كثيراً من الكرات الذهبية، حتى إنني لاحظت نحلة تزحف على طول بتلاتها المخملية الصفراء، منهمكة في جني الرحيق.

عاد فيكتور مسرعاً، يحمل حامل الكاميرا ثلاثي القوائم. هذه المرة أخذ يتصرَّف بمهارة وبراعة: نصب الحامل ثلاثي القوائم، وثبَّت الكاميرا عليه، ثم ضبط العدسة، وراح يحدِّق بوجهي.

- أعتقد أنَّ كلّ شيء على ما يرام، قلت له، إنما نحن نرتدي معاطف قصيرة من الفرو... عادة كنا نرتدي سترات مبطنة...

- من سيعير ذلك اهتماماً؟ هذه ترَّهات، الأمر الرئيس أن تتشابه الشخصيات؛ الوطن الأم لن يميز... لا، بل سيميز طبعاً.

- هل ينبغي لي أن أبتسم؟ سألتُ ليدا.

- لا، لا ينبغي، قفي من دون أي حركة، الآن.

بدأ فيكتور يوازن الكاميرا، ثم حرَّك الحامل ثلاثي القوائم إلى الجانب قليلاً، وعاد يوازنها مجدداً. كانت ليدا واقفة بلا حراك، مُقطِّبة حاجبيها قليلاً، فبدت ملامحها جديّة.

شعرتُ بحرارة الجو، فخرجتُ إلى الشارع.

توقَّفت السحابة في مكانها، لم يسمح لها النهر بالعبور، ثم زحفت فوق الحقل والمداخن، ولاحت الشمس من أطرافها، فنشرت أشعتها بقعاً في المرج. شاهدت الناس يحصدون القش، ويحدقون بالسماء، ألهذه الدرجة يحتاجون إلى القوارب: إنَّهم يتنقلون فيها إلى أعمالهم، وفي طريق العودة يحمِّلونها بالقش؟..

صعد كلب رمادي إلى السيارة، واضطجع على المقعد الخلفي، ثم تمدَّد وراح يشخر، «سيملأها بالبراغيث»، أخذت أفكر بيني وبين نفسي.

أطلَّ فيكتور من النافذة.

- هذا كل شيء. هيا لِيدْكا، جهِّزي السماوار. هل ستشرب الشاي؟

- سأشرب.

- ليدا، سيشرب!

اختفى فيكتور، ثم ظهر على الشرفة حاملاً فطيرة خبز أبيض، وخيارة مخلَّلة، ودورقاً فخارياً.

- هيا يا بوبيك ابتعد! طرد الكلب.

لكن بوبيك اكتفى بأن انقلب على جنبه، في حين لوَّح فيكتور بالخيارة.

- لقد حصلنا على لقطات جيدة، قال لنا، أظن أنها جيدة، غداً سأطبعها.

قضم قضمة من الخيارة ومن الفطيرة، ثم أتبعهما برشفة من مشروب الكفاس[30].

- دعونا نجلس؟ ثمة عارضة خشبية كبيرة... السحابة لن تحجب الشمس، لا تنظر؛ إنَّهم يخللون الخيار بشكل رائع، يمكن أن ألتهم دلواً كاملاً.

أتمَّ فيكتور قضم الخيارة، ورمى الكلب بما تبقَّى منها، فنبح جواباً على ذلك.

جلسنا على عارضة خشبية كبيرة موضوعة إلى جوار السياج بدلاً من المقعد. كانت قشرتها منزوعة، وثمة حروف مكتوبة بقلم رصاص على الخشب المصقول، لا تشكِّل كلمات كاملة، يبدو أنَّ شخصاً ما كتب أحرفاً أبجدية.

أخذ فيكتور يدخِّن، ويشرب الكفاس من الدورق الفخَّاري، ويحدِّق بحذائه.

- ألن نتأخر عن القطار؟ سألته.

- لن نتأخر... وإذا حدث أي شيء، سأتصل بالهاتف، لا تقلق. هل تريد بعض الكفاس؟

- لا.

- عبثاً، الكفاس لديهم جيد أيضاً. لقد خصَّتك ليدْكا بفطيرة سمك، لتتناولها في الطريق.

فطيرة من سمك القاروص، ألذُّ مأكول في العالم.

- ألم تسألك؟

- لا.

- ربما، معها حق. لماذا ينبغي أن تعرف...

خضَّ فيكتور الدورق الفخاري، وراح ينظر في داخله.

- لم يكن بودي أن أعرف، قال لـي، اسمع، كيف يمكنني أن أصف الخاتمة، آ؟ ما رأيك؟

أفرغ فيكتور بقية الكفاس المترسِّب في الدورق خلف العارضة الخشبية.

- أعتقد أنَّه ينبغي تقديم المعركة الأخيرة بشكل مختلف قليلاً.

- كيف؟

قفز فيكتور عن العارضة الخشبية، وبدأ يمشي أمامي، وهو يمسح ذقنه ويضغط عليها.

- أعتقد أنَّه ينبغي الإبقاء على قذائف الهاون. أمَّا مشهد الانسحاب... فليس موفَّقاً، كأنه بلا فكرة. كان يجب عليهم القتال في معركة حقيقية.

- لقد قاتلنا. ذكَّرته.

- نعم، طبعاً، لقد كتبتَ لي. إنما بقي الجميع صامتين لسبب ما، وحده غليبوف ظلَّ يكيل الشتائم. ينبغي أن يظهر ذلك كله بتفاؤل أكبر... لا بدَّ من التأكيد أن موت الفدائيين لم يكن بلا معنى.

- لم يكن بلا معنى.

- نعم، نعم، لا جدال في ذلك...

شرع فيكتور يحدثني عن الحقيقة؛ ثمة حقيقة في الحياة، وحقيقة في العمل الفني، ليس من الضروري أن تتطابقا. يُبنى الكتاب وفقاً لقوانين معينة: ينبغي أن يحتوي على نزاع، وتطورٍ شخصية، ما هو موجود في الكتب لا يتَّفق تماماً مع ما هو موجود في الحياة...

- هل تعلم أني لو سردت القصة كما رويتَها لي، لَما حصلنا على أي شيء. كل شيء في كلامك مكرَّر ورتيب، هل تفهمني؟ مثلاً: تمشون عبر الغابة، ثم تعاودون المشي مرة أخرى، ثم تعاودون المشي، تتحدثون، وتضحكون. ثمة إطلاق نار، ثم تعاودون المشي عبر الغابة من جديد، ليس حولكم إلا الثلج.

- هذا ما حدث تماماً، اعترضت على كلامه، دائماً كنا نمشي إلى مكان ما.

لوَّح فيكتور بيده فاقداً صبره.

- أفهم، أفهم، إنما لدينا ينبغي أن يكون كل شيء بشكل مختلف، من الضروري وجود مكيدة، وعقدة. نفترض وجود خائن في المعسكر، يحاولون تعريته من دون نتيجة، يدلُّ الأعداء على المعسكر. يتراجع الفدائيون في المعارك... دميتري!

- نعم؟

- يبدو لي أنَّه يجب على ليونيد أن يقول شيئاً في النهاية.

- كيف؟ لم أفهم قصده.

- لا بدَّ أن يقول ليونيد كلمة. حسناً، مثل: «روسيا عظيمة، لا مكان للتراجع...» هل تفهمني؟ طبعاً، يمكنني أن أصوغها بنفسي، لكنني أريدها من مُشارك فعليٍّ معه.

أخذ فيكتور يحدِّق بوجهي.

أما أنا فقد حاولت أن أتذكَّر ما قاله ليونيد سانيتش في ذلك الحين.

راح فيكتور ينتظر، ويدخِّن، ويهدِّد الكلب الذي احتلَّ «بوبيدا»، بقبضته، في حين كانت ليدا تضجُّ بالأواني، وتدندن لحناً.

- تذكَّرت.

ظهرت المفكِّرة في يد فيكتور من جديد، وكذلك قلم الرصاص، فأخذ يعدِّله بظفره كعادته، ثم رسم بفارغ الصبر علامة فقرة جديدة في المفكِّرة.

الفصل الخامس عشر

- هل ستتكلم؟ سألني فوفكا.

- سأتكلم، أجبته، بطريقة ما. إنما أنا لا أتذكَّر كل شيء، الأمور اختلطت علـيَّ. أنت تعلم وتدرك كم مرَّ من الوقت، كأنني لم أكن هناك...

هزَّ فوفكا رأسه تعبيراً عن إدراكه. نعم، إنَّه العمر، ليس باليد حيلة: التقدم بالسن، وتصلُّب الشرايين، والشيخوخة، وبطاقة دعوة لمراجعة طبيب الزهايمر.

- حسناً، ألا تتذكر الأمر الرئيس؟ راح ينظر إلـيَّ مضيقاً عينيه.

- الأمر الرئيس؟ ربما، أتذكَّر الأمر الرئيس. إنما لم يعد لدينا متسع من الوقت، على أي حال...

- ليس الآن، في وقت آخر؛ السبت القادم، حسناً؟

- أيام السبت لا تكفي.

أخذ فوفكا ينظر باتجاه الخليج.

- حسناً، حسناً، فليكن في عدد من أيام السبت، هذا أفضل. ويجب أن نحافظ على هذا.

- ماذا؟ أنا لا أفهم.

- ذكرياتك، إنها ضرورية للأجيال القادمة.

فوفكا شخص جاد، تهمه الأجيال القادمة: في ذكرى ميلادي الخمسين حفر بالنار على لوح من خشب القيقب أسماء شجرة عائلتنا حتى القرن الثامن عشر. للأسف، لم نكن أرستقراطيين على أي حال من الأحوال. لقد شعر فوفكا بقليل من الإحباط، كما أذكر، لكنني طمأنته بالقول إن ابني وجدَّه خدما في حامية الكرملين؛ هذا، بالمناسبة، يعادل الخدمة في فوج الفرسان لدى الإمبراطور صاحب الجلالة. كما أنَّه يُكسِب لقبَ النبلاء بالوراثة، مما يعني أنه لو كان عندنا الآن حكْم إمبراطوري، لكان فوفكا من نبلاء الجيل الثالث. لقد شعر فوفكا بالسعادة وبدأ يبتكر الرمز، والدرع، والأشرطة، وأوراق البلوط، كل شيء كما ينبغي، بما في ذلك الشعار أيضاً.

- ينبغي تسجيل كل شيء على شريط فيديو، راح فوفكا يحاكم ويقترح، وتدوين مذكرات، فكتابة المذكرات دارجة الآن، ثم إصدار كتاب مستقل يتضمن الصور والمستندات. أمر عظيم حقاً؟

- رائع.

- سنقوم بذلك، سأتحدث مع أبي وجدي، دعهم يتذكرون شيئاً ما أيضاً.

- سيتذكرون على الأرجح. وافقته الرأي.

- كان لأمي جدٌّ أيضاً، تابع فوفكا حديثه، يبدو أنه قاتل في البحرية، شاهدت صورة له، وآخر كان في الأسر، هذا مثير للاهتمام أيضاً... نحن في حاجة إلى معرفة جيدة بكل شيء. ماذا هناك أيضاً... راح فوفكا يفتِّش في الصندوق، هل تحتفظ بالحلوى؟ «حليب العصافير»... لا، أنا لا أحبُّ حلوى «حليب العصافير»، فهي تعلق بين الأسنان، كما أنَّها ثقيلة...

فتح فوفكا العلبة، وأخذ يهمهم وهو يفكر.

- ألبوم صور... لفنان إنجليزي... ممكن؟

أومأت برأسي.

أمسك فوفكا الغلاف بإصبعيه حذراً، مثلما يمسك أسطوانة أغانٍ قديمة، ثم أخرج الألبوم، ووضعه على المنضدة، وراح يقرأ:

- Yephim Chistyakoff... حسناً، يا له من اسم... إيِّبخيم[31]! لدينا واحد في الصف اسمه بورمير هل تذكره، حدثتك عنه؟ والداه صديقانا، إيِّبخيم...

راح فوفكا يضحك، وهو يحدِّق بالغلاف، ويمسح جبهته.

- إذاً، فنان إنجليزي. طُبع في لندن.

- لقد جلبوه من إنجلترا ببساطة، أوضحت له ذلك، هذا الفنان غير معروف جيداً في بلادنا، لكنَّه مشهور هناك...

- واضح. لماذا تحتفظ به؟

- يعجبني.

- حسناً، حسناً...

أخذ فوفكا يقلِّب الألبوم بنظرة خبير.

- صور مضحكة، من النوع الغبي... أشخاص كأنهم بُكم... ومرسومة بقفا اليد... ولكن بعضها يعجبني؛ هذه مثلاً، يظهر فيها طائر «الحَجل الأصمِّ»... لكنْ، لماذا هو ضخم جداً، بطول فتاة؟

- لا أعرف. هززت كتفَيَّ.

تناول فوفكا عدسة التكبير من الصندوق، وأخذ يقرأ، متلاعباً بالأصوات:

- The Black Grouse King... نوع من الملوك السود... ملك أسوَد...

- ملك الحجَل. صحَّحت له.

- آ، بالتأكيد، «ملك». واضح، كل شيء واضح. تفاحة ضخمة، الناس يجرُّونها على عربة... التفاحة هي الفرح العام... أخذ فوفكا يترجم.

- حسناً، نعم، مثل هذه التفاحة يمكن أن تجلب السعادة، هذا أمر مؤكَّد... إنما لماذا ليس الأناناس؟ الأناناس هو السعادة العامة! أنا أحبُّ الأناناس أكثر.

تابعَ تصفّح الألبوم، إنما ببطء، متمعناً في كل صورة.

- جميلة... صفر فوفكا، يا لها من لوحة: متران في ثلاثة، مساحة جدار بأكمله...

قرَّب العدسة إلى أنفه من جديد:

- لوحة مشهوره... لوحة الفنان الأكثر شهرة... ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعون... آ! ثلاثة وأربعون! كنتَ تقاتل في ذلك التاريخ... يطلق عليها اسم... Heavenly Host... Heaven تعني السماء، Host هو...

عضّ فوفكا شفته.

- توجد في الكمبيوتر كلمة هوست، لكنني لا أتذكّر كيف تترجم... باختصار Host سماوي. ومن هم هؤلاء الناس، آ؟ يا للعجب، نحو ألف شخص، ربما... ثمة ظلال خلفهم أيضاً؛ كأنَّهم يخطبون...

قرَّب المكبِّر إلى الورقة أكثر، وتمعَّن في الصورة باهتمام زائد، محدِّقاً بها عبر العدسة، ثم غمغم.

- كأنها صورة فوتوغرافية التقطت لأناس أحياء... وبعضهم كالموتى.. انظرْ إلى هذا؛ جسده مغربل بالرصاص، واقف على قدميه، ويبتسم أيضاً، انظر إلى ذاك الآخر... انتظر لحظة... إنَّه غاغارين[32]... تماماً، غاغارين! أربطة حذائه مفكوكة!

لم يعد فوفكا يضحك، صار وجهه جدياً ومتوتراً، وأخذت شفتاه ترتجفان.

- أنا أعرف غاغارين... لِـمَ هذا؟ لماذا غاغارين هنا؟ التاريخ سنة ثلاث وأربعين؟

هززت كتفي.

- هذا غاغارين بالضبط. هل هذه أجنحة؟ أم ظلال... وسنة ثلاث وأربعين...

واصل فوفكا تدقيقه عبر العدسة، ثم حدَّق بوجهي، وأنا صامت.

- مفهوم... عاد فوفكا إلى الألبوم، ربما أخطأ الإنجليز. إنَّهم دائماً يقومون بما هو مشكوك فيه. أي نوع من الناس هؤلاء؟ مع ذلك هذه لوحة غريبة، يبدو كأنَّ صورة غاغارين مرسومة، إنما هنا يضع الجميع دروعاً على صدورهم، ويحملون رماحاً...

حدَّق فوفكا بوجهي من جديد.

- تصوَّرْ، آ؟ صبيٌّ يرتدي سترة قطنية، وينتعل جزمة لباد، معه رمح ذهبي. ثمة نجمة أيضاً...

ضيَّق عينيه مرة أخرى، ونفث على العدسة المكبرة، ثم مسحها بطرف قميصه الفانيلا.

- بالمناسبة، إنه يحمل نجمة وسام البطولة، قال فوفكا، معلَّقة على سترته. نعم، ينبغي البحث في الإنترنت عن إيّبخيم هذا...

أخذ فوفكا يتثاءب نعساً، حتى اشتهيت التثاؤب أيضاً، ثم سألني:

- أيُّها الجدُّ ميتيا، أنت عندك أوسمة أيضاً، أليس كذلك؟

- نعم.

قلب فوفكا الصفحة.

- هذه أنواع من الدببة الزرقاء... أين هي؟ أقصد الأوسمة؟

- أضاعها جدك.

- كيف؟

- أعطاه كلَّ شيء: الأوسمة، والحزام، والقبعة.

- هل سمحت له أن يحمل أوسمتك؟! جحظت عينا فوفكا.

ومن شدَّة استغرابه، نهض من وراء المنضدة، وأغلق الألبوم.

- نعم، كان يلعب مع الأولاد لعبة الحرب، لذا أعطيتها له، وهو إما أنَّه أغرقها في الساقية، وإما سقطت منه، لا أذكر. حقاً لا أذكر.

- نعم... راح فوفكا يهزُّ رأسه دهشاً نعم، أنت أحياناً تدهشني... ربما كنت ستعطيه المسدس أيضاً!

- لقد أغرق المسدس أيضاً.

أخذ فوفكا يمسح جبهته، لا يعرف ماذا يقول.

- أما الطلقات فقد رميتُها شخصياً في النهر كي لا تقع مصيبة. كانت عندهم... أومأت برأسي إلى الشارع، عادة قديمة، وهي إلقاء الطلقات في النار، هكذا تصرَّف والدك وجدك، أما أنا فقد رميتها. وجدَّتُك كسرت الحربة.

- حسناً، نعم، أعلم، لقد كانت تقطِّع بها الملفوف. ابتسم فوفكا.

- نعم، الملفوف. سابقاً، كانوا يقطِّعون الملفوف بالحِراب؛ إنَّها مناسِبة تماماً. قطَعت جدتك خنصرها، فاغتاظت ورمت الحربة، أو ربما بادلتها بمنضدة صغيرة، مرة أخرى لا أذكر.

- أمر مؤسف...

راح فوفكا يَخُلُّ أسنانَه.

- لوحة غريبة مرسومة بطريقة غير مألوفة، كأنَّها هي التي تنظر...

شرع فوفكا يحاول قراءة مقدمة الألبوم، ويغمغم بنطق الكلمات الإنجليزية العنيدة، ويلوي لسانه، حتى تعب.

-... هكذا إذاً، فنان روسي بارع وُلد وتعلَّم... تلميذ الرسَّام ريبين... أو لم يكن تلميذه... ما أكثر المكتوب هنا، حسناً، سأراه فيما بعد.

خبأ فوفكا الألبوم في صندوق الحلوى، وتناول الصنارات مرة أخرى، وراح يعاين كلاً منها على حدة، ثم يضعها على المنضدة حسب قياسها.

- يبدو أنني أصبحت أدرك الغاية من صيد السمك، قال لي، ولماذا يذهبون إلى الصيد. عندما تصطاد، لا تفكر في أي شيء آخر. هذا... يشبه التحليق في الفضاء، كما أظن. قرأت كتاباً عن رحلة الأمريكيين إلى القمر. كتبه باز أولدرين. بالمناسبة، إنَّه كتاب ممتع جداً، يقول أولدرين إنه في اليوم الثاني من الرحلة نسي الأرض تماماً، كما نسي تقريباً كل حياته التي عاشها قبل بدء الرحلة، لقد كان يفكِّر بالقمر وحده. في أثناء الصيد، لا يفكِّر الناس إلا بالصيد.

- تقريباً، وافقته الرأي، ربما ينبغي لي أن أقرأ ذلك الكتاب أيضاً؟

- هيا بنا إلى القارب مرة أخرى.

- ماذا؟

- نذهب لصيد السمك، كرر فوفكا. نأخذ القارب، ونمخر الخليج، آ؟ نأخذ معنا هذه الصنانير، لماذا نتركها تصدأ هنا منذ ثلاثين سنة؟ لن نقول أي شيء لأسلافنا، دعهم يفكرون... نعم، دعهم يرغبون في التفكير. هيا، آ؟

- هيَّـا، إنما ينبغي تركيب المحرك على القارب.

- لا، المجاذيف أكثر متعة. هل بقي أي شيء آخر؟ أخذ فوفكا يفتش في الصندوق.

- أو وو... تنهَّد بخيبة أمل، لم يعد هناك أي شيء آخر، لقد فتَّشنا كل شيء، ثمة بعض الخِرق. هل يوجد أي شيء آخر؟ في القبو، ربما؟ هناك، ربما...

- فلاديمير! تدانى صوت من باحة الدار، فلاديمير، أين أنت؟ هل تتسكع في العلية؟! ثلاث دقائق! إذا لم تظهر في غضون ثلاث دقائق، سأتَّخذ التدابيـ يـ يـر الجادة!

إنَّه الولد الأصغر.

راح فوفكا يحدِّق في وجهي بثقة.

- هيا اركض، قلت له، سأرتب الأشياء بنفسي.

هزَّ فوفكا رأسه وأسرع إلى السلم.

عاد صدى متاعب السبت المملة يتعالى من الشارع مرة أخرى. الأكبر مصرٌّ على أنَّه لا يجوز جلد الأطفال بالحزام، وأنَّه ينبغي التعامل معهم بالكلمة الطيبة والإقناع؛ فيذكِّره الأصغر كم كان يتعرَّض، في غالب الأحيان، إلى الجَلد بصرامة وبلا رحمة تماماً، هذا فضلاً عن الكلام الذي لا يقوله المحترَمون. أما الإقناع، فيمكنه أن يكتب عنه ملحمة في مجلدين، فيبرر الأكبر رأيه بأنَّ الزمن قد تغير.

أخذت الأجراس ترنُّ فوق رأسي، وعادت الرياح إلى الخليج، كما استيقظت دَوَّارة الهواء[33]، لقد جلبها الأصغر من ألمانيا، صُنعت يدوياً في بداية القرن الماضي، إما من القلعة وإما من بلدية المدينة، ركَّبوها العامَ الماضي، وقد أمضوا يوماً كاملاً في تركيبها، وأصبحتُ الآن في الأيام العاصفة أسمع أغاني تلك السفينة الشراعية النحاسية المدببة. في العام المقبل، سوف يجلب الأصغر دَوَّارة هواء كاملة، ويركِّبها في باحة الدار، وأنا لا أزال أفكر: هل أوافق؟

رنين الأجراس مستمرٌّ، أخرجت الألبوم مرة أخرى من الصندوق. إيِّبخيم، نعم يا لهؤلاء البريطانيين. الصفحة الثامنة والعشرون، «Heavenly Host» أنا أعرف كيف يترجم ذلك. السنة الثالثة والأربعون، لست في حاجة إلى عدسة مكبِّرة، لقد شاهدت هذه الصورة ألف مرة، أستطيع مشاهدتها مغمض العينين، لذلك أنا لست في حاجة إلى ألبوم.

ها هو ذا سانيتش ينظر إلـيَّ عبر ورق الألبوم السميك اللامع مبتهجاً ومغتاظاً، يستند إلى الجدار، شاهراً رمحه في ظل ممر جبلي ضيق يفصل بين الظلام والنور، سليل هرقل من الجيل الثالث

والأربعين على أهبة الاستعداد دائماً. خلفه ضباب عميق، تتخلّله خيوط فضية غير مرئية تقريباً، يمكن تخمين هيئات غامضة تختفي في التداخل المحموم بين تلك الخيوط، عددها كبير جداً، إنَّهم...

ربما هذه تخيلات؛ بالتأكيد فقد كبرتُ في السن، ولكن الناس لا يزدادون ذكاء بمرور السنين، إذ تُضعِف الزوابعُ التيارَ الكهربائيَّ في رؤوسهم وتحطِّمه، ويمرُّ زمنٌ بين الرغبة بحكِّ الرأس وحركة اليد، فما بالُك بالحديث عن التخيُّلات والذاكرة.

أحياناً لا أتذكَّر ما حدث يوم الأربعاء الماضي، لكنني أتذكَّر جيداً ما حدث قبل سبعين عاماً.

وبرغم ذلك فإن رمحه شديدُ الشبه بنزَّالة الفُرن[34].

1. الملبن حلوى كالإصبع، إسطوانية طويلة الشكل، يتخللها خيط رفيع، تصنع من دبس العنب والسكر والنشا والماء، ومحشوّة بالجوز. المراجع.

↑.

2. نفايات أردأ أنواع التبغ. المراجع.

↑.

3. حشرة صغيرة سامّة، من فصيلة كثيرات الأ رجل. المراجع.

↑.

4. مسحوق سامّ يبيد الحشرات الضارة. المراجع.

↑.

5. السيّد herr (بالألمانية). المراجع.

↑.

6. صيغة التحبب والتصغير من اسم دميتري. المراجع.

↑.

7. نسبة إلى الجنرال أندريه فلاسوف الذي تزعَّم «جيش التحرير الروسي» العميل لهتلر في الحرب العالمية الثانية. المراجع.

↥.

8. الكولاك هم أثرياء الفلاحين في روسيا القيصرية. جردتهم الثورة الشيوعية من أملاكهم واعتبرتهم «أعداء الشعب». المراجع.

↥.

9. تشيخون، قبائل من إثنيات تعيش في فنلندا وجمهوريات البلطيق وبعض المناطق الروسية. المراجع.

↥.

10. النطق الروسي للعبارة الألمانية: «ارفع يديك، هيّا إلى النزهة». المراجع.

↥.

11. باشا، صيغة التحبب والتصغير من اسم بافل (باول). المراجع.

↥.

12. نيستور إيفانتش ماخنو (1888، 1934). فوضوي أوكراني قاتل مع الشيوعيين بشجاعة، ثم اختلف معهم سنة 1924، فهرب ومات في فرنسا. المراجع.

↥.

13. «سيطير العصفور» عبارة كانت تقال أيام التصوير المائي (الكيميائي) ليبتسم الشخص (وخاصة الطفل) ويركِّز نظره على العدسة فلا ترفُّ جفونه لحظة التقاط الصورة. المراجع.

↥.

14. شجرة التنُّوب (شجرة عيد الميلاد) من فصيلة الصنوبريات، مخروطية، دائمة الخضرة. المراجع.

↥.

15. الوشَق حيوان بين القط والنمر، يعيش في الغابات. رأسه كبير، وذيله قصير، على طرفي أذنيه خصلتان من الشعر. المترجم.

↥

16. كلمة خموري بالروسية تعني: العابس، المتجهِّم. المراجع.

↥

17. شوريك: اسم علم، تصغير شوري في القصة. المترجم.

↥

18. يوغو يونكرز (1859-1935) مهندس ومصمم طائرات ألماني، سُميّت طائرات يونكرز الألمانية باسمه. المترجم.

↥

19. أوفراجي اشتقاق من كلمة (أوفراغ) ومعناها بالروسية: الوادي، الخندق. - المراجع.

↥

20. في روسيا علامة الامتحان: خمس درجات (ممتاز)، أربع (جيد)، ثلاث (مقبول، وسط)، اثنتان (ضعيف، علامة الرسوب). المترجم.

↥

21. الصواعق جمع صاعق، وهو جزء صغير ينفجر ذاتياً ويفجِّر القذيفة على الأرض أو في الجو. المراجع.

↥

22. بالألمانية: يسقط هتلر. المترجم

↥

23. الخثّ طبقة متراصّة من نباتات وطحالب تخلّفها المستنقعات أو السيول بعد أن تجفّ. وهو يستخدم مادّة للوقود. المراجع.

.↑

24. الملتهِم، الجشِع. المراجع.

.↑

25. القُراد ذبابة ذات أربعة أزواج من الأرجل، تعيش على الدوابِّ والطيور وتمتصُّ دمَها. الواحدة قُرادة. (المعجم الوسيط). المراجع.

.↑

26. ستيبان رازِن(1630-1671) زعيم انتفاضة فلاحين ضد القيصر الروسي. المراجع.

.↑

27. سيّارة «بوبيِدا» («النصر») أول سيّارة خاصة صنعها الاتحاد السوفيتي خلال الأعوام 1946- 1958. المراجع.

.↑

28. «اقتلوا الألمان»، مقال الكاتب إيليا إرنبورغ في صحيفة «كراسنايا زفيزدا»، «النجم الأحمر» 24 تموز عام 1942. المترجم.

.↑

29. زويا كوسموديميانسكايا (1923، 1941): فدائية شهيرة، بطلة الاتحاد السوفيتي، شاركت في حرب الأنصار ضد الاحتلال الفاشي لبلادها. شنقها الألمان، وتركوها معلقة على المشنقة أكثر من أسبوع. المترجم.

.↑

30. شراب روسي بارد، مثل كوكا كولا، حامض قليلاً، يصنع من الطحين والشعير والعسل، وكذلك من الشوندر والفواكه. يستعمل -أيضاً- في طهو بعض أنواع الحَساء البارد في الصيف. المراجع.

.↑

31. النطق الصحيح: يِفيم، كما هو مكتوب بالإنجليزية. وفي هذا النطق تلميح إلى جهل فوفكا. المراجع.

↑.

32. يوري غاغارين (1934-1968) طيَّار حربي روسي. أصبح يوم 21/4/1961 أول إنسان في التاريخ يقوم برحلة إلى الفضاء الخارجي في مركبة فضائية يحملها صاروخ. المراجع.

↑.

33. دَوّارة الهواء، جهازٌ دوَّار بسيط ينصب على عمود فوق سطح المنزل لتحديد اتجاه الرياح وسرعتها. المراجع.

↑.

34. عصا طويلة تنتهي بقرنَي حديد معقوفين لدفع القدور إلى عمق الفرن، واستخراجها بها بعد النضج. المراجع.

↑.

Table of Contents